الْأَعْرَافِيّ

الأعرافي (رواية)

مايا الطرابيلي

■ **الطبعة الأولى** ..... يناير 2017

الغلاف:

التصحيح اللغوي:

رقم الإيداع: 22766/ 2016

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 5153 – 97 – 3

جميع حقوق الطبع محفوظة

للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2 – أمام أرض المعارض – مدينة نصر

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

الأعرافي

رواية

مايا الطرابيلي

الرواق للنشر والتوزيع

إهداء إلى..

* روح جدي؛ من لم يتوقف يومًا عن محاولة الموازنة بين ملائكيته وبشريته.

* الخطاة النورانيين؛ كل أعرافيي الأرض، من لن ييأسوا يومًا من رحمته.

* من يوقنون بمقامهم فى أرواحنا، وإن احترفنا الصمت.

«ألقى بي الله بين ربوع أرضه، متحديًا إياي أن أنجح في معاودة الصعود؛ بتُ ككرة المطاط، يومًا أحلق صوب ملكوت رحابته، وآخر أنغرز في طين أصلي، وما بينهما رحلات طويلة من معاقبة نفسي.. ولحظات زهو!»

«لا بأس من مزج بعض الخيال بالواقع.. ليكون أجمل»

(١)

ثبتــت الكاهنة الريشــتين في تاجهــا، وتأملت انعــكاس صورتها في المــرآة برضــا، ثم التفتت صوب رجــل يرتل من قرآن مفتــوح أمامه تلفه سحابة من بخور، قائلة:

ـ يا جدي.. أعدته وأنا شاكرة.

أنهى تلاوته باسمًا: يا جدتي. أعدك أن يكون أمانة ليوم الدين.

نهضت بغتة وقد تلاشى الفرح عن محياها: أسمع أصواتًا قادمة من بعيد؛ هي نذير الغياب، ستفرط فيه يا عبد السلام؟ ستفرط!

هتف بلهفة: إلى أين يا جدتي؟ انتظري يا ميليت. لن أفرط.

قالــت بحزن: ســتفرط! فقط لا تنــسَ ميليت أيهــا الأعرافي، لا تنسَ جدتك يا جدي.

طبعت قبلة فوق وجنته وتلاشت كالدخان، ليجفل على صوت محمد مشيرًا لأحدهم في غرفة المسافرين: حضر الرجل يا أبي في موعده.

حدق عبد السلام بالجعران المطبق عليه بأصابعه، فأدرك أن النعاس

قد غلبه في أثناء انتظاره؛ من عادته أخذ قيلولة بعد صلاة العصر واضطر لتغيير عادته بسبب الاتفاق؛ أخبره مرسال بقدوم أحد الزبائن لمصلحة، بل لاحتياج، هكذا يرى كل من يأتي إليه، محتاجًا مثله، فما رماه على تلك المأساة سوى الاحتياج! لولاه ما فكر لحظة في ممارسة دور سخيف يكره كل ما يمت له بصلة. تذكر ميليت زائرة أحلامه منذ لمس الجعران كفه، رآها الآن حزينة، رغم أنها كانت تبتسم في كل اللقاءات السابقة!

انتبه على صوت محمد، فأمره بإغلاق مذياع الصالة الذى كان ينقل إحدى خطب عبد الناصر، ورحب بالقادم قائلًا: مرحبًا ستيفان.

سقط قلب الرجل الغريب موضع قدميه: لم أخبر أحد هنا باسمي!

أشار إليه عبد السلام بالجلوس: أتيت لأنك أردت التصديق، تمنيته. وسأمنحك ما تريد، يحزنني ما يصنعه الحب العاجز بالبشر، لو قَدَّرتْ ما تكنه لها يا ستيفان، لبردت النار المستعرة بصدرها!

كان ستيفان مزراحي مخرجًا يشاع له بالعبقرية، عاشق لصناعة السينما، ساهم في ظهور العديد من الوجوه المصرية واليهودية الأصل، محاولاً إذابة الفروق بين الديانتين بجعل شخصيات أفلامه تمثل اليهودية بطبائع مصرية، حصل على تقدير الحكومة حين أخرج أول أفلامه الصامتة؛ بعنوان (أفيون) في لفتة ذكية معاونًا الاتجاه القومي حينذاك على محاربة المخدرات. تمكن في فترة قصيرة من السيطرة على سوق السينما في الشرق، لكن سرعان ما تلاشى بريق إمبراطوريته حين استطاعت واحدة من الوجوه الجديدة إيقاعه بحبائلها، واكتشافه بعدها أنها خدعة مخابراتية لإيقاعه في الشرك كي يتعاون مع الكيان الصهيوني. أفقدته الضربة اتزانه، وقاربت على تدمير حياته الأسرية مع زوجته وابنه ونفيه خارج البلاد، ليقرر الرحيل مع عائلته إلى المغرب موطن زوجته؛ لكنه لم يطق صبرًا على جهله بمكانها، وجاء مرغمًا إلى عبد السلام قبل سفره بأسبوع للبحث عنها.

جالت عيناه يتأمل ما حوله في حجرة المسافرين كما يطلقون عليها،

يدقق في كل تفصيلة بعيني مخرج تلتقط ما لا يلتقطه سواه، فلم يعثر إلا على أثاث بسيط من أريكة خشبية عتيقة وأربعة مقاعد وطاولة خفيضة، وجدران أربعة تآكل طلاؤها المعلق فوقه سجادة باهتة تحمل صورة للكعبة، وإطار مذهب على الجدار الآخر يحوي راقصة بثوب أحمر من الترتر. لم يعثر على أي مما توقع! لا جمجمة تحفها تماسيح محنطة وثعابين مدلاة من السقف، أو بخور يتصاعد بروائح ثقيلة تجذب العفاريت، أو حتى كتاب ضخم على غلافه صور طلاسم وكتابات غير مفهومة.. لا شيء سوى غرفة فقيرة الحال.

كم يحزنه ما آلت إليه حاله! تائه وعاجز عن التركيز في عمله، أهمل زوجته وابنه، وأصبح زائرًا دائمًا لمعبد (دموه) يصلي للرب كي يهديه إليها؛ خطيئته المجسمة! خطيئة فاتنة لا توبة لها ولا غفران، وكم كان ممتعًا ولذيذًا ممارستها بلا ندم. يبحث عن وسيلة سخيفة تخبره عن مكانها لدى دجال. وهي السبب! تركته وسط الطريق معلقًا بين قربها واختفاء أوقد في صدره الحريق، يغيظه فقدانه الاتزان لهذه الدرجة، مخرج عبقري تشهد له السينما بالعظمة، صانع أحلام كما يقولون! لا يرضيه الواقع بمآسيه المزعجة فيصنع عالمًا خاصًا به، يحمل أفكاره التي تتخطى دومًا حدود الزمن والمسلمات؛ أجل، هو قادر على تخطي الزمن، لكن الغيب عجزه الأشد والأقسى.

ولد ستيفان رغم أصوله الإيطالية بالقاهرة، تمصرت عائلته ونسيت كل شيء بشأن أصولهم، سحرتهم الأرض وناسها والتاريخ، تمامًا كما سحرته ابنة إبراهام! ورغم العالم الواسع الذي يفتح له ذراعيه في كل شبر من فرنسا التي يتقن لغتها حد الإجادة، ومثلها إيطاليا والولايات المتحدة التي ظل فيها لثلاث سنوات يدرس التصوير السينمائي؛ لم يستطيع أي شبر آخر من الأرض جذبه كما تفعل مصر! لا عمل بطعم النجاح الحقيقي سوى هنا، حتى الإلحاح الدائم من زوجته راشيل بالهجرة إلى المغرب لدى ذويها لم يستطع إثناءه عن البقاء، لكن منذ اختفائها والدنيا

تضيق، بات يملك جناحين عاجزين عن التحليق، وكأنها ملكت غبار الجنيات، نفثته في وجهه فسحرته؛ ليليان إبراهام؛ ملاكه اللعين!

حملت ليليان الديانة اليهودية دون أن تحمل انتماء للأرض مثله؛ نقطة الخلاف الأشد بينهما. لا يدري من أين أتت ولا متى ظهرت في حياته، كل ما يجزم به أنها صارت في لحظة كأنها بقلبه منذ الأزل. هو الرجل الذي شارف على الخمسين، تسلبه ثلاثينية عقله كما تُسْلَبُ الشعرة من العجين. أمضى معها ليالي من الغرام الملتهب دون أن يحصي ساعات سرقتها من عمره الذي لم يبقَ فيه الكثير، متشدقة بإصرار أن فارق العمر بينهما محض سخافة؛ فالعمر يقاس بمدى المتعة التي نغتصبها من الحياة لا بأيام تمر بلا معنى ولا طعم. تلقى الحب من شفتيها كما يتلقى القمر ضياء الشمس فيتوهج، غزته بغرامها حتى أنسته اسمه، أمضى بين ذراعيها أجمل أيام حياته، وبعدها فقد كل شيء بريقه.

كانتا شقيقتين؛ (ليليان ونينات) إبراهام، من أسرة يهودية تقطن حارة اليهود وتعملان في الحياكة، يملكان حانوتًا في شارع راق يعملان فيه لعلية القوم، جاءتا تستجديان نظرة اهتمام بعد توسلهما مُساعِده كي يسمح لهما بمقابلته. حملت ليليان قسمات جموح جريئة بجاذبية أخاذة وطموح بلا حدود، على عكس نينات التي حملت ملامح هادئة ووداعة لم تسترع انتباهه، بقدر ما استرعت انتباهه شفتا ليليان اللتان بلون الكرز مسكرة إياه بلا قطرة نبيذ، وعيناها الناعستان على اتساعهما؛ تطل منهما (عفرتة) آسرة، بأهداب منتصبة كالحراب يتقافز فوقها الجن! هناك فقط رأى الجن.. لا في غرفة الدجال السخيفة! اختطفته على حين غرة هاتفة بثقة شديدة:

ـ أنا بطلتك الجديدة؛ ما رأيك في راقية بدلاً من ليليان، ألا تراه أكثر رومانسية؟

أسند لها البطولة في أربعة أفلام صعدت بنجمها للسماء في فترة قصيرة لا تتعدى العامين، صانعًا منها فتاة أحلام الشباب ومدللة قلوب هامت بها

عشقًا كما هام بها. قربت بينهما ساعات العمل الطويلة، جاذبة انتباهه بعنفوانها واهتمامها الزائد، حريصة على مشاركته طعامها في فترات الاستراحة، فكان الوقت أكبر مهاجم لمشاعره حتى حلت لعنة الفيلم الخامس! عرضَ عليها القيام بدور جديد لبدوية ساعدت كتيبة من الجيش المصري في الصحراء، فرفضت رفضًا قاطعًا مستنكرة معارضته حلمها بتقوية دعائم الدولة الإسرائيلية رغم ما يحمله من ديانة يهودية؛ وقد علم منها أنها سهلت للعديد من الأُسَر الهجرة لإسرائيل، فاندلع شجار عنيف بينهما.

ـ لا أدري سر حبك لمصر كل هذا الحب يا ستيفان!

قال بصدق شديد: وما الذي رأيتُه منها يجعلني أكرهها يا ليليان؟

حرص بعدها كل منهما على تجنب الحديث في أمور شائكة يمكنها أن تعكر صفو حبهما، لكن.. في لحظة اختفت! اختفت بغتة كما ظهرت بغتة، حتى نينات شقيقتها لم تعرف شيئًا عنها، ضيق على الأخيرة الخناق طويلاً وحاصرها عله يحصل على معلومة تبرد نار قلبه بلا فائدة، كأنها تبخرت في الهواء! لشهرين عكف على البحث عنها في أقسام الشرطة والمستشفيات، منتظرًا خبر وفاتها أو ظهور جثتها، حتى كاد يفقد الأمل، والانتظار جحيم العشاق! لولا أن دله صديق على عبد السلام الطيب، أخبره أنه يملك قدرة استثنائية على معرفة الخفايا، عله يساعده في العثور عليها! لكنه عاجز عن التصديق، فمن الصعب على مثقف مثله التسليم بأمر كهذا بلا صراع بين عقل واعٍ وقلب يتوسله التعلق بقشة تنجيه من غرق فراقها! ولكي يُرضي عقله وقلبه قرر المجيء ليقطع الشك باليقين.

قال عبد السلام: ستظل عطشًا بلا رواء فبحرها مالح ملعون.

تطلع ستيفان نحوه شاخصًا: ماذا تعني بحديثك؟

كان محمد يطالع ما يدور في صمت كما اعتاد طوال الأسابيع المنصرمة، كل يومين أو ثلاثة يأتي زائر يطلب المساعدة فيأمل النقود، ثم يرحل ويبقى والده خالي الوفاض بارتياح غريب! تحدوه السعادة كلما رحل القادم بلا مقابل. فاض الكيل والحال نفس الحال ولا بشائر في الأفق؛ يتجاهل والده

أخذ مقابل للمساعدة ولا يجرؤ على التوقف خشية مغبة اللوم منه. قرر محمد أن الليلة هي الفرصة الأخيرة، إما أن يأتي له بالنقود التي وعده بها وإلا! لا يدري حقًا ما سيفعله، لأنه ببساطة لا يملك سوى العودة للعمل خادمًا في دكان العطارة.

أطرق عبد السلام لوهلة ثم ابتسم: من الجميل أن تصنع عالمًا كما تحب أن تراه؛ والآن أعطني ما أحضرته من أثرها.

ناوله منديلها، مضيقًا عينيه: أنت رجل غريب! هذا لا يزال يحمل عطرها.

قال محمد: الأهم أن يحمل رائحتها لا عطرها.

ابتسم عبد السلام؛ الولد سر أبيه وإن عافر وقاوم حتى تدمى إرادته! احتضن المنديل بين كفيه وجعل يقرأ بعض آيات من القرآن بصوت مسموع، ثم خفض صوته متمتمًا بكلمات أخرى لم تلتقطها أسماعهم.

ـ كما قال محمد، من الجيد أنك لم تغسله وإلا أصبح بلا فائدة؛ هي ليست هنا، ليليان غادرت البلاد يا سيد ستيفان.

صعق لجزء من الثانية ثم أعاد رأسه إلى الوراء ضاحكًا بسخرية: ماذا؟ ألن تتطلع لبلورتك الكريستالية أو تقرأ التاروت؟ هكذا ببساطة علمت أنها خارج البلاد؟ كم كنت أحمق بمجيئي! تتخلص من المعضلة بأكثر الطرق سهولة؛ توجيهي لمكان يصعب عليّ التحقق فيه من حديثك.

ضرب عبد السلام ذراع الأريكة بغضب: لست بحاجة لبلورة ولا أوراق تافهة يا سيد فالأمر بسيط، إما أن أعرف وإما لا، وقد أخبرتك بما لديّ، عد لشقيقتها الليلة وألح عليها في السؤال، تحمل لك من المودة ما سيجعلها راغبة في إراحة نفسك الممزعة بآخر المعلومات التي وصلتها.

جذب أنظار ستيفان قلادة وقعت على الأرض تعلق بطرفها حجر جعران، فقال بنبرة مهزومة: سامح فظاظتي يا شيخ عبد السلام، أنـــ..

ـ لا تناديني بالشيخ.

ـ حسنًا. كل ما في الأمر أني ممزع بين رغبتي في العثور عليها ورغبة أخرى في طي الحكاية وراء ظهري. كل شيء يذكرني بها؛ انظر مثلاً لهذا الحجر الأزرق، كانت تعشق الفرعونيات. أتبيعني إياه يا شيـــ.. يا سيد عبد السلام؟

انحنى ملتقطًا الجعران: ليس ملكي كي أبيعه، يشاركني فيه ملايين البشر.

ـ سأعطيك مقابله الكثير، أكثر من مقابل الخدمة التي أسديتني إياها.

ـ لكنك ستأخذه بعيدًا.. بعيدًا جدًا!

سأله ستيفان بحيرة عما يعني بينما هتف محمد بلهفة: كم تعطينا مقابله؟ لتعلم أنه ثمين.

حدجه والده بلوم: سيذهب به خلفها يا محمد، إنه أمانة.

همس محمد في أذنـه: تعلم يا أبي أنك سترفض أخذ مقابل منه كعادتك وقد مللت وعودك، لا تنسَ أني أسعى فقط لأجل خاطر أمي بديعة، أرجوك اقبل وأعدك ألا أطالبك بشيء بعدها.

ـ أمري إلى الله يا محمد؛ فقط لأجل بديعة، رغم أنك لا تدرك ما مر به الحجر ليصل إليّ، وإلى أين مصيره.

* * *

(٢)

منذ وطئت أقدامهم قبل سويعات الأرض السوداء (كيميت)؛ هيمن عليهم سحرها؛ احتفالات الألوان المبهجة العابقة بالحياة تفغر أفواههم ببلاهة. يباغتهم كل حين توهج الذهب في كل مكان، وقد تفنن الكيمتيون في تطويعه، يكسو الأعمدة والمسلات وقمم الأهرامات والمعابد، مُزَيغًا الأبصار بهاء وعظمة ورغد عيش، بأكثر مما تحتمله أرواحهم البدائية قاطنة الأحراش، مُسَلِّمين قسماتهم الخشنة لأصابع الذهول تنحتها كيف تشاء. اتسعت أعينهم حسدًا فور وصولهم من رحلة طويلة حملتهم من أقصى مغارب الأرض لأقصى مشارقها، حتى لم يجد المساكين منقذًا من حوريات هاجمنهم من كل حدب وصوب، آسرات أنظارهم المبهوتة بقفزاتهن الراقصة داخل حلقات خشبية ملونة، على موسيقى صلاصل رنانة، وأوتار مشدودة كقدودهم الخيزرانية الملوحة بشمس كيميت. ينفث العازفون المهرة أنفاسًا حارة بثقوب عصيّ خشبية؛ فتنبعث أنغامًا تمايل خصورهن الرشيقة، ولولا نفخات لاعبي الحيل النارية التي انتزعتهم من وجومهم ما انتبهوا لحضوره المبجل!

ـ مولاي وحم إيب رع، ملك الأرضين، المبارك أبديًا، حفظته الآلهة.

دلف الملك إلى قاعة العرش وسط صمت مهيب تنحني له رؤوس الحضور. ترتل من أجله الكهنة صلوات التبرك والحماية، مرسلين سحابات البخور من مباخرهم النحاسية. تتدلى عشرات المشاعل على الأعمدة الرخامية المزينة برسوم الطير والآلهة الملونة، عاكسة أضواءها المتراقصة فوق الأرضية الجرانيتية اللامعة. كان الجميع في الانتظار؛ من أراد التشفي والمتحرق فضولاً والمنتظر بلهفة العطايا والمنح، يجول سؤال ملح في رؤوس الجمع، كيف عادوا من الرحلة دون أن تطحنهم الفصول الطويلة ويجرفهم الغياب كالفيضان؟! فيما وقف قائد الجيش ومعاونه ومعه الكهنة الكبار على يمينه، وعلى يساره وقف وفد البعثة العائد، والملك يتطلع أمامه بعينين زائغتين ورؤية تشوشها آلام رأسه؛ تكاد تفقده الصواب الموسيقى المنبعثة من قيثارة ضخمة تداعب أواتارها إحدى الحسناوات، حتى نمره المرقش شاطره الانزعاج وقد تعالت ضرضرته، وبإشارة نافدة الصبر أوقف العازفين والراقصات والمراوح الريشية الحائمة على جانبي عرشه، ليسود الصمت، متأملاً بلا مبالاة صنوف التحف المتراصة أسفل قدميه من أزواج عاج أصفر وطبقات حرير زاهٍ، ومن أكياس مليئة بحفنات بخور تحمل نسمات الشرفة رائحته وتنثرها بين الحضور، وجلود تماسيح وثعابين ضخمة وفراء دببة وثعالب برية، وصناديق أحجار كريمة وماس أصفر وأحمر نادر، والكثير من كتل ذهب عذراء لم تشكلها أداة بعد.

قال كبير الكهنة الواقف قرب عرش الملك، متلحفًا بكتل من الشحم وقطعة ثمينة من جلد التمساح مسدلة حتى أعلى ركبتيه: اختار كبير البعثة أفضل قطع الرحلة لأجلك يا مولاي ـ أردف بمكر ـ لم تنسَ بالطبع نصيب المعبد يا كانجي؟!

كانت مرة من القلائل التي يحضر فيها للقصر بنفسه، متخليًا عن إرسال رسالة بواسطة مساعده. تطلع الأخير نحوه، مجيبًا: وهل أجرؤ على المخاطرة بغضب الأرباب يا حاكم المعبد المزدوج؟

زلزلت ضحكات الكاهن جسده: أحسنت، ما رأي مولاي؟ مولاي!

التفت الملك ممسدًا جبهته بضيق: جيد، جيد يا هاريس.

قال كانجي: استغرقتني الرحلة وطاقم بحارتي الفينيقيين يا مولاي ثلاث سنوات رأينا فيها العجائب، من بحر العرب لبحر لوبيا الجنوبي، ومنه إلى البحر الغربي حتى وصلنا نحو أعمدة هركيل ومنه إلى بحر الشمال. من يصدق أن الشمس أشرقت خلال رحلتنا عن يميننا؟! كان قرار إرسال البعثة عظيما ـ أشار صوب جمع من ذوي البشرة السوداء ـ قرر مصاحبتنا رحلة العودة بعض سفراء قبائل جنوب لوبيا، كانوا كرماء معنا وسمحوا لنا بزراعة بذور في أراضيهم في أثناء استراحة رحلتنا.

قال الملك: رائع يا كانجي. لا يجب أن تبقى كيميت في معزل، أنهارها وبحارها أفضل الدروب للتواصل مع العالم، لم تخيب ظني باختيارك.

رفع أحد الضيوف يده يطلب الإذن بالحديث، يمسك بصولجان خشبي مُكَللاً برأس حية، ويتقلد سلسلة من الخرزات الملونة والأنياب. أومأ الملك بالموافقة فيما حرص كانجي على الترجمة.

ـ يقول (موتوا) ولي عهد قبيلة (خويتانا) إنه سعيد بمجيئه من بلاده البعيدة، لينهل من شمس معرفتنا في معبد هليوبوليس، حريصًا على نقل علمه لشعبه لتحظى بلاده بالرخاء كما يحظى به الكيميتيون.

قال الملك: مرحبا دومًا بالأصدقاء، لم تبخل كيميت يومًا بنور معرفتها.

أشار موتوا لامرأة انفرجت شفتاها الغليظتان عن ابتسامة واسعة، تقف بجواره عارية النهدين، متشحة بجلد غزال حول وسطها، يتدلى من عنقها قلادة ريش وقد لملمت شعرها لعشرات الضفائر الرفيعة، وحول كاحليها سلسلتان من خرز ملون، فيما قام كانجي مجددًا بالترجمة: يقول موتوا إن سيراتاون هدية والده للعظيم وحم إيب رع، وقد اختارها من بين مئة فاتنة في القبيلة.

سارع كبير الكهنة هاتفًا وعيناه تتفرسان في جسدها وعجيزتها البالغة الضخامة؛ أمر تمتاز به نساء خويتانا.

ـ أرى يا مولاي أنها ستكون مفيدة جدًا في خدمة المعبد.

زفر الملك بتهكم: بالطبع يا هاريس. اذهب وضيوفنا الآن يا كانجي للحصول على الراحة وسنتحدث غدًا ـ انحنى رئيس البعثة مغادرًا فأشار لكبير الكهنة ـ أين العرافة؟ أخبرتَني بمجيئها الليلة.

ـ ستأتي يا مولاي، قريبًا ستأتي.

همس بأذنه أحد رفقائه من الكهنة: وافقت أخيرا على طلبها بمقابلة الملك! كيف وأنت تكرهها وتصلي للآلهة لتفترسها تماسيح حابي؟!

أطل الخبث كرأس أفعى من شقي عينيه: فرصة لمحوها وتحطيم أسطورتها لدى مريديها، عليها فقط أن تفشل وسآمر بطردها من المعبد لذاك الغرور السافر؛ تدعي قدرتها على شفاء ملك الأرضين، متواقحة ألا أحد يملك ما تملكه من علم، لنرَ إذن ما ستفعله، نصبتْ فخها بيديها.

ـ يحق لها يا كبير الكهنة، ميليت يقصدها الناس من كل مكان؛ يفضلون استشارتها في أمورهم ويأتون بأبنائهم ليدرسوا على يديها أصول العلم الكهنوتي والسحر، أياديها ممتدة في كل بيت بطوق نجاة أو مشورة أو مظلمة ترفعها إليك، تأثيرها خطر.

ـ ما يقلقني هو تبجحها بأفكارها المنحرفة؛ تدعوهم أن يجعلوا الآلهة للعبادة فقط، وألا يستعينوا بها في اتخاذ قراراتهم المصيرية وعلاج مرضاهم، ساعية بهذا لزعزعة مقام الكهنوت وسلطته على العامة.

نهض الملك بغتة مغادرًا القاعة صوب جناحه، فسارع كبير الكهنة خلفه لتجمعهما القاعة الصغرى. صمت لوهلة باحثًا عن طرف خيط يرشده لبدء الحديث ثم قال: مولاي، يقلقني ما هو عازم عليه أليواقيم ملك يهودا! أعلن امتناعه صراحة عن دفع الجزية.

سار الملك نحو سور الشرفة المطلة على ضفاف حابي، وقد ارتفعت زاوية فمه؛ يدرك رغبة الكاهن في الحرب؛ فرصة رائعة لحصد المزيد من مغانمها، فيملأ غرفاته بالجواري والعبيد وخزائن المعبد بكنوزها.

ـ قرر تغيير سياسته.

ـ تعلم هذا وما يشغلك البعثة؟!

ـ لست الحريص على وصول الكنوز للمعبد يا كبير الكهنة! لم تكن هدفي؛ أردت الخروج للعالم واستكشاف البعيد ـ رفع يده للسماء ملامسًا شيئًا وهميًا ـ فتصل أناملنا خلف الغيب، الكثير من الأسئلة بلا إجابة، والمعرفة قوة تحتاجها كيمي أكثر من احتياجها لقوة السلاح.

ـ لكنك من مكنه على أرض يهودا عوضًا عن أخيه يهواحاز!

ـ أجل. لكن بعد اصطحابي شقيقه أسيرًا إلى كيميت وانتقاله منها للعالم الآخر. على أي حال، معروف ألا عهد لملوك يهودا، كما لا شيء نقيًا بشأن السياسة يا هاريس، فلكل دوافعه الخيرة والشريرة، ولكل الحق فيما رغب؛ هكذا ننظر جميعنا من أهل الملك والسلطان ـ لوح كمن يلقي عن عاتقه قذارة تقرفه ـ وبتغير المصالح تتغير السياسات.

ـ لكن كان يجدر به الحفاظ على صلته الجيدة بكيميت.

كانت الآلام تطحن جمجمة الملك كالرحى. يتطلع بتقطيبة عبر الشرفة صوب التمثال الذهبي المنتصب بشموخ عند مدخل البحيرة، تداعب كتفيه سعفات النخيل وتتسابق موجات الماء في غسل قدميه المقدستين.

ـ بعدما توليتُ العرش برحيل بسماتيك العظيم ـ سارع الكاهن متممًا بصلاة تبارك روحه المقدسة لدى أوزيريس ـ تنازلتْ لي شقيقتي المحبة (نيتوكريس) عن كل الأراضي والمقاطعات التي وهبها لها والدنا، ومنذئذ والهواجس تطاردني وينهشني القلق؛ فكيميت منذ نعومة أظفارها عروس فاتنة، تجذب أنهارها المزينة رحمها الخصب فحولَ الرجال من كل حدب وصوب، حالمين بضمها لسجل أمجادهم، وكل من كرمته الآلهة باعتلاء عرشها مثلي، عليه الحرص ألا تنخفض راية الحرب لحظة أمام مشتهيها.

ـ لنلقن أليواقيم درسًا حتى لا تسول له نفسه التطاول على أسياده.

ـ لست غازيًا يا كبير الكهنة، أنا حام وراع، ولا تنسَ مع من تتحدث بتلك

النبرة الآمرة، سنهتم بتقوية مركزنا أولا، كيميت بحاجة للرعاية والبناء؛ استنزفتنا الحروب الأخيرة، ولولا رفض يوشيا ملك يهودا مرورنا بأرضه لمساندة الآشوريين أمام نابوبولصر ما حاربته. حدثني عن القناة.

ـ جيدة. مضى عام والعمل يسير فيها بشكل رائع، الجميع يسبح بحمد الملك. لكن.. لا يليق الضعف بسليل الآلهة.

ـ أتسمي الحكمة ضعفًا؟! دافعت عن الآشوريين لأنهم الحدود الشمالية الشرقية لنا، إن حصل عليها الفرس أصبحت مكشوفة، لن أسمح باستنزاف مواردنا بلا طائل؛ والآن الحماية والقوت لشعبي هما الأهم.

سارع بالمغادرة قبل أن تتاح الفرصة للكاهن للاستطراد في الحديث، فعاجله الأخير هاتفًا: لتتنزل عليك بركات ماعت الحق والعدالة.

«عليك لعنة ماعت العادلة أينما حللت!»

لم يعد قادرًا على الاستمرار في مباشرة أمور البلاط وذاك الألم يعصف برأسه، أخبره اللعين أنه سيحضر إحدى كاهناته الماهرات لعلاجه بعد فشل أطبائه بعشرات المحاولات.. لعنة الحكم! لا هوادة ولا راحة، ولا نوم بلا كوابيس؛ فلن يكتفي هاريس ومن معه من مد أذرعهم الثعبانية في كل شبر من الأرض، ينهلون من خيرات البلاد متذرعين بالمعبد، والآلهة بريئة من أطماعهم الشرسة، ليت شعبه يدرك الحقيقة! فلا يكفي حلق الرأس وإسبال الكتان الأبيض فوق الجسد لبلوغ تقوى آمون. تخدعهم المظاهر غافلين عن شر المكمن وفساده؛ لم يعد المعبد وكهنته يكتفون بكونهم جامعات للعلم والسحر، ومع بزوغ شمس أسرته ازدادت سطوتهم وامتدت مطامعهم وآمالهم في مشاركة الحكم، لم يعد يكفيهم النهب باسم الأرباب، ساعين لأن يسْبِل على شخوصهم رداء القدسية كالملك.

مضى إلى جناحه كعصف ريح في ليل كياك، ونزع تاجه الأبيض ملقيًا إياه على البساط الوبري، يمسك رأسه بكلتا يديه، يعاوده شعور الغثيان المزعج بمعدته. ذرع الأرض جيئة وذهابًا، ثم دفع بغتة باب الغرفة الملحقة بجناحه الخاص مجفلاً الجواري القابعات بانتظار طلته، مزع رداءه الكتاني

الموشى بخيوط الذهب من فوق جسده، وأزاح الستائر الحريرية المعلقة حول الأعمدة المحيطة بالبركة، ملقيًا بنفسه في مائها البارد عله يطفئ نيرانه، ويهدئ ضجيج رأسه وانعصار معدته. غاب طويلاً أسفل الماء حتى فزعت الجواري، وسرعان ما عاود الطفو مستنشقًا نفسًا عميقًا. ألقى بثقله على حافة البحيرة الرخامية المزينة بسلسلة طويلة من زهور لوتس ذهبية ونقش لطيور عنقاء ترتشف منها الرحيق، باسطًا ذراعيه على جانبيها.

تبادلت الفتيات نظرات متوجسة فيما بينهن لوهلة، حتى ازدردت إحداهن ريقها مستجمعة شجاعتها وانسلت إلى الماء بهدوء وتبعتها الأخريات، وباقترابهن واحدة تلو الأخرى، أسلم وتلّ نفسه لهن متكئًا برأسه على الحافة، يحطنه بابتسامات أضاءت من بين شفاه وردية وأخرى بلون قرون الفلفل الأحمر، تتمايل الزهور الطافية على سطح الماء وأوراق الريحان حول نهودهن العاجية والحنطية في لوحة بديعة لم يعرها اهتماما. بدأت واحدة في تمسيد كتفيه وعنقه، وجعلت الأخرى تفرك كفيه بلطف، فيما اهتمت الأخيرة بصب الماء المعطر فوق جسده ورأسه حتى أغمض عينيه، فهدأت نفوسهن رغم ثقل الإحباط؛ هو لا يراهن! كصقر جموح يسقط فوق كل بحيرة يبرق ماؤها أمام عينيه للحظة، مختطفًا شربة ماء يطفئ بها لظى الاحتياج؛ يرفض اقتران روحه، يهرب من محاصرات الكهنة ونصائح كبار دولته بوجوب اتخاذ زوجة، وبأن الأوان قد حان لترسيخ جذوره في الأرض. الملك تائه في ملكوته الخاص، دومًا يرقب بعيدًا خلف حجاب الغيب، يريد شيئًا لا يملكنه، يتوق لأمر لا يعرفنه، ويستمتن في المحاولة بلا جدوى! يلمسن عضلات جسده المشيدة بحسرة استعرت حرائقها في أعينهن، حتى نيتوكريس الجليلة، تجلس وحيدة في انتظاره. لكن ماذا يريد الملك؟ إلام يصبو أكثر مما يمكنهن منحه؟ وكل هذا الحُسن والسلطان طوع بنانه! انتظرن بلهفة أن يمسك بيد إحداهن وينتشلها من أمواج بحيرته لأمواج ليله المحموم بلهيب رغباته؛ فأطفأ آمالهن الواحدة تلو الأخرى كما تطفئ الريح ذُبُل الشموع، ليسارع خادمه بوضع إزاره الليلي فوق كتفيه.

خرج وحيدًا للشرفة وأغلق باب المخدع خلفه. متجهم الملامح، متسارع الأنفاس؛ ها هو التدليك وحمام العطر لم يجدياه نفعًا، ولا الزيت المقدس الذي مسدت به الجواري جسده! ماذا يفعل بتلك النوبات القاسية التي تهاجمه كل حين لأيام ثلاث؟ ألا دواء لها؟ دوار وآلام وكأن الأشباح تتلاعب برأسه، تزداد حدتها فتخنق معدته ليزهد في الطعام. هل كتب عليه العذاب للأبد؟ ربما هي لعنة الآلهة يغضبها صراعه مع كهنتها! أهو ملعون من أربابه وأسلافه لعدم خضوعه لأطماعهم ونزواتهم؟ لكن كيف لا تدرك الآلهة ما يفعله سِت الشرير بأرواحهم؟! تطلع ساهمًا للأفق المخضب وقد أوشكت ربة السماء نوت على ابتلاع رع لتحمل به وتلده بالغد من جديد عبر حابي المار بجسدها.

«ليتني أولد من جديد مثلك يا رع العظيم.. بلا لعنة المرض»

تطلع للسماء وركع على قدميه مرتلاً بخشوع: «آمون، أنت الغبطة والفرحة، وتجليك قدرة لا ندركها، تضيء الأرجاء بنورك، ويملأ عطفك سماء الجنوب ومودتك سماء الشمال. ارفع لعنتك عني لأقدر على حماية وبناء محبوبتك كيميت، كما يحق لسليل أربابك أن يكون.. آمين».

أطرق بحزن وهم بالعودة لمخدعه لولا مشهدًا جذب ناظريه مجمدًا وقفته كالمومياء؛ مركب انبثق بغتة من بين الأمواج، يسري فوق الصفحة الظلماء، يعلوه مشعل خافت بمقدمة كرأس فرس بحر له عينين مرجانيتين، يقف خلفه شبح امرأة كأنها تمتطيه، غير عابئة لحراسه الذين تنبهوا في تحفز مشهرين حرابهم في وجه القادم الغريب. لكن ما أذهله كانت تلك التماسيح السابحة حول القارب الصغير؛ مشرعة فكاكها على مصراعيها، لهنيهة توشك على الانقضاض على القارب، ثم تعاود إغلاقها بحذر كأنها تحرسه! تابع توقفه قرب المرساة الملاصقة لشاطئ القصر، لتهبط امرأتان تواري إحداهما وجهها خلف غلالة حريرية، يعلو رأسها تاج صغير بريشتين، وتصحبها أخرى بدت كوصيفتها. فورما لمحها الحارس انحنى باحترام مفسحًا الطريق، وبعد ثوان استأذنه خادمه لرغبة المرأة في المثول بين يديه،

فأشار الملك بالموافقة، ليدلف أولا اثنان من الخدم حاملين حوضًا زجاجيًا مغطى بقطعة كتان ثقيل، ثم الفتاة ذات الوجه المكشوف، تلتها الملثمة سائرة في خيلاء، حول عنقها قلادة تحمل رمز معبد هليوبوليس، مرتدية ثوبًا موشى بخيوط من الفضة، يطفو ذيله بنعومة فوق الأرض الجرانيتية، يطوق خصرها الدقيق حزام من ذات الخيوط، تتأرجح داخل فتحتيه الجانبيتين قدماها الصغيرتان في خف مقصب، وتدوي صلاصل خلخالها مع كل خطوة تخطوها. غادر بعدها خادمه والرجلان مغلقين الأبواب، فانحنت بصمت مشيرة للفتاة بالكلام.

ـ سيدتي الآرت ميليت ترسل تحيتها المباركة بطيب إيزيس لمولانا وحم إيب رع، وتشكره على إتاحة الفرصة لها بالمثول بين يديه، وتعتذر عن التأخير ـ أشارت ميليت للحوض الزجاجي فاستطردت ـ كانت المبجلة تتأكد من أنها قادرة تمامًا على تحقيق أمنية سيدي بانتزاع آلامه.

التفت نحوها مقطبًا والألم يداهم رأسه بلا رحمة: آرت! إذن واحدة من كبار كاهنات هليوبوليس؟ بل ومجنحة من ذوات الريشتين! كاتبة وعالمة وكاهنة، ترى هل ستنجحين في ما فشل فيه غيرك؟

أومأت ميليت في صمت مشيرة لإحدى مقاعد الغرفة الوثيرة، فسارعت الفتاة قائلة: تستأذنك المبجلة بالجلوس يا مولاي والاسترخاء ـ أذعن لأمرها فناولته زهرة حمراء ـ تستأذنك المبجلة بقبول هديتها المتواضعة، والسماح لعطرها المحظوظ بالمرور عبر أنفاسك ـ أمسك بالزهرة محولاً أنظاره بينهما في ريبة لوهلة ثم أذعن مجددًا ـ تقول المبجلة إن على مولاي إسبال جفنيه ليقوم السحر بمفعوله وإلا فسدت التعويذة.

قال من بين أسنانه: أخبري المجنحة أني أريد الانتهاء من الأمر.

شعر بها تقترب وتضع فوق رأسه قطعة من الكتان المبلل بماء النهر، مترنمة بصلاة غير مفهومة، ونفحة من زيتها العطري المشبع بالزهور يملأ أنفه؛ لم يكن عطرًا قويًا يزعج حواسه الرازحة تحت وطأة الألم، بل هادئًا

كحفيف ثوبها الطواف من حوله، شعر بعدها بشيء أكثر ثقلاً يوضع فوق الكتان، وصوت الفتاة آت من بعيد يطالبه بالمزيد من الاسترخاء وتنفس عطر الزهرة بعمق مهما شعر من غرابة. وكانت ثوان حين سرت برأسه رعدة خافتة تكررت لمرات ثلاث، خاطفة أنفاسًا جاهد لإبقائها ثابتة، شعر خلالها بالثقل يرتفع عن رأسه ثم يعود حتى أتاه صوت الفتاة:

ـ يمكن الآن لمولاي فتح عينيه.

رأى الكاهنة تشير للفتاة بالابتعاد، واقتربت بنفسها تجفف رأسه بقطعة من الكتان، ممسدة موضع سحرها بزيت النعناع فوق حاجبيه وخلف أذنه. ابتعدت إلى الوراء منحنية فيما قالت الفتاة: تقول المبجلة إن عملها انتهى، وتدعو الآلهة أن تكون قد نجحت في نزع آلام سيدي العظيم.

استعاد قليلاً رسوخ روحه بعد لحظات تيه شعر خلالها كمن يطفو على الماء، مكتشفًا ولدهشته انقشاع غمامة الألم قليلاً، متيحة للحياة معاودة التسرب أسفل جلده، وقد زال الكثير من دوار رأسه وغثيان معدته ورحلت أشباح رؤاه، فهتف: بحق آمون!

انحنت الفتاة يعتلي الفرح ملامحها: تقدست ورت حكاو عظيمة السحر.

عادت خطوتين إلى الوراء وتبعتها ميليت تهمان بالمغادرة، حين نادى الملك بنبرة قاطعة: توقفي. لم تضعين هذا اللثام على وجهك؟ أدرك أنك تسمعينني جيدًا، كنتِ تجيبين أسئلتي عبر وصيفتك؛ لستِ صماء.

همت الفتاة بالحديث فأشارت ميليت بأن تتركهما وحدهما، متطلعة إليه. وافق على مغادرتها ليصبحا وحيدين يلفهما الصمت إلا من حفيف سعف النخيل على جدران القصر، وحسون مغرد يبدو أن ما يجري أرق نومه فجعل يدور قرب الشرفة مختلسًا النظر.

استعاد بعضًا من اتزانه، فتأمل رأسها المرفوع بخيلاء أسفل تاجها الريشي: هل أنتِ خرساء؟ ـ هزت رأسها نفيًا محدقة بعينيه فتابع ـ إذن لم الصمت؟

ـ لكي تسمعني.

سعى بعينيه حثيثًا للتوغل خلف غلالة وجهها: هل أنت شديدة الدمامة؟ ـ عاودت النفي ـ إذن لم التواري؟

ـ لكي تراني.

أمرها بالاقتراب فأذعنت لمشيئته وطوت الأرض حتى وصلت إليه.

ـ أنتِ غريبة أيتها الآرت! ـ أزاح لثام وجهها ـ لستِ دميمة أبدًا، بل إنكِ.. لم كل ذلك الغموض أيتها المبجلة؟

ـ مولاي، اعذر ارتعاشة صوتي الوجل في حضورك المقدس، لم أشأ أن تجذب ملامحي عينيك بعيدًا عن قدراتى، وآرت مجنحة مثلي تستحق كامل انتباهك.

تفرس في قسماتها لوهلة: لوجهك إشراقة رع في الصباحات! هل أتى للربة نوت مخاضها مبكرًا لتعيد مولده فوق قارب عبر مجرى حابي؟! أفلح سحرك في نزع ألمي.

ـ لا أؤمن بالسحر قدر إيماني بمعرفتي، المعرفة قوة.

ـ غريب! لتوي أخبرت كبير الكهنة بذات الأمر؛ المعرفة قوة.

ـ ليأذن لي مولاي بالرحيل، سأمضي ليلتي في قدس الأقداس للصلاة شكرًا وعرفانًا لفلاحي في حضرتك.

أمسك بذقنها: لم أنته من الحديث معكِ، أريد سماعك، ألم يكن مأربك من البداية؟ ستبقين الليلة، بل ستبقين بجواري طويـ...

رفعت رأسها قائلة بنبرة حازمة: لا يصح معاملة آرت مثلي هكذا يا مولاي! لا تنسَ أني كاهنة هليوبوليس.

ـ كيف تجرئين على مناقشة رغباتي أيتها الـــ...؟

انتابه الدوار بغتة فأمسكت بذراعه تقوده نحو مقعده وانحنت محدقة بعينيه: مولاي ني كاو، لا يليق الأسر بالمجنحات! ولتأذن لي بنصيحة، ابقَ في المغطس لبعض الوقت حتى تبرد دماء جسدك التي تلظت بالألم.

لأكن عينك التي ترقب وأذنك التي تسمع. أماني ألا يراني ويسمعني برفقتك سواك، لا تخبرهم أني نزعت ألمك، ولا تخبرهم بمجيئي.

أدهشه مناداتها باسمه المحرم إلا على خلصائه.

ـ ترفضين البقاء معي وتأمرينني بالكذب! ما وراءك يا مجنحة؟

ـ ستكون وصيفتي إناهاري رسولاً بيننا، وثق يا مولاي أني ما أتيت إلا لأجلك ولأجل العدل فى كيميت، ومصلحة شعبها الطيب.

* * *

(٣)

عدل راغب الوشاح الصوفي حول رقبته نافثًا آخر حلقات دخانه بتمهل، يتلذذ بكل نفحة من التبغ الفاخر، ثم ألقى عقب سيجاره الكوبي بمجرى التايمز، فيما لفظت (بيج بن) الدوي الأخير لدقاتها، محولة بأضوائها المنعكسة سطح النهر لمرآة من التبر السائل. تهيج بنفسه رغبة ملحة في إلقاء همومه خلف العقب لتسقط بعيدًا في القاع السحيق. لندن؛ مدينة الضباب، المكان الأمثل للاختباء مواريًا سوءته. كان ضبابها فيما مضى مزيج من دخان احتراق الأخشاب والفحم طلبًا للطاقة والإنارة مع ضباب الشتاء؛ خلطة غاية في القتامة والكثافة تنعدم معها الرؤية، استغلها العديد من اللصوص وقطاع الطرق في مزاولة المهنة والاختباء، وها هو يحذو حذوهم! تطلع للأضواء المبهرة من حوله بالـWest Minste؛ منطقة وسط لندن المشهورة بساعة برج القديس ستيفان القابعة شمال مبنى البرلمان؛ ساعة ضخمة كضخامة بنيامين هال وزير الأشغال الذي أشرف على بنائها؛ لم يستطع مقاومة حلمه في صنع ما يضاهي ضخامته التي اشتهر بها، وقد أزعج راغب كثيرًا معرفته بسعي عدد من النواب البريطانيين في مجلس العموم لتقديم مشروع تغيير الاسم إلى

(بيج بيث)؛ احتفالا بستين عامًا هي فترة اعتلاء إليزابيث عرش بريطانيا؛ شعوب الأرض مهما اختلفت ألوانهم متشابهون، الغاية دومًا رضا الحاكم تملقًا ولعقًا للأحذية، رغم أن الملكة لا تحكم! لكنه هوس التقديس، وبهذا يسير الكون كله على وتيرة واحدة مهما اختلفت النظم، لعله التكوين الإنساني وفطرة النوازع البشرية!

«ستمر العاصفة، كل الشواهد تؤكد هذا»

الغريب تمنيه في قرارة نفسه نجاح حزب العمال المناهضين لفكرة الملكية بإسقاط هذا المشروع السخيف! يعترف أن الأمر أغضبه بشكل مبالغ؛ اعتاد اسم الساعة كما هي (بيج بن)؛ لن يحتمل تغييرًا جديدًا ولو تافهًا؛ وقد أعيته التغيرات العاصفة بحياته.

«على لندن البقاء كما هي، بساعتها، بنهرها، بنسائها.. وبضبابها»

سعيد أن الحقيبة المعلقة بذراعه ليست ثقيلة، احتاج للسير رغم المسافة الطويلة بين الفندق وميدان الساعة؛ عجز عن الصعود إلى جناحه فترك الحقائب في بهو الفندق مؤكدًا وصوله وانطلق؛ كان بحاجة لتنفس الهواء الصقيعي ليتأكد أنه حر.. أخيرا حر! أراد نهب الأرض بقدميه يعبئ رئتيه بنسائم حرية تاقها طويلاً، تجربة يودُ لو يمحو فصلها بالكامل من رواية عمره، لو يلقي فوقها بماء النار مذيبًا أحداثها مغيرًا ملامحها لتفشل ذاكرته في الاهتداء إليها. حرص على عدم الاتصال بمها ليطمئنها على وصوله، لم يجرؤ على مواجهتها، ليس بعد، ما زال هشًا وتجربة السجن لم تمر مرور الكرام، يحتاج لبعض الوقت كي يكتسب القليل من الاتزان ويلملم شتاته؛ تحتاجه قويًا ليشد عضدها وتستند إليه، لا أن يميل بحمله الثقيل فوقها فيسحقها! لولا إصرار محمود الساعي على حمل عبء القضية كلها على عاتقيه لكان لا يزال يجاوره في الزنزانة! حين اعترض راغب بإصرار رافضًا تركه وحيدًا يواجه مصيره؛ ابتسم والده مطمئنًا:

ـ المسألة مجرد وقت، خروجي من القضية أمر محتوم، وبقاؤك بلا طائل.

لعل الأمور أبسط وأكثر أريحية في سجن رجال الأعمال وقضايا الأموال العامة، مقارنة بالسجون الأخرى، لكن يظل السجن سجنًا رغم كل شيء، لم تكن وسائل الاتصال المتاحة في الخفاء، بالهواتف المحمولة وخطوط الشبكة العنكبوتية المتصلة بهوائيات السجن، كافية لدرء شعور الأسر عن نفسه. في السجن تُكسَر كبرياؤك، تُكبَل بسلاسل حديدية غير مرئية، سلاسل تنبع من نفسك ومن داخل أكثر فجواتها ظلمة، تملك الوقت الكافي لمراجعة كافّة الأوراق، تصبح الدفاع والجلاد في آن واحد، ويستميت كلاهما بشراسة في تعزيز موقفه، تبدأ مرحلة دخولك السجن بالإنكار، تليها فترة طويلة من السخط والغضب وإلقاء اللوم على كل شيء حتى حصى الطرقات، لتأتي بعدها المرحلة الأخطر والأكثر شراسة.. المحاكمة! يعلم راغب أنه ليس مظلومًا نقيًا، فشوائب الأخطاء تعكر صفو سمعته، لكنها أخطاء صغيرة لا تُرى بالعين المجردة، والمجهر أمر نسبي يتوقف على مدى زلل القدم في هوة المشكلات! ووالده كان أحرص الناس على إبقاء سمعتهم نقية صافية المجرى، مهما تساقطت فوقها أوساخ النظام المعربد.

حقيقة أن والده كان مديرًا لمكتب وزير جثم فوق صدر الوزارة لسنوات طوال، كان لها بالغ الأثر في حياتهم؛ عمولات وتسهيلات بلا حدود، واستغلال نفوذ كتنفس الهواء. مَن يحصل على سلطة في بلد كمصر فُتحَت له مغارة علاء الدين وملك مارد المصباح، أحلامه واقع مهما استحالت ورغباته أوامر مهما جمحت. لكن من المخطئ الحقيقي؟ من يتركون جرار العسل بلا حراس ثم يلومون الدببة على الالتهام؟ أم الدببة؟ يعترف أن دبًا كوالده يعرف جيدًا منبع العسل وأين يصب، متجنبًا بمهارة لدغات النحل وطنينه المزعج. يتعامل مع القضية بمهارة وحنكة اكتسبها من طول الغوص في عالم السلطة الممتع؛ مجرد صفقة أخرى تحمل ربحًا وخسارة، يحرص كعادته على تقليل الأولى لأقل النسب، متسلحًا بدروع صنعها بكل دقة لتصد الهجوم وتحيل الوقائع الواضحة كالشمس لمشعل باهت سرعان ما يخبو، مخلفًا خيط دخان يبتلعه الزمن مع الوقت.. الوقت!

ألقى نظرة على ساعته متحققًا من فرق التوقيت، قاربت على الخامسة مساء، إذن هي الثانية عشرة صباحًا في القاهرة. بلا تفكير أخرج هاتفه وقام بالاتصال، يرتجف قلبه لصوت فيروز الذي تناهى لأسماعه حين علق الخط، تغني (أنا خوفي من عتم الليل). إذن لا تزال تخشى عتم الليل؟! واتاه الآرتياح لسماع النغمة، ثمة أمور ثابتة لم تتغير، لم يزعجه استمرار الرنين طويلاً رغم توتره؛ الرقم غريب عليها لذا تمهلت في الرد، وحين أتاه صوتها عابرًا المتوسط كدفء نسمة ربيعية داعبت خلجاته، لوهلة لم يعثر على أنفاسه لينطق، وكل ما استطاعه التلفظ باسمها: قسمت!

أتاه صمتها المتوجس منهكًا أعصابه، حتى نطقت: راغب؟!

ـ لم تنسي صوتي.

ـ من الصعب نسيان أي تفصيلة بشأنك، علمت بخروجك.

ـ أنا بلندن. لم أطق البقاء ـ ساد صمت قصير ـ اشتقتك كثيرًا.

ـ وأنا أيضًا.

لم يدرِ إن كانت إجابتها مجاملة أم كانت تعنيها، قلبه حدثه أنها صادقة، وما المشكلة في تبادل عاطفة إنسانية بحتة؟ حين قال «اشتقتك» لم يعنِ شيئًا عدا هذا، يشتاق إليها، لا لشفتيها المكتنزتين خبيرتي التعذيب، لا لقبلتين يتيمتين حصل عليهما في لحظات لا تُنسى، ولا لاحتضان يديها المرتجفتين انفعالاً لعاطفة تغلبها للمرة الأولى، أو حتى لإشباع عينيه بقسماتها المحببة وأنوثة جسدها الفتية، حسنًا! ربما يكون اشتاق هذا كله، بحق الله! هو الآن رجل كهف همجي يتوق لعودة اقتناص الحياة برمتها.

«لا أجمل ولا ألذ منكِ يا قسمت لتمنحي بقبلة وعناق حياة كاملة»

قال بلهفة: أتكرهينني لما حدث؟ لا، لا تجيبي، أود فقط أن تعرفي لأي مدى أشتاقك ـ جاوبه الصمت فشعر ترددها ـ أعلم أنك متزوجة ولا أنتظر ردًا، فقط تحدثي، أحتاج صوتك لأستعيد بعض الاتزان.

ـ هل أنت بخير؟ أنا قلقة عليك، وحزينة لما أصابكم.

ـ حزينة حقًا أم ترينها عدالة السماء كالجميع؟ لستُ بخير منذ افترقنا بلحظة جبن مني، لكن ينعشني قلقك، يشعرني أني ما زلت أنا لم أتغير، أنتِ أكثر الأشياء الصائبة التي حدثت بحياتي يا أسو.. يا قسمت.

ـ لا أحد يجرؤ على الجزم حاليًا إن كانت قد تحققت عدالة السماء؛ الكثير من الخيوط المتشابكة تاهت بين دهاليزها الحقائق. كن بخير وانتبه لنفسك، التجربة لن تكسرك، لكنها ستشوشك لفترة طويلة.

ـ تدركين الكثير! لكن لا تدركين مدى احتياجي إليكِ.

أنب نفسه لوهلة على تهور حديثه ووقاحة أفكاره، إلام يرمي وقد جبلت على النظافة وطهارة النفس؟ ليتها فاسدة! تهرع إليه بإشارة من يده، لكن.. لم تكن لتحتفظ بمكانتها وذكراها لديه إن كانت، ورغم هذا لم يهيئه ظنه لجملتها التالية:

ـ سأزور لندن قريبًا، ربما.. نلتقي!

ـ سأترقب هذه اللحظة بكل شوق.

تودعا وكثير من الجمل عالقة عبر الأثير، والأكثر من هواجس تهفو للخروج والإعلان عن نفسها، لكنه اكتفى بسماع صوتها؛ وسيلة للحصول على أمان يفتقده بشدة. أخرج من جيبه محبسًا رصع بحبات ماسية زرقاء، يطالع في الضوء ومضاته الناعمة، لم يجرؤ على بيعه؛ اكتشفه على مقعد السيارة يوم افترقا أمام المشفى الحكومي الذي كانت تتلقى فيه شقيقتها العلاج، خلفته وراءها بعد قراره الجبان بالتنحي عن علاقتهما، ورفضها شروطه المستحيلة حين علم بشأن سجن والدتها في قضية غارمات. ها هي الأيام تدور ويقف في حذائها! أتراها تحدجه الآن من البعد بذات النظرة المزيج من الشفقة والجَلدْ كما فعل قبلاً؟

تعمل حاليًا كمقدمة برامج، حلم قديم نجحت في تحقيقه؛ قسمت ذو الفقار، أو بالأحرى السيدة قسمت الجبالي، زوجها عدنان الجبالي الجراح المعروف؛ آخر مخلوق توقع اقترابه منها؛ في كل لقاء جمعهما لم تلقَ منه سوى الازدراء وإشعارها بالدونية! كان للأمر بالغ الألم على

نفسه وهو خلف القضبان، لكن رغمًا عنه مالت نفسه للارتياح؛ امتلكت من تستند إليه في ظل الأعوام الفوضوية لثورة زلزلت العالم وغيرت ملامح حياة الكثيرين، مرسلة العديد خلف القضبان وعلى متن طائرات الهروب، ولولا عنصر المباغتة لكان مع والده برفقة الأخيرين.

عاد إلى الفندق مجددًا سيرًا على الأقدام، وحصل على حمام دافئ في غرفته، مقررًا أن وقت حلاقة ذقنه لم يحن بعد؛ لتساعده بعد قليل على إخفاء انفعالات غير مرغوبة. عاود الهبوط مستقلاً سيارة أجرة تحمله لوجهته. اختارت مها استقباله في أكثر الأماكن حميمية بالنسبة لها، عازفة عن مقابلته في المطار خشية ضعفها، كلاهما خائف من نفسه على الآخر! أوشك على الدخول من باب المسرح بعد حصوله على التذكرة المحجوزة باسمه من شباك التذاكر؛ حين اصطدم بشخص يرتدي قبعة فرنسية كالرسامين أخفت جبهته وجزءًا من عينيه، يلف حول عنقه وشاحًا بنفسجيًا ثقيلاً يواري نصف وجهه. تسلل لأنفه عطر نسائي هادئ، فيما ابتعد الرجل النحيل كمن صعقته الكهرباء.

«وعدنا لبلاد غريبي الأطوار!»

دله المرشد إلى مقعده، ليفاجأ بالرجل الذي اصطدم به للتو يجلس بجانبه. لم يندهش كثيرًا حين وجد مقعده في الصف الأمامي؛ مها لا تتنازل أبدًا عن أن تكون بقلب الحدث. سرعان ما عثر عليها مقتربًا بخطى وئيدة، وقد أعتمت القاعة إنذارًا بوشك بدء العرض، لم تلتفت إليه واكتفت باحتضان ذراعه فورما استقر بمكانه، وأمالت راسها على كتفه، قائلة: اشتقتك كثيرًا يا حبيبي.

قبل رأسها مغمضًا بألم: أنا أيضا يا حبيبتي، كيف حالك وحال الصغير؟

أومأت دون أن تنظر إليه: بخير. تركته مع جليسة الأطفال نائمًا.

شعر بنبراتها ترتعش على وشك البكاء، فعاود طبع قبلة أخرى على شعرها الأحمر: أنا بخير يا مها. لا تقلقي.

ـ كيف حاله؟

ـ توقع مجيئك!

ـ إذن هو مخطئ في توقعه.

ـ أما آن لكل هذا الغضب أن ينتهي؟ فعل ما فعل لأجلنا، كما أنكِ سامحتني، لم لا تسامحينه؟

ـ ليت الأمر يقتصر على هذا، لا شيء ينتهي. كله باق!

اقتحم حوارهما بغتة صوت صاخب: حمدًا لله على السلامة. من الحكمة القفز قبل غرق السفينة.

ـ لن تغرق السفينة يا دياب، ولا يقفز سوى الفئران!

انحنى الأخير طابعًا قبلة فوق وجنة مها: لا يجرؤ مخلوق على نعتك بالفأر، خانني التعبير فسامحني، وسامحيني يا عزيزتي لتأخري، شقيقي كان يحادثني بشأن والدتي، تعلمين كبار السن والوعكات الصحية.

يعي راغب جيدا كذب دياب المفضوح، فعلاقته بعائلته كلها انقطعت فورما وطئت قدماه أرض الكلية العسكرية، دياب ليس من النوع العاطفي، بل ليس من النوع الإنساني، ويبدو أنه لن ينسى يومًا أنه كان أول الرافضين لاقترانه بشقيقته مها. أشاح وجهه ترتسم على قسماته علامات الضيق والازدراء، فطالعته يد بأصابع رفيعة ذات أظفار مقلمة مطلية بلون أبيض لؤلؤي تمسك بهاتفه المحمول؛ يبدو أنه سقط منه في أثناء جلوسه على المقعد. هم بالتمتمة شكرًا لولا أن الرجل ذا العطر وطلاء الأظفار نزع الوشاح عن عنقه ونهض مبتعدًا، كان متوسط الطول بالغ النحافة، يملك رأسًا صغيرًا وشعرًا قصيرًا بقصة صبيانية تشبه قصات الأنيمي؛ ظهرت حين رفع القبعة عن رأسه في الضوء الخافت، رآه بعدها يدلف من باب جانبي قرب خشبة المسرح.

ـ إلى متى تضعيننا على حافة الانهيار العصبي ميليت؟ لم يبقَ على رفع الستار سوى عشرين دقيقة!

خلعت الأخيرة المعطف الصوفي، ممشطة شعرها بأصابعها: تكفيني العشرين دقيقة للاستعداد كلوديا.

قالت إحدى الفتيات وهي ترتدي ملابس العرض: وما الداعي لجلوسك كل مرة في الصالة بين الحضور؟ أراه تصرفًا أحمق بلا داع.

ـ لن أعتلي خشبة المسرح دون أن أختبر أسفلها، وبالأخص الليلة.

كانت ميليت محقة بتوترها، مسرح covent garden ليس مسرحًا عاديًا؛ يعود تاريخه لأكثر من 282 عامًا، احترق عدة مرات وأعيد بناؤه في نفس الموقع، شهدت خشبته آلاف المسرحيات الكلاسيكية ومولد العديد من النجوم في التمثيل والشعر والموسيقى وغيرها من فروع الفن، مضيئة مشاعله جنبات عقود طويلة زاهية؛ وللآن لا تدري كيف استطاع مدير الفرقة الحصول على تلك الفرصة المذهلة بالعرض على خشبته! فرقتهم ليست بالمشهورة كفاية كي تدير رأس مدير المسرح! هم مجرد هواة، لكن ها قد حدثت المعجزة؛ وسترقص الليلة على خشبة مسرح دار الأوبرا الملكية، راجية أن تقوى على الاستمرار بعيدًا عن عراقيل الظروف وتهديد الأشباح المنبثقة من كل زاوية معتمة في حياتها.

أمضت الدقائق الأخيرة أمام مرآة حجرتها في الاستعداد؛ وضعت زينة وجهها الثقيلة حريصة على إظهار وجنتيها بلون زهري قاتم مع طلاء شفاه بلون النبيذ الأحمر، لم تهتم كثيرًا لزينة عينيها، اتساعهما البالغ كاف للإعلان عنهما على عكس بقية الفتيات؛ يضطررن لوضع مساحيق ثقيلة لإظهار أعينهن من مسافة المسرح البعيدة، اكتفت بلصق صفين من الأهداب الاصطناعية وبعض الكحل. وضعت شعرها المستعار، ثم ارتدت تنورتها المحاكة من التل، وحذاءها الأبيض ذا الأربطة الحريرية. في الحالات العادية تحرص على التجول لعدة مرات قبل الحفل بين صفوف المقاعد، بل وتصعد أحيانا لصفوف المقصورات العليا، لكن هذه المرة كانت في أمس الحاجة للوجود بين الحضور لتختبر زاوية الرؤية والحالة. اعتلاء الخشبة وترويضها ليس بالأمر الهين؛ هي حصان جامح قادر على نفض أعتى الفرسان من فوق ظهره لخطأ تافه، وهنا لا مجال للأخطاء، وكما ناجى هاملت نفسه فوقها في لوحة ويليام شكسبير

البديعة بجملته الشهيرة «أن تكون أو لا تكون، تلك هي المسألة»؛ تعزم وبكل همة أن تكون! لكن رغم هذا تصطك ركبتاها باقتراب رفع الستار، الخمس دقائق التي تسبق بقعة الضوء جحيم لا تبرد نيرانه؛ ضريبة المتعة، ولحسن حظها كان أحد مقاعد الصف الأول شاغرًا؛ التذاكر باهظة واسم الفرقة لم يكن جاذبًا للكثيرين، ما أتاح لها الفرصة للاسترخاء بعض الوقت بعيدًا عن ضجيج الكواليس. تجاهلت ثانية همهمات الفتيات الحانقة ملتمسة لهن العذر؛ هبطت فوق رؤوسهن كالصاعقة محتلة مكانة حلمن بها، لكنهن لا يدركن أنها تستعد لهذه المكانة طوال عمرها.

تعالى رنين هاتفها بأغنية لمطربها المفضل يوناني الأصل (ديموس).

When you cry in winter time

You can pretend. It is no thing but rain

ـ ماما. أجل، وصلت وأنا بخير لا تقلق! أجل سأعود فورما يسدل الستار، حسنًا سنتناول العشاء معًا رغم أن عشائي بضع وريقات من الخس والخيار، انتظارك تعذيب لمعدتك! كما تشاء.. سأنتبه لنفسي.

أغلقت الهاتف ساهمة، اعتادت حياتها ومصاحبة أشباحها، لكن والدها لا يمنحها الفرصة للاستسلام؛ يلاحقها بخوفه وقلقه ودعمه. تغضنت قسماتها بغتة شاعرة بطعم القذراة في فمها، فنهضت مسرعة لتتمضمض بحمام الغرفة، ثم رشفت بضع مرات من زجاجة تحوي ماء وليمونًا حريصة ألا تملأ معدتها، ملقية نظرة أخيرة في المرآة.

«لم تدرك بعد يا ماما أن ظلام نفسي بات جزءًا مني لا ينفصل!»

دلفت إلى خشبة المسرح المخفية خلف الستار؛ وباعدت بين جانبيها قليلاً مختلسة النظر، امتلأت القاعة! يبدو أن اسم المسرح سيظل عامل جذب كبير مهما خفت نجم من يعتليه. رأت الرجل الذي أعادت إليه هاتفه قبل قليل يتطلع نحو المرأة إلى جانبه هامسًا بشيء في أذنها جعلها تبتسم وتميل نحوه، فامتعضت بقرف وأغلقت الستار.

ـ هل أنتِ بخير حقًا؟

سؤال شقيقها القلق جعل مها تعاود احتضان ذراعه متكئة على كتفه. راغب؛ حائطها الصلب ودرع حمايتها الذي كادت تفقده. الغريب رغم كونها متزوجة لا يزال سندها الأول؛ تشعر في غيابه بضياع وعدم أمان، غفرت الفضائح المالية منذ اللحظة الأولى لكل من والدها وشقيقها؛ لكن لن تغفر يومًا قسوة وظلم الخيانة؛ جريمة لا تقبل الغفران.

تطلعت نحو زوجها الجالس بجوارها متشاغلاً بالعبث في أزرار هاتفه؛ هديتها له في عيد مولده الأخير، لم يكن يومًا كافيًا رغم قصة الحب العنيفة! رفعت رأسها هامسة بأذن شقيقها: لا تقلق أبدًا، أنا بخير.

ابتسم راغب بحنو: كوني دومًا بخير ـ استدرك بلوم ـ أرى أنكِ حقنت شفتيكِ مجددًا! كفى يا مها، أنتِ جميلة يا حبيبتي دون رتوش المباضع وأسنان الإبر، وإن لم يقدر هذا فليذهب إلى الجحـ..

قاطعته بلهفة: فتح الستار!

كانت بقعة الضوء متوهجة بانتظار خطواتها الأولى، تتلألأ في الخلف بحيرة بزرقة فضية وصورة لقمر وضاء تتمايل على سطحها، تتهادى فوقها في استكانة بجعات سبع على أنغام تشايكوفسكي كزوارق من اللؤلؤ، فيما ظهرت ميليت أخيرا في ثوب ملكة البجع الفاتنة (أوديت).

«تخطو في رقة داخل خفين من حلوى القطن، تلمح طيف والدها الباسم ينفخ فوق مبخرته النحاسية، لتتجمع سحابات البخور خلف ظهرها مستحيلة لجناحين، ترفرف فيتصاعد عبق بخور مغربي معتق وتنطلق محلقة صوب السماء، سلم يصعد بها من نغمات الدو والصول والفا ومع كل انحناءة.. متنفس للحياة، هنا وطن لا يفترسها! تحلق مختالة في سباق مع البجعات يراقصن أشعة القمر، يتطلعن فوق سطحه البلوري لوجناتهن المتوهجة؛ ليهبط الظلام بغتة! تلتفت بفزع مواجهة منقاره المعقوف كمدية مسمومة تحمل الموت.. عاد الغراب! وتتعالى الموسيقى الأوبرالية تحمل صخبًا مرعبًا، تنتفض أجنحتها بقوة مستميتة في الهروب، يلاحقها نافخًا بجناحيه

الأسودين البخور عن جناحيها، تسقط من عليائها فيتلقاها بين ذراعيه وأجنحتها آخذة في التلاشي، تفرفر كمن يسلم الروح، تستسلم وتفقد الرغبة في الهروب، تغشاها ظلمة من فوق ظلمة وكم تخشى الظلام! يقهقه بهزيم رعدي ساخرًا من عجزها، ليتلاشى بريق الحياة في أعين البجعات الكسيرة ويبدأن رقصة الموت»

اعتصرت مها يديها يعلو صدرها ويهبط في إثارة حماسية، تلتمع نظراتها أسفل وهج الأضواء، فيما تطلع راغب نحوها بإشفاق؛ يؤلمه وأدها حلمها القديم الذي لا تزال رفاته تنبض بالحياة، كانت ستصبح باليرينا مثلهن يومًا ما! ولا يدري السبب الحقيقي الذي جعلها تتخلى بغتة عن الأمر، اثنا عشر عامًا مرت منذ أعلنت وبدون مقدمات أنها ستترك مدرسة الباليه مطالبة نقلها لأخرى، وحين سألتها والدتهما عن السبب تعللت بالملل مصرة على موقفها. الكثير من الأمور كانت تشغله ووالده على الدوام، ما جعل قرارها بالتوقف أمرًا ليس ذا أهمية، ووحدها والدتهما من حاولت إثناءها باستماتة دون جدوى، لكن الآن وبعد وفاتها وما تلاها من أحداث مؤسفة عانت مها فيها الأمرين؛ أدرك كم ظلماها بلا مبالاتهما! فلن تغني المغالاة في التدليل عن إشعار من نحبهم باهتمامنا الحقيقي واكتراثنا لكل تفصيلة بشأنهم، وها هي كالعادة مع نهاية العرض تتحول لطفلة توشك أبواب الملاهي على الانغلاق في وجهها، لا سيما وقد رحل دياب متعللاً بموعد ظهر فجأة، ويعلم الله كم من المرات كانت المسكينة بحاجة له ولم تجده!

ـ انظر كيف ستستسلم الآن يا راغب! ستختتم رقصتها بانحناءة تمامًا كما تفعل البجعة.. كم هي رائعة!

لم يكن يعبأ بمتابعة العرض لأن اهتمامه منصب عليها، لولا ملامسة شيء ناعم كفه القابضة على ذراع المقعد، التفت ليجد ريشة بيضاء بأطراف فضية حطت على يده، رفع عينيه تلقائيًا صوب مصدرها، فرأى ميليت منحنية، ترفع ذراعيها للأعلى كجناحين، تطالعه من بعيد بنظرة كسيرة.

هتفت مها بتأثر: عيناها دامعتان! هي أجمل من رأيت في فرق الهواة.

قال مقطبًا: في الحقيقة لم أرَ الكثير لأتمكن من الحكم يا مها.

يدرك أن الباليرينا لم تكن تطالعه حقًا؛ بل بالكاد تراه في ظلام المسرح، لكنها نظرتها؛ نفذت لعمقه مترجمة شعوره تجاه شقيقته؛ أرخى ناظريه مبتعدًا عن مرمى عينيها الواسعتين فاصطادته الريشة؛ تأملها لثوان في حيرة، ثم وضعها بجيبه الداخلي وعاود التطلع نحوها.

«ما كل هذا السخف؟ أي نظرة وأي ملكة بجع؟»

أنهت ميليت رقصتها بانحناءة استسلام حزينة مع آخر نوتات الأوركسترا، ودمعة صغيرة هاربة اختلطت بكحل عينيها الأسود. كم هي غريبة تلك الحالة من التوحد التي تسمح لها بتحمل لمسات الآخرين حين تنصهر وشخصيات العرض! هي الآن أوديت وبالأمس سندريلا، ومن قبل دمية بكسارة البندق، وربما غدًا تكون الغجرية كارمن؛ لحظات حرية تمنحها لها بقعة الضوء تنسيها الألم والعار، تصنع عالمًا خاصًا بها يحلق فيه خيالها بلا حواجز الواقع القميء. ساد صمت لثوان ثم اشتعلت القاعة بهدير من التصفيق والصفير العاصف، عشرات من الزهور الحمراء والبيضاء ترتمي أسفل قدميهما وشريكها بالرقص، وقد لانت ملامح الأخير متخليًا عن دور الشرير، تزين وجهه الوسيم عالي الوجنتين ابتسامة كبرياء ورضا مشيرًا نحوها بامتنان، فيما قامت ميليت بانحناءة تحية لجمهورها الممسوس بجنون الإعجاب، ليغلق الستار معلنًا انتهاء النصف الأول من العرض.

وفيما كانا يستقلان سيارة مها في طريق العودة، تساءل راغب بسخرية: أتظنين أن دموعها كانت جزءًا من العرض؟ مهلاً، ما هذه الأقراص؟

ابتسمت معيدة العبوة لحقيبتها: أقراص للغثيان وصفها الطبيب ثلاث مرات، أنا حامل، والأعراض هذه المرة غاية في الصعوبة.

ـ مبارك يا حبيبتي رغم أني تمنيت لو تمهلتِ قليلاً.

عاد لمراقبة الطريق في صمت؛ كان أكثر ما يكرهه في هذه البلاد هو

ميل أهلها لمعيشة الكهوف، يهرعون إلى بيوتهم قبل اقتراب العقارب من الثامنة كمن يخشى لدغها! فلا يبقى سوى هواء مثلج وصرصر ريح. كل شيء هنا يؤخذ بجدية أكثر من اللازم، عمل شاق طوال النهار والليل للراحة والسكون، بخلاف عطلة نهاية الأسبوع التي يمضيها معظمهم في الملاهي الليلية، لكنه لم يستسغ الأمر ولم يغيره طول الترحال في أوروبا؛ لا يزال يملك نزعة الدعة المصرية الأصيلة من ميل للاسترخاء والعبث وقت يشاء، حتى حين اختار مجال عمله انتقاه بعناية لخدمة ميوله ورغباته؛ فشركة السياحة إلى جانب كونها وسيلة للرزق، وسيلة أيضا للمتعة؛ سفر وعلاقات وحفلات و.. جميلات.

ـ لا أريدك أن تقلق بشأني يا راغب.

ـ بعد وفاة ماما لم تكن الأمور على ما يرام، من الصعب ألا أقلق.

رغم الابتسامات والحديث بأريحية، ما زالت الرعشة تسكن أحبالها الصوتية منذ رحيلها عن مصر. كل راحل يملك سببًا قويًا للرحيل، يحمله معه أينما ذهب كبطاقة للهوية، يخرجها حين تضيق به غربته، مستعيدًا القوة للبقاء ورفضًا للنسيان؛ وقد امتلك كل من مها ودياب العديد من الأسباب؛ مداومتها على تناول الأقراص المهدئة بعد صدمتها في وفاة والدتهما تركتها محطمة، أجهضت طفلها الأول وتقوقعت داخل نفسها حتى بزغت فكرة السفر للندن فتشبثت بها كطوق نجاة.

أوقف السيارة أمام بناية فخمة تشير لثراء قاطنيها، ما يتنافى تمامًا وحقيقة الوضع المالي لزوج شقيقته، وما يحاول أن يزعمه بشأن ميراث قطعة أرض لوالده المزارع الفقير في أرض الغير!

ـ سأوصلك إلى باب الشقة.

ـ لا، أنا بخير، سأتصل بدياب ليستقبلني أمام المصعد، أحتاج للبقاء بمفردي بعض الوقت، هيا، أرجوك، وخذ سيارتي معك.

ترجلت من السيارة صوب البناية مجاهدة للسير بثبات، وقد بدأ مفعول حبة المهدئ يعمل في دمائها؛ كان الطريق لمنزلها طويلاً ولم تستطع كبح

جماح نفسها عن تناولها؛ حزينة لأنها كذبت عليه بشأن الحمل، لكن لم تجد مبررًا لتناولها الأقراص سوى هذا وإلا منعها. رؤيته كانت أكثر مما تحتمل؛ هو صورة من والدهما وعبثًا يحاول الخروج من عباءته؛ كما تقترن الألقاب تقترن الخلايا والطبائع، وتبقى الأفعى أفعى مهما بدلت من جلود. مسدت جبهتها بضعف وقد باتت الرؤية مشوشة، يسري الوهن في أطرافها وبالكاد تقوى على فتح باب المصعد.

«لا. راغب لا يملك سم محمود الساعي!»

ظنت برؤيته أنها ستهدأ وتطمئن، لكن مجيئه بتلك الحالة الهشة زاد من توترها، إن كان شقيقها القوي الذي لا تهزه أعتى الرياح بهذه الحال فما بالها بالآخر؟ الرجل تعدى الستين! تسعى عبثًا للتوقف عن التفكير بهذه الطريقة، حاولت مرارًا أن تعاود مناداته بأبي لكن مستحيل! ليس بعد أن قرأت ما قرأت وعرفت ما عرفت، فتحت كهفًا مليئًا بالخفافيش صفعت وجهها وخدشت جدران حياتها مشوهة كل شيء، ترى هل تركت والدتها مذكراتها كي يأتي يوم وتعرف؟

أولجت أخيرا المفتاح في رتاج الباب بيد مرتعشة بعد عشرات المحاولات الفاشلة؛ ابتلاعها القرص على معدة فارغة أثقل تأثيره، لم تتناول شيئًا منذ أكد راغب موعد وصوله، كذبت عليه أيضا بشأن وجود دياب في المنزل؛ لا يعلم أنها غادرت الحفل باكرًا بعد الفصل الأول ويظنها ستتناول العشاء برفقة شقيقها في مطعمه المفضل. ارتمت على أول مقعد قابلها في غرفة الاستقبال لتغيب في سنة من النوم لحظات، وحين فتحت عينيها من جديد كان كل ما حولها يسبح في الضباب. جرت قدميها بتثاقل مترنحة الخطوات نحو غرفة النوم التي انبعث منها ضوء خافت؛ دفعت بابها الموارب، بالكاد تنجح في رؤية طريقها مغالبة إبقاء عينيها مفتوحتين. رأت مشهدًا غريبًا وسط تشوش رؤيتها؛ كان دياب على فراشهما برفقة امرأة، عاريين! يقف وراءها ممسكًا بيديها المعقودتين خلف ظهرها بإحدى أوشحتها الحريرية؛

امرأة تعدت الخمسين تشبه عاملة نظافة المبنى! فيما يهتف بالإنجليزية وبشراسة: هيا يا ابنة الـعاهرة.. هيا.

شهقت بصوت متحشرج، فالتفت يتفصد العرق من جبينه أنهارًا، سارع بإطفاء مصباح الفراش لتغرق الغرفة في الظلام. كان الظلام لدهشتها مريحًا أعفى عقلها محاولة التفكير وترجمة الصورة البشعة، رفعت يدها مجددًا ممسدة جبهتها، حين شعرت بضربة فوق رأسها!

* * *

(٤)

كانت أبية تحدث نفسها برعب..

«سأفيق، عليّ أن أفيق. استيقظي يا أبية، استيقظي!»

مرة أخرى تواجه واحدة من تلك اللحظات المفزعة التي تدرك أنها محض وهم، تدرك هذا إدراكًا كاملاً، لكن لا تملك من أمر نفسها وإرادتها شيئًا. كلما رأت المرأتين في كابوسها تزلزلها ضربات قلبها المتسارعة، وتستحوذ رهبة مخيفة على روحها تشل قدرتها على الاستيقاظ. هذه المرة وجدت نفسها تجلس أمامهما على طرف قارب يسير في النيل، تسبح من حوله التماسيح مشرعة فكاكها كأنها ستلتهما، وهي عاجزة كأن قدميها تحولتا إلى كتلتين من أثقال! رأت ميليت زائرة كابوسها الدائم تغترف بشبكة من الخيوط حفنة أسماك صغيرة من حوض زجاجي، وتسكبها في آخر يحوي أسماكا كبيرة جائعة، متحدثة إلى رفيقتها: ما الأمر يا إناهاري؟ يطوف الحزن الليلة على ملامحك كعقاب جائع رغم فلاحنا.

ـ أجل. كان فلاحنا لدى الملك مبهجا، أثر سحرك في مولاي وحم

رع وأنا حقًا سعيدة لكن.. كامو، أخذوه قبل أيام لمنطقة الحفر، مر عامان على البدء في ذاك العمل المشؤوم ولم يعد العديد من العمال، خشيتي ألا يعود مثلهم، وقد اقترب موعد زواجنا في عيد الحصاد!

داعبت ميليت في شرود المياه بريشة ملونة، غير عابئة بفكاك التماسيح: ربما سيعود، لكن غيره لن يفعل.

ـ الأرض شريرة؛ يقال إنها تبتلعهم وتحرقهم كلما اقتربوا من أعماقها! يرفض الإله جب عبثهم بها.

ـ لا شأن لإله الأرض بالأمر، آلاف من أبناء كيميت انتقلوا للعالم الآخر منذ بدء الحفر. وإلى جانب الكوارث هناك، لا يرسلون إلا ربع مخصصات الملك متذرعين بحاجة الآلهة للنذور، فيلقونهم بين فكي (سوكر)!

ـ لا أريد لإله الموت أن يأخذه مني، أريد أن يعود كامو أيتها المبجلة.

ـ أعدك أن يعود والبقية، لن نسمح بإرسال خيرة نبت كيمي للعالم الآخر سدى ـ التفتت بغتة موجهة حديثها لأبية وكأنها تراها ـ تلك القناة نذير شؤم يا أبية، باب ستعبر منه الشياطين.

ارتعدت فرائص أبية فيما قالت إناهارى: الملك لا يملك الرحمة.

أشاحت ميليت وجهها عن نظرات أبية الذاهلة: الملك مختلف يا إناهاري، لا يريد الاكتفاء بكونه ابن الإله، يريد أن يعمر ويخلق الجديد، ليس محاربًا يتوق للسلطان وفرض السيطرة، ولا كاهنًا يعبث بأطياف الآلهة كالدمى، بل هو حالم بناء، أجبره بسماتيك على الخضوع لرغبته في تولي الحكم من بعده. ثمة أحاديث خافتة تسري بين الأفواه بأنه لا يملك دمًا ملكيًا صافيا؛ لأن والدته كانت عاملة في الحقول عشقها بسماتيك!

ـ لهذا يتربص به قائد الجيش، ويناطحه الكهنة حينًا وأخرى يداهنونه!

تطلعت ميليت لأبية: مسكينة! لا تعلمين ما يحمله الغيب ـ التفتت لحوض أسماكها ـ لتحرسكم الآلهة (حات محيت)؛ كنتِ وسيلة عبوري إليه.

انتفضت أبية مستيقظة من النوم، ينهمر العرق من مفرق جديلتيها

الفاحمتين مكللاً جبينها الأسمر العريض. «أعوذ بالله من الشيطان».

دلفت والدتها إلى الغرفة هاتفة: ما زلتِ نائمة! منذ انتهينا من الخبيز بعد صلاة الضحى لم تخرجي من غرفتك، حتى الغذاء لم تتناوليه.

ـ نفس الحلم يا أمي يعاودني وبنفس الوجوه.

ـ أما زالت نساء رؤياك الغريبات إحداهن تبكي والأخرى تواسيها؟

ـ هذه المرة حدثتني كأنها تراني، قالت (يا مسكينة! لا تعلمين ما يحمله الغيب).

ـ دعكِ من هذا. أتى خطيبك ليأخذك في نزهة، أوقن أن الهواء النقي سيهدئ سريرتك ـ أشارت للسماء بيقين ـ والله الحافظ.

تأنقت أبية بمنديل فيروزي زينته زهور حمراء، تلمع بباطنها خرزات ذهبية أظهرت لون عينيها العسليتين الكحيلتين، ينسدل جلبابها الحريري الأخضر حول جسدها بنعومة. خرجت لفسحة الدار فنهض صالح لاستقبالها، واضعًا قطعة الفايش المحمصة وكوب الشاي على طاولة توسطت صحن غرفة الضيوف المطلة على قطعة الأرض الخاصة بعائلتها. كان ممشوق القوام مرفوع الهامة في جلبابه البني وعمامته الحريرية، تفتر شفتاه الرفيعتان عن ابتسامة شوق وقور، وقد منحها مرآه طمأنينة احتاجتها.

هو الغريب يتيم الأب فوق أرض تتوجس الغرباء، تقدم والدته بفخر وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة، وسرعان ما ضربا جذورهما في القرية وزرعا محبتهما في النفوس بحسن السيرة وطيبة المعشر. اشترى فدانين من أرض وَلُود خصيبة، أصرت والدته أن يتمم صفقة اشترائها بنفسه ويحاسب مالكها، أرادته يافعًا قبل الأوان فلم يخذلها، وظل لشهور يفكر بنوع المحصول الذي سيزرعه بعد الحرث؛ ليقرر أخيرا أن يكون شجر المانجو ابنه البكر. هو الوحيد الذي فكر في ذلك النوع من الزراعة، لا سيما أنه لم يكن متوافرًا إلا في بقعة وحيدة حول أطلال منزل عتيق، قيل إنه مقبرة فرعونية. كانت عشرين شجرة فقط، اكتفى البعض بقذف ثمارها بالحجارة من بعيد من حين لآخر، بينما تجنب البقية المرور

قربها، خوفًا من حكايات تشير للعنة تصيب كل من يقترب من المكان.

قال والدها وهما يتبادلان النظرات خلسة: لا تتأخر يا صالح، لا نريد لمخلوق التلاسن؛ جابهت بخطبتكما القيل والقال، فلا تجعلني أندم.

ـ موافقتك على خطبتنا يا عمي، رغم انعدام صلة الدم بيننا، جميل فوق رأسي ليوم الدين، أنا ابنك المخلص الحامل لمحبة لا تغيب شمسها.

فورما وقعت عينا صالح على أبية قبل عامين؛ اعتاد اللحاق بها وصديقاتها في نزهاتهن سائرًا غير بعيد، خاصة كلما أتين في زيارة لدير العدرا، يتلامزن خفية بشأن ضحكاته ومراقبته الصامتة لها، حتى سمحت لهما الأيام أخيرا بالقرب النعيمي. كان عالمهما مقصور على قريتهما الصغيرة جبل الطير التابعة لمركز سمالوط بمحافظة المنيا؛ معظم قاطنيها من المسيحيين والأقلية للعائلات المسلمة، سميت نسبة لجبلها الذي تحط عليه كل عام بكميات هائلة طيور (البوقيرس) الشبيهة بطيور أبي قردان، لالتقاط الأنفاس من عناء الرحلة الطويلة، فلا تكاد ترى الجبل القاتم وقد تحول لقمة ثلجية، ترفرف فوقه الطيور بلا هوادة تنقره بمناقيرها، تاركة أثر مرورها من العام للعام، ثم تعاود التحليق نحو أوروبا ومنها لإفريقيا والعكس. خرجا يسيران جنبًا إلى جنب تكاد الأكف تذوب شوقًا لأحضان بعضها، وترتعش الأنفاس لهفة للاقتراب، وعلى درجات السلم المئة وسبع وعشرين انضما للجموع الصاعدة بأقدام لم توهنها مشقة سفر أو طول مسافة، كان النيل كعادته حلقة الوصل فيها بين قلوبهم المشتاقة للتبرك والدعاء بقضاء الحوائج والدير البعيد. كفه خلفها يحميها تدافع البشر المقبلين توقًا وسعادة، يحملان شمعتين منشدين معهم في سعادة وطمأنينة.

يا عتبة العدرا يا محلا هواها، افتحوا للزايرة تنصر ضناها

يا عتبة العدرا يا محلا عتبها، افتحوا للزايرة تنصر ولدها

وعلى الرغم من أن زواجهما بعد أسبوع؛ رأت أبية أنه سيكون فألاً سيئًا عدم زيارة الدير كالعادة السنوية؛ وكيف تفقد بركة العدرا ببدء حياتها الجديدة؟ وكما تقول والدتها «كل بيوت الله لها رهبة ومحبة في الصدور»،

خاصة وقد ملكت روحا شفيفة جعلتها تتعلق بالعدرا منذ نعومة أظفارها، متشبعة بالحكايا التي قصتها عليها صديقتاها دميانة وماريا، فكانت عيناها تدمعان كلما وصلت الأحداث عند هروب الأم الجزعة على مولودها ليلاً في رحلة خطرة مبتعدة عن أهلها وأحبتها، حين قرر الملك هيرودس قتل طفلها بعدما علم من مجوس المشرق الآتين ليسجدوا للطفل ويقدموا له هدايا أنه سيصبح ملكًا؛ ليقشعر جسدها رهبة متسائلة في نفسها: كيف وضع الله بها كل تلك القوة والاحتمال في سن تعيش فيها قرائنها بين أحضان أهليهن وفي كنف دفئهم وحمايتهم؟ وكيف جابهت كل تلك الأهوال لأجل العبور بصغيرها لبر الأمان حتى وصلت مصر وسكنت في مغارة بحضن جبلهم؟ مختبئة وولدها لثلاثة أيام تعاني الخوف والقلق والتعب! لكنها لم تكن فقط من رق قلبها للعدرا، فقد حكت لها دميانة عن الملكة هيلانة والدة الملك قسطنتين التي زارت القرية، وعلمت قصة المغارة التي اختبأت بها العائلة المقدسة، فأمرت بتفريغها لأربعة حوائط صخرية مدعمة بعشرة أعمدة في صحنها، لتصبح مزارًا مقدسًا لمحبيها. وقد اعتادت هي وصالح بعد الوصول لقمة الدير، بعدما تلقي النذور في ماجور فخاري قيل إن العائلة المقدسة استخدمته لعجن الخبز، الوقوف أمام صورة العدرا وتأمل عينيها الواسعتين الوديعتين المشعتين استكانة ورضا، ومبادلتها الابتسام لبعض الوقت، ثم العرج يمينًا صوب الجهة القبلية، ليجلسا متلاصقين عند قمة الجبل، يتمتعان بتأمل صفحة النيل البعيدة من العلو، مستنشقين الهواء المحمل برائحة أشجار البرتقال، تمتد الخضرة أمام أعينهما كبساط لا ينتهي.

ابتسمت أبية قائلة: ومن يسمع حكاية كهذه يا صالح ولا يقع قلبه في هوى العدرا الحنون؟ يكفي أن زيارتها كانت سببًا في سماعي البيانو.

تظهر اللكنة الصعيدية بوضوح في حديث أبية عدا كلمة (بيانو)؛ التقطت الاسم من شفتي راهبة فرنسية جميلة قابلتها في أثناء زيارة الدير إحدى المرات، كانت الأخيرة قد أتت في إرسالية قصيرة، بهرتها بشرتها الناعمة

الصافية وصوتها الرقيق، شبيهة بشمعة مما تضيء المكان. أسرها تقافز أصابعها الرفيعة فوق المفاتيح البيضاء والسوداء باعثة في أخشابه الحياة؛ وأصبحت بعدها تتعمد دس كلمة (بيانو) وسط حديثها متباهية بالمعلومة لتنفجر صويحباتها في الضحك.

قال صالح: أحضرت لكِ الحلاوة الطحينية التي تحبينها يا (حلوياية جلبي) ـ فضت الورقة تطعمه بعضها فاعترض ـ كلي أنتِ أولا.

تمعنت في وجهه المتألق بابتسامة حانية، شاعرة كالعدرا؛ على استعداد لأن تجوب الأرض من شرقها لغربها فقط لأجله.

ـ لا تحلو اللقمة قبل أن تسبقني إليها.

تناولها من أصابعها كصغير طير، قائلاً: تطول الأيام كلما اقترب زفافنا.

ـ بذرت يد الله الحب في قلبينا، أنت حبيبي قبل أن تكتب لي الحياة.

قال مداعبًا وشم ذقنها: لا تخجلين كبقية البنات من الحديث عن الحب!

ـ الحب في دمي كفيضان النيل، لا تحجمه الجبال وإن كان جبل الطير.

ـ يا حبيبة القلب يا أبية الغالية، منذ وطئت قدمي قريتكم ووقع نظري عليكِ توارين خجلك أسفل طرحتك، وتطل عيناك الكحيلتان من خلفها؛ مسني جنون حبك. كنت أجلس لساعات أتخيلك إلى جانبي أقطع لأجلك ثمار المانجو وأطعمك إياها، لشهور عكفت على اكتشاف كيفية زراعتها، حتى أعانني الله على إدراك أن سرها في حشا بذرتها؛ إشارة من الكريم أن لا أرض لبذوري سواكِ يا بنت عمي.

ـ أخشى عليك كثيرًا، أنت الوحيد الذي جرؤ على الاقتراب من الأشجار، ألا تخشى لعنتها؟

ـ لا تصدقي ما يقال، الطمع والجشع هو ما أسرى بتلك الشائعات بين ربوع جبل الطير، ظلم هنا وظلم هناك! طُرِدت وأمي شر طردة من قريتنا لطمع أعمامي في ميراث أبي، ألقوا إلينا بالفتات ليتخلصوا منا. ألم تفكري يومًا من رعى هذه الأشجار طوال تلك السنوات؟

ـ ربما اللعنة، الجن كما يقولون.

ـ لا جن إلا العمدة وسلساله وأعوانه، نشروا الشائعات ليستحوذ على الفاكهة ويبيعها خارج القرية.

ـ وإن كان ما تقوله صحيحا، ما زلت خائفة، فإن كان الجن أخشى عليك لعنته، وإن كان العمدة فيرعبني بطشه.

تطلع نحو أرضه التي لاحت من بعيد كقطعة بلور رائق، ينعكس على سطحها المروي أضواء المغيب: لن يستطيع فعل شيء، سيخشى افتضاح كذبه فيتجرأ غيري على الاقتراب ـ التفت باسمًا ـ أرى أن قلادة الجعران التي أحضرتها لكِ لا تفارقك.

أمسكت بالحجر المعلق في سلسلة من الفضة حول رقبتها، قائلة: كل ما تهديني غال يا صالح ـ تلاشت بهجتها محدقة بشرود صوب السفح ـ أتدري؟ منذ أهديتني إياه أرى أحلام غريبة؟ هل اشتريته من إحدى الدلالات الآتيات من البعيد؟

ـ بل أهداني إياه حفار المقابر القديمة عليوة، حين أتى من الجنوب قبل شهور كان يعاني الوحدة والسأم، خاصة أن صحبته مجموعة من الرجال ذوي اللهجة الغريبة، تعرفت عليه في سهرة بمقهى القرية وأصبحنا صديقين مقربين؛ اعتدت أن أجلب له كل صباح فطيرًا بالعسل مما تصنعه أمي مع كوب من الحليب الطازج. قال إن صداقتي لا تُقدَر بثمن؛ فاستحققتُ الجعران جالب الحظ والحماية. عثر عليه خلف الجبل داخل مقبرة أسفل أطلال البناء القديم المحاط بشجر المانجو؛ سمع عليوة من أحاديث من معه من الرجال الغرباء أن صاحبتها تدعى ميليت.

ـ ميليت!

ـ أجل. أخبرني أيضا أنهم عثروا على الكثير من الأحجار والتماثيل وأن أحدًا لن ينتبه لاختفاء بضع قطع صغيرة! يبدو أنه اعتاد السرقة في غفلة من الآخرين، يقول هذا حقه، فهم يسرقون ما ليس لهم من أرض ليست

بأرضهم ويحملونها بعيدًا لبلادهم. يؤمن بأن سرقة السارق حلال. للحق لا أدري لماذا يجهدون أنفسهم في البحث؟ هي مجرد أحجار ومساخيط؛ مخلفات قديمة!

* * *

(٥)

ـ نظافة خانقة!

قالها راغب من بين أسنانه، تقاطع ناظريه حركة المساحات الزجاجية الرتيبة، وقد انشقت رحم السماء طاردة أثقالها، لتبعث في الطرقات بعض الحياة. كان يتهرب في مصر من الطرق المغبشة بظلال العشوائيات والقمامة، فتحاصره بإصرار منبثقة كل حين كجني من عنق زجاجة، مخربة فقاعة الوهم التي يحاول غلقها على نفسه، وها هو يتوق لبعض من تلك العشوائية، ساعيًا لإرضاء ذاته التواقة للقبح وسط لوحة فتنة! محاولة جديدة للاتزان بحثًا عن ملامح بلد أرسله لمنفى اختياري. ممتن لسيارة مها التي في حوزته؛ من العسير العثور على سيارة أجرة في طقس كهذا.

اتجه للضاحية الجنوبية لشارع Edgware Road الشهيرة باسم شارع العرب؛ لعله المكان الأكثر حياة في لندن! يحمد الله على أن معظم تحركاتهم تحوم حول تلك المنطقة؛ تحوي أعلى نسبة من الجالية العربية الذين نقلوا سخونة دماءهم لشرايين لندن المتجمدة. الكثير من المحال تنتمي لملاك من جنسيات تركية ولبنانية وإيرانية وغيرها. شارع لا ينام؛ أحياؤه السكنية

وحوانيته نادرًا ما تركن للراحة برحيل النهار الباهت، وتعمل بشكل متواصل لمنتصف الليل حتى في أكثر درجات الطقس برودة وأمطارًا. ربما لا تعد الخدمة ممتازة في معظم المحال كبقية المطاعم الباهظة، بل وكثيرًا ما تنتشر السرقات ووجوه المتسولين كالسوس الناخر في عصب المنطقة، إلا أن هذا ما جذبه من البداية؛ فأحيانا يخنقه الإتيكيت والأطر المذهبة. وقد كون صداقات جيدة سمحت له بالوجود في أي وقت يشاء وبأريحية.

توقف أمام مطعم حملت لافتته اسم (السمسمية) بالعربية والإنجليزية. تجاوزت الساعة الثانية عشر، لكن نورًا ضعيفًا يضيء بالداخل أنبأه أنه لم يتأخر كثيرًا؛ لم يستطع العودة إلى الفندق دون أن يسلم الأمانة لأهلها.

«بل ما تزال هاربًا من الوحدة يا راغب»

ضغط على جرس المطعم فسمع خطوات أقدام مترددة، وفورما رآه الرجل عبر الزجاج فتح هاتفًا بسعادة: راغب الساعي! عود أحمد.

ـ كيف حالك يا رؤوف؟ أرجو ألا أكون قد أزعجتك بمجيئي المتأخر.

أدار رؤوف لافتة الباب معلنًا إغلاق المطعم: لست زبونًا. أنت صديق.

ـ من الجيد مقابلة وجوه لا ترفع رايات الاتهام. أحضرت الأمانة.

قال بنبرة معتذرة: أرسلت صديقًا ليستعيدها من منزلك فور علمي بالخبر، لكن كان المنزل خاليًا.

ـ بعد تطور القضية لم أجد مبررًا لبقاء مدبرة المنزل؛ صرفتها، فبقيت الأمانة بانتظاري حتى عودتي.

تناول الحقيبة ممتنًا: رغم كل شيء سعيد أنك أتيت بها.

فتحها بلهفة طفولية مخرجًا آلة (سمسمية) تشبه القابعة فوق قاعدة خشبية بإحدى أركان المطعم أمام جدار يحمل رسم منظر طبيعي ممتد من السقف للأرض، لبحر وصخور متناثرة وقفت عليها جماعات من النوارس البيضاء، وسفينة تمخر عباب الأمواج نحو خط شفق أحمر.

ـ لماذا طلبت واحدة جديدة ولا تزال القديمة بحالة جيدة؟

لامس أوتارها السبعة بأطراف أنامله فتعالى رنين حاد، مجيبًا: لأتمرن عليها. القديمة أخشى عليها نسمات الهواء وأدخرها لأمسيات المطعم الحميمية برفقة الأصدقاء.

ـ أوشكت القديمة أن تصبح قطعة أثرية!

ـ هي كذلك، كانت ملكًا لجدي الكبير صالح رحمه الله، أحضرها معه أحد رفقائه الذين التقى بهم في أثناء حفر قناة السويس ـ طالعها بإجلال ـ لم أبدل قطعة فيها، أضطر أحيانا لتغيير الأوتار، عدا هذا يمكنك شم الماء المالح ورمل الصحراء في خشب مدادها، بل ورؤية بقعة دم جافة سالت من كف صاحبها من جراء حريق.

ـ أنى لك معرفة هذا؟

ـ أخبرتني والدتي أن جدها لأبيها توفي وعمره مئة وعشرة أعوام، مات جالسًا على مقعده الخيزراني منتصب القامة، واضعًا ساقًا فوق الأخرى يحدق بمجرى القناة من شرفة منزله. كانت متعته كل يوم جمعة بعد الصلاة الجلوس مع حفيدتيه، أمي يسر وخالتي فتحية، على شاطئ بورفؤاد أسفل شجرة مانجو زرعها بنفسه، متغنيًا بموال غرامه بجدتنا الكبيرة أبية، يقطع لهما شرائح ثمارها لتتقاسماها والحكايات برفقته. كان من ضمنها حكاية السمسمية أو الكنارة؛ الآلة التي غنى على أنغامها رفيق كفاحه مهدي الآتي من النوبة في زمرة عمال الحفر ـ رفع راغب حاجبيه دهشة ـ أجل، كان جدي أحد عمال حفر القناة في سنوات الحفر الأخيرة، أنا الجيل الرابع لعائلة من أوائل من استوطنوا أرضًا قرر فرديناند ديليسيبس أن يدخل عبرها التاريخ، بفكرة كبدت مصر مئات الآلاف من الأرواح، كانت مأساة حفظناها عن ظهر قلب، تناقلتها عائلتي جيلاً بعد جيل.

ـ درسنا هذه الحكاية فعلاً في كتب التاريخ.

ـ لكن لم ندرس كل تفاصيلها المريرة يا راغب، كمادة الفسفور الأبيض مثلاً؛ تطايرت من بين شقوق الأرض في أثناء تقليبهم سطح التربة؛ كانت بيضاء شمعية تتفاعل مع الأكسجين فينتج مكونًا لاهبًا قتل وأحرق المئات،

نجا جدي بأعجوبة على عكس رفيقه النوبي. سألت عنها معلمي في المدرسة. كنت تلميذًا ذكيًا، ولولا الظروف ربما أصبحت وزيرًا للثقافة! معروف أن تلك المادة استخدمت في الحروب حتى حرمت اتفاقية جينيف استخدامها دوليًا ضد المدنيين والأعداء، لكنهم ماتوا بها دون حرب أو عداوات، جل ذنبهم نبتهم في أرض بها المطامع على أوجها، يعاملون فيها كالهوام تبعا لأهواء الحاكم.

ـ مأساة فعلًا.. أتعلم أنه يمكنك بيع السمسمية بآلاف الدولارات؟ هناك الكثير من المهووسين بالتحف هنا.

ـ لا أبادلها بكنوز الدنيا، تحمل هذه الأوتار الكثير من الذكريات، وما أكثر أغنيات الحب التي أسمعتها لوفاء في ليالي بحرنا المقمر!

ـ أما زلت تحن إلى حياتك القديمة ببورسعيد؟

حدق بالنوارس البيضاء الواقفة فوق الصخور كمن ينتظر مسافرًا لا يعود، قائلاً: علاقتنا ببورسعيد وذكرياتها باتت حلمًا قديمًا، حين يعاودني ووفاء يحقننا بحنين وقتي سرعان ما تمحوه البرودة. وعلى ذكر وفاء، هل تناولت العشاء بعد؟ حماتك تعشقك! لدينا الليلة طبق مخصوص من صيادية القاروس والكاليماري، هدية متواضعة لما تكبدته من مشقة.

ـ ألن تنزعج من إيقاظها في هذه الساعة؟

حادث زوجته بهاتف المطعم الداخلي ثم التفت قائلاً: لم تخلد للنوم بعد. وصلتنا أخبار بمرور البلدية بحثًا عن مقيمين غير شرعيين؛ فأغلقنا باكرًا كي لا يزعج التفتيش زبائني ـ فتح التلفاز المعلق على الحائط على إحدى القنوات المصرية مستدركًا بإحباط ـ لم تأتِ الرياح هناك بما تشتهي السفن، ظننا بداية جديدة.

ـ لو سارت الأمور كما بدأت ربما ظل الأمل قائمًا في التغيير، لكن التيار الديني تعامل بخبث مع الموقف بعد أيام قلائل من الثورة؛ ميل كفة الميزان نحوه بعادته في عقد الصفقات، سيكون عليهم تجرع الكأس لآخر قطرة مجددًا.

ـ أرجوك لا تتحدث من علٍ، وإن كنا أصدقاء هذا لا ينفي الحقيقة؛ كنتم أداة لانحراف العربة ووقوع الكارثة.

ـ قلتَ الصواب يا رؤوف، كنا أحد العوامل؛ ندخل المعادلة، ننشطها، ننتعش، ثم نخرج في هدوء، لكني أتحدث عن التيار الذي ارتدى عباءة الحملان وهو ذئب متربص.

تعالى صوتها لطيفًا مرحًا، سائرة بتثاقل لعرج في إحدى قدميها، تحمل بين يديها صينية كبيرة، تتصاعد منها روائح تسيل اللعاب: وهل تسعى الذئاب في مرعانا؟ حمدًا لله على السلامة يا راغب.

تناول رؤوف الصينية مازحًا: بالتأكيد لا يتحدث عن نفسه، هذا الحمل الوديع.

ـ وفاء. اشتقت كثيرًا ابتسامتك الدافئة ـ انحنى مقبلاً يدها بلطف ـ لولا خوفي غضب الأسد لغمرتك بين ذراعيّ.

ضحكت قائلة: لا تقلق، لا أظنه سيفترسك إن فعلتها، يعلم كيف تنظر إليّ كشقيقة كبرى.

قال رؤوف: غيرتي لا يخمد بركانها أبدًا.

جلس راغب إلى طاولة واضعًا محرمة الطعام: يا إلهي! حساء القاروس تعويذة؛ في كل مرة تفقدني الصواب، لا مثيل له في مطاعم العالم.

قالت معتصرة نصف ليمونة فوق حساءه: طريقة بورسعيدية أصيلة، والسر في البصل المحمر، لا تنسَه فيحترق، ولا تتعجله فتفقد مذاقه.

تناول راغب بضع رشفات من الحساء: كلما رأيتكما تساءلت ما الذي على المرء فعله ليحصل على حب كهذا؟

طالعها رؤوف بحنان: عليك أن تعبر ثلوج الغابات، وآلاف الأميال في صحراء شاسعة، متخليًا عن كل ما امتلكت يومًا.

ضحكت معاتبة: لا تصعب الأمر، يكفي عاطفة صادقة ورغبة حقيقية في الانتماء للآخر لتصنع أعظم قصة حب.

قال رؤوف: وربما تفقد إصبعًا أو اثنين وتفسد إحدى ركبتيك. كثيرًا ما أشعر أني سفاح، مجرم حرب! لا أدري ماذا دهاني لأوافقها ذاك اليوم؟

قالت وفاء: لم تكن تملك خيارًا آخر.

ـ بلى. أمكنني الاختفاء.

ـ لم أكن لأسامحك يومًا!

يعلم رؤوف أنها ليست جملة عابرة، بل إيمان راسخ في عقيدة عشقها؛ كانا روحين جندتا لبعضهما، قالتها ضاربة الودع ذات الشعيرات الرمادية المنفلتة من ذقنها ولم يصدقها! «مسطورة هي وعذابها فوق جبينك». يلتحمان كما تلتحم قطع الأرابيسك بمقاعد المطعم التي أرسل في طلبها خصيصًا من مدينة دمياط؛ ود لو يستدعي موج البحر ورماله، قواقعه وقناديل بحره، لو يستدعي بورسعيد كلها داخل جدران المطعم، لكن تبقى التفاصيل الصغيرة مُعينًا على الافتقاد الموجع.

تخاطفته الذكريات كما تتخاطف الرياح أوراق الشجر زاحمة أفكاره، يجاهد لتنظيمها من البدء للمنتهى، والأمر عسير؛ فكثيرة هي الأحداث ومريرة؛ يتقافز التساؤل القديم أمام عينيه: ما حدود التضحية؟ يوم علمت وفاء بعزمه على الرحيل عن بورسعيد، أسرت إليه بخوفها لأنه سيبتعد كثيرًا، وفي محاولة لطمأنة يديها المرتجفتين كالجسد المحموم وعدها أنه سيبقى بانتظار رسائلها دومًا، ممازحًا إياها بأنه سيحرص على التقاطها من مناقير أصدقائها النوارس، فهزت رأسها بعينين دامعتين، قائلة:

ـ لن تقوى نوارسي على الوصول؛ ستعصف بها رياح المدينة الباردة، وربما فشلت في إقناعها بالسفر إليك، تعلم أنها لا تقوى على الابتعاد عن عشها وأحبائها، أنا خائفة. لن أبقى دونك.

تمنته وفاء نورسًا صاخبًا جامحًا كالذي يلقون له الفتات في رحلاتهما بين بورفؤاد وبورسعيد، مستقلين المعدية الخضراء عبر القناة. تمنته لا يخشى في الحب لومة لائم، فتتسع أحضانه على الملأ لاستقبالها، كما

تتسع مناقير النوارس بصيحات الغزل وضحكات الاستمالة في موسم الحب. لكنه هادئ الطباع حيي المشاعر، كتوم على ما يعتمل في صدره من توق لطالما أخفاه بعيدًا في عمق روحه. وصمتت وفاء، عدا نظرات لم تلزم الصمت لحظة؛ تسددها نحوه لائمة بلا هوادة، لم تقف مكتوفة اليدين أمام حماقته، أيجرؤ على الرحيل؟ تاركًا إياها ممزعة الأطراف منقوصة!

قيل بالأساطير إن الآلهة خلقت في البدء بشرًا بلا هوية، لا ذكر ولا أنثى، وحين فكروا بالتمرد عليهم، اختارت الآلهة أقسى الطرق لعقابها بشطرها نصفين! لم تكن آلام الشطر موجعة بقدر آلام التيه؛ وبصيحة الوليد الأولى إعلان لوعة لما ينتظره من مشقة البحث عن نصفه المشطور، لكن مع رؤوف كان الأمر مختلفًا، فنصفه يلاصقه ويحاصره؛ ابنة خالته التي جمعت أسرتيهما بناية واحدة، تحصل جديه لوالدته على شقة فيها كمنحة من الحكومة بعد العودة من التهجير لدمياط في أثناء العدوان؛ أقامت فيها والدته يسر ووالده سيد مع جده حسن بعد وفاة والدتها، وسكنت خالته فتحيه وزوجها مع أسرته في الشقة المقابلة. كان رواق ضيق طويل ما يصل بين الشقتين، جسرًا عبرته إليه وفاء ولم يكن يومًا عازمًا على العبور، أو جسورًا كفاية لتخطي المسافة، نائيًا بنفسه عن مشاعر لن تزيده إلا وهنًا على وهن؛ فمنذ ضبط نفسه إحدى المرات يحدق بها وهي تلعق قمع الآيس كريم الليموني بصحبة رفيقاتها، قرب عربة مثلجات خشبية اعتادت المرور بمزمارها في العصاري لأجل عيون الفتيات المنتظرات، ترتسم على شفتيها ابتسامة تلذذ، وبقايا الليمون اللاذع يعلق بطرفهما قرب شامتها يسيل كلاهما لعابه ـ أدرك أنها خطر محدق. لم تكن حينها قد أتمت عامها الثالث عشر! وإيمانًا بأن فاقد الشيء لا يعطيه؛ أطلق ساقيه للريح، مخفيًا عاطفته خلف قناع الازدراء واللامبالاة حفاظًا على البقية من روحه الجريحة وإلا انتهى! لكنها الثانية التي تبادلا فيها النظر؛ جعلتها تطوي الأرض بينهما تمد يدها نحوه بمثلجاتها، فما كان منه إلا أن دفع يدها بعنف صارخًا:

ـ لا آكل البقايا.

ورغم اشتهائه المستعر لتذوق أثر شفتيها، قتل مبادرتها بدم بارد وهرع مبتعدًا لأقصى الشارع، يرقبها من خلف جدار يوشك أن ينقض، تغرورق عيناها في صدمة محدقة بالآيس كريم الملقى في أحضان التراب.

تعالت طرقات على باب المطعم منتزعة رؤوف من خضم الذكرى، ففتح هاتفًا بالإنجليزية: هيا بسرعة للداخل؛ الأمطار غزيرة.

حانت من راغب التفاتة نحو الشاب النحيل الذي قابله قبل قليل في دار الأوبرا الملكية، مر من خلفه يتهادى عطره النسائي؛ ليجعد راغب أنفه ويبتلع الحساء بامتعاض. جلس الشاب على إحدى الطاولات القريبة من الواجهة الزجاجية، فسألته وفاء بالإنجليزية إن كان يريد الطلب المعتاد، وللمرة الثانية يعجز راغب عن تبين ملامحه وقد أخفت القبعة الفرنسية والوشاح الصوفي معظم عينيه ونصف وجهه. أشاح راغب موجهًا اهتمامه لطبق الأرز وقطع الجمبري.

ـ اختيارك لموقع المطعم ذكيًا يا رؤوف، قربه من الأماكن الحيوية في شارع العرب جعله قبلة الكثيرين، خذ مثالاً هذا الشاب؛ رأيته قبل قليل في الأوبرا.

تبادل روؤف ووفاء النظرات ثم أخذت الأخيرة فنجان قهوة ووضعته أمام الشاب، قائلة: أجل. موقع المطعم عبقري؛ معظم مرتادي السينما والمسارح حولنا لا يجدون غضاضة في السير بضع دقائق للسمسمية.

خلعت ميليت قبعتها ووضعتها أمامها تلتها بالوشاح، وأمسكت بقهوتها المتراقصة فوق سطحها أبخرة ناعمة ترتشفها. قال رؤوف مشيرًا برأسه نحوها: وها هي بطلة العرض تتناول قهوتها المفضلة من صنع يديكِ ـ التفت نحو راغب متابعًا بمكر ـ الآنسة ميليت.

توقف سير الملعقة في منتصف المسافة بين الطبق وفم راغب، والتفت إليها ليفاجأ بشعرها القصير المصبوغ بلون بنفسجي قاتم، وغرة طويلة نائمة على جبهتها البيضاء العريضة! طالعته بنظرة لا مبالية، مرتشفة من

فنجانها، فقابلته عيناها الواسعتان ينعكس عليهما ضوء القنديل الصغير، ليعاوده ذاك الشعور الغريب من الفضول. هم بالإشاحة فجذبته شامة كبيرة تعلقت كحبة تين صغيرة مائلة للحمرة على غصن عنقها الطويل. وضعت وفاء محرمة على ركبتيه، محذرة: انتبه يا عزيزي، الحساء يتساقط!

رف بعينيه مبتلعًا الحساء: ظننتها رجلاً! أحد غريبي الأطوار الذين يضعون العطور النسائية؛ نحولها البالغ وشعرها القصير وتلك الملابس..

قال رؤوف ضاحكًا: نعرفها منذ أشهر، ترددت على السمسمية متوجسة في البداية، وسرعان ما استراحت لوفاء كعادة الجميع، حتى أنـــ...

قاطعته وفاء: دعونا الآن من ميليت، هل ترغب في المزيد من الأرز؟

مسح أثر الطعام عن شفتيه بالمحرمة، ونهض سائرًا نحو طاولتها يمد يده بالمصافحة: بل أرغب في التأكد بنفسي ـ أردف بالإنجليزية ـ مرحبًا.

انتبهت من شرودها ووضعت فنجان قهوتها تلته بيدها على الطاولة، تحدجه بنظرة خالية من التعبير: مرحبًا!

خفض يده قائلا: رأيتك قبل قليل في العرض، خطفتِ أنفاسي بأدائك.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة ضيقة، ثم أشاحت معاودة التطلع للخارج. كان لا يزال مشرفًا عليها بطوله الفارع وجسده الضخم كمصارع ثيران، يتمعن في ملامحها بتمهل، يعض على شفته السفلى، لتهبط نظراته صوب يدها المسترخية على الطاولة، فتتسع ابتسامته وتهبط يده بدورها فوق يدها ويرفعها نحو شفتيه طابعًا قبلة كسولة فوق ظاهرها. كانت يدها باردة متصلبة كجثة في ثلاجة الموتى، تسارعت أنفاسها وازداد اتساع عينيها حتى ملأتا صفحة وجهها المذعور. جذبت يدها المسروقة متغضنة الملامح بقرف، وسارعت بلملمة أشيائها مغادرة المطعم.

أمسك راغب بفنجانها يتفرس في أثر طلاء شفتيها، قربه من أنفه قائلاً: أضف فنجان قهوتها إلى حسابي الخاص يا رؤوف. غريب!

تساءل رؤوف بفضول: هل طلاء شفتيها سيئ؟

ـ بل ردة فعلها الغريبة، تصرفت بلطف معبرًا عن إعجابي!

ـ لا تطيق أن يلمسها مخلوق.

سارعت وفاء محذرة: رؤوف!

التفت راغب يتابع خطواتها المتسارعة، مغمغمًا: جميل.. أحب العقد!

«لم لا تتركونني وشأني؟»

طاف السؤال بعقل ميليت في أثناء سباقها مع الريح اللندنية هربًا من ذاك الضخم المربك. رحلت كطير مهاجر بحثًا عن الدفء، تنخر عظامها رعدة لا تبارحها، فقابلتها البلاد بضباب عزلها وهو ما احتاجته وأنست إليه، ورغم حرصها الدائم على التواري في كهفها المظلم، وقد بدلت هيئتها القديمة وصبغت شعرها بلون صارخ ينفي عنها تمامًا تهمة الأصول العربية؛ ليأتي أحدهم كل حين بكشاف ضخم يصوبه لكهفها المظلم، فتنطلق خفافيش مخاوفها!.

قطعت المسافة الفاصلة بين المطعم وبنايتها في أقل من عشرة دقائق، حرقت خلالها السعرات القليلة لفنجان قهوتها، وقد عاود طعم المرار القذر اجتياح فمها! صعدت الدرجات كالسهم حتى الطابق الثاني، وفتحت الباب يتناهى لسمعها صوت أسمهان من إذاعة مونت كارلو يصاحبه صوت والدها.

«إمتى هتعرف إمتى.. إنى بحبك إنتَ»

عثرت ابتسامة أخيرا على شفتيها، مرددة معه:

«ليكون فؤادك مش خالي.. وأَتعَذِب وتِعَذب قلبي»

طالعها والدها من خلف نظارته المنزلقة على أنفه: صوتك مريع يا زاد!

ـ أما أنت يا ماما فصوتك كروان، تماما كصوت جدى عبد السلام.

هم والدها بالحديث فسارعت للحمام مغلقة الباب خلفها، تغسل

أسنانها للمرة الألف! أحيانا يتمنى لو جرؤ ذاك اليوم على صنع طلسم أو تعويذة تمحو من ذاكرتها كل البشاعات؛ وهو ابن الأعرافي القادر على ذلك! فقط ليرحمها من عذابات التذكر وفزع الاجترار.

* * *

محاولة تقديم معلومات أكثر في مساحة أقل!!

(٦)

داعبت أنامل الآرت أوتار الكنار المشدودة بنعومة، تسبح موسيقاها في أجواء الغرفة الغارقة في أضواء المغيب، فيما استأذنت إناهاري بالدخول حاملة إيوانًا كبيرًا رُصت عليه صحون من الفاكهة الطازجة، وأخرى مُلئَت بمحارات محشوة بشرائح من الليمون، مع إبريق من نبيذ معتق. ألقت ميليت نحوه ابتسامة خاطفة ونهضت تاركة آلتها، لتدفع ضلفتي النافذة الزجاجيتين على مصراعيهما، تتأمل المشهد المهيب وهبة من الهواء الدافئ المحمل بروائح أشجار الزيتون والفراولة والمانجو تداعب أنفاسها. كانت ميليت حافية لا ترتدي سوى ثوب أبيض شفاف محلى بخيوط مذهبة يشي بأدق أسرار مفاتنها، يلتمع فوق رأسها تاج من الزهور فوق شعر مستعار مُحلَى بمئات من الضفائر المجدولة حول خيوط من الحرير الملون، ولا يزال جسدها يرتعش! شاعرة أن كل ليلة معه نفحة إلهية من آمون.

اقترب يلف ذراعًا حانية حول خصرها؛ لم يستطع البقاء وحده في الفراش المدفأ بحرارة جسديهما، فانضم إليها هامسًا: لا يمكن للآلهة

أن تفتن بشرًا كما فتنتني يا ميلي ـ وضع سلسلة ذهبية حول جيدها ـ لممارسة الحب معكِ طعم لم أذقه قبلاً، ولكل جزء فيكِ وميض بهجة تنعش روحي وتشعل توقًا لا ينطفئ، بصحبتك أكتشف سحرًا جديدًا في كل ما حولي، كشعرك المستعار الذي يسكرني عطره.

تفرست في سطوع عينيه المشابهتين لعيني صقر، وأنفه الرفيع، وشفتيه الرقيقتين كذراعي رع الحانيتين: تمنيت لو كان شعري الحقيقي يا كاو ليسعَد بوصال وسادتك وصدرك، لكنه المعبد! تحرم قوانينه دخول من ليس حليق الرأس. أعدك أن أتركه يومًا لأنعم برؤيتك إياه.

نزع شعرها المستعار ليظهر رأسها الحليق: ما تراه عيناي جميل في كل أحواله، لكن ما تشعره روحي أقوى وأبقى ـ أمسك بالجعران المتدلي من القلادة ـ انظري، أمرت كبير صانعي الحلي بأن يزين الحجر بخيوط الذهب كأشعة رع؛ لتشرف على اسمينا (ني كاو وميليت)، وأن يخط في الأسفل بماء الذهب (محبوبة وحم إيب رع الطيبة).

ـ أي أخي الحبيب، سأبقيه دومًا قرب قلبي وأباركه بتعويذة حماية من تلاعب سِت الشرير، لتلعن روح كل من يمتلكه عدوانًا. لو تعلم كم قاومت استسلامي لعاطفة هزمتي! حتى وددت للحظة لو أقطع رأس إناهاري كي لا تكون رسولاً بيننا، ولا مهرب منك سوى إليك.

مسدت إناهاري عنقها بذعر وسارعت بمغادرة الغرفة، ليضحك الملك مقبلاً ميليت: أتيتني عذراء يا ميلي لم يمسك بشر! وأنتِ ارت؛ يحق لكبير الكهنة الحصول عليكِ تبعًا لقانون قدس الأقداس.

ـ لم أستطع منح نفسي، تعللت مرارًا بالمرض مختفية لأيام حتى ينسانى الكاهن. انظر للطيور التي تكسو سطح الجبل، كيف ترفرف أجنحتها بلا هوادة وتنقر بمناقيرها السطح الصلب؟ ـ أراحت رأسها فوق كتفه ـ ترتعش روحي كأجنحتها كلما اقتربتْ، ويؤلمني جدار قلبي كنغز مناقيرها كلما ابتعدت.

ـ لجسدك وميض نحاسي كالإشراق، ولعينيكِ لون بحر العرب! تمزج ملامحك بين أرض كيمت وسحر الشمال، من أين أتيتِ؟

ـ أنا ابنة لكوشي من الجنوب، علمني عزف الكنار التي أوقعت موسيقاها والدتي الفارسية في غرامه فمنحتني عينين زرقاوين. أنا يا مولاي مزيج كوني مُرهِق يرفض المسلمات.

ـ خبريني سر اختيارك هذه البقعة من الأرض لنبني فوقها منزل غرامنا.

ـ موطن حكمك بشرق حابي، فأردت أن يكون موطن قلبك في غربه لئلا تعكر مقاليد الحكم صفو عشقنا، ولكي أذكر نفسي أن لا شيء في دنيانا يدوم؛ ترى الطير مستكينًا فوق الجبل لأيام فتظنه أتى ليبقى! وسرعان ما تناديه غريزة الطيران بحثًا عن طقس جديد، محبوب جديد، وعش جديد. سأُدفَن هنا يا كاو؛ سأبني مقبرتي أسفل منزلنا، هي وصيتي لك يا أخي إن انتقلت قبلك للعالم الآخر؛ لا تسمح لأي أرض أخرى أن تحتضن جسدي وممتلكاتي، هنا ولد حبنا وهنا سيُخلَد للأبد.

ـ لم الوجوم يا محبوبة؟ كانت لتوها زهور اللوتس بالخارج تتمايل طربًا لصدى ضحكاتك، ويعج الكون من حولنا بجمال من غرس يديك. لا تخشي يومًا تتبدل فيه أحوال قلبي أو تناديني غريزة الطيران؛ أنتِ رحابتي التي عثرت بها على نفسي المفقودة من جراء وطأة الحكم. أقرأ في عينيكِ برديات العشاق، وأسمع في صوتك أهازيج ارتحلت خلف منشديها من شرق كيمت لمغاربها، حتى إن بسماتيك العظيم كان يرسل مبعوثيه خلفي لكبح جماح روحي الهائمة! روحي التي أسرتها مجنحة تحرسها التماسيح.

تلاشت ابتسامة أوشكت على تتويج شفتيها، وخلعت رداءها سائرة صوب بركة الاستحمام تغرق جسدها في مائه المعطر، فلحق بها ليقفا بين زهور اللوتس العائمة متقابلين، تضع بين شفتيه قطعة من مانجو طازجة منحتها نسمات حابي برودة لذيذة، فيما يسكب النبيذ فوق جسدها مرتشفًا خيوطه السائلة فوق كتفيها، قائلاً: لسكرة النبيذ من نهر كتفيكِ نشوة لم أعهدها قبلاً، ماذا فعلتِ بكاو أيتها الآرت؟!

ـ بل قل ماذا فعل الحب بكلينا يا كاو؟ ـ سكبت بعضًا من الماء فوق

ظهره تمسده ـ أتذكر ليلة نزعتُ ألمك بفضل إيزيس العظيمة؟ يومها أخبرتك أن المعرفة قوة فقلت إنك تؤمن بذلك، حسنًا، سأعرض عليك الآن سر السحر الذي داويتك به والذي لم يكن سوى معرفة وعلم، ممنية نفسي أن يكون لصدقي معك منزلة تسمح لي باكتساب ثقتك. انظر لهذا الحوض الزجاجي الذي يحوي أسماكي العزيزة؛ تُطلِق رعدات كلسع البرق أتحكم في شدتها كيف أشاء؛ ألقي إليها بأسماك صغيرة ترعدها قبل أن تفترسها، فأستنفد قواها حتى أصل لشدة الرعدة التي يحتملها جسد بشري. اكتشفت بدراستها قدرتها على الشفاء ببثها رعداتها للدماغ المعتل كحالتك، لم يكُ سحرًا يا أخي الحبيب ـ هم بالاعتراض فعاجلته ـ حتى الزهرة، احتوت (الممفيتس)؛ خليط لمطحون أحجار جبلية وإكسير ساعد ألا توترك الرعدات.

هتف بذهول: والتماسيح! مستحيل. لقد رأيتها بعيني.

ـ التماسيح المسكينة كلما همت بالهجوم، سرى بفكيها مادة حارقة طالبت خدمي بسكبها في المياه حول قاربي في أثناء سيره؛ تؤلم فكاكها فتتراجع مكتفية بالتربص من بعيد عاجزة عن مقاومة غريزتها.

اعترتها رجفة حين أطرق مفكرًا، لولا أنه رفع رأسه أخيرا باسمًا: ما قلتِه لم يزد مكانتك في قلبي إلا سموًا؛ لا تحاورين جسدي وقلبي فقط بل تحاورين أفكاري، لم أعهد قبلاً امرأة تملك من الذكاء والفطنة قدر ما تملكين، تجمعين بين فتنة الوجه والعقل يا مجنحة!

قبلت كفه ولانت قسماتها ارتياحًا: إذن ليسمح لي أخي بكشف حجب نفسي وتعرية مخاوفي لتمثل بين ذراعيه كما مثل جسدي طوال شهرين مضيا. أنا يا حبيبي يخامرني شعور مزعج بالخوف والتشاؤم من القناة الجديدة التي تسعى يا مولاي العظيم لحفرها؛ لن تجلب سوى الخراب!

أولاها ظهره لولهة ثم خرج من الماء يسدل إزاره فوق جسده، وسار صوب النافذة يتأمل الطيور المتكدسة فوق الجبل كقطع السحاب.

ـ لم آمر بحفرها إلا حرصًا على المزيد من الخير والرخاء لكيميت! أنا

أول من امتلك في أسطوله سفنا لها ثلاثة صفوف من المجاديف، وتلك الرحلة التي قام بها طاقم بحارتي الفينيقي كانت لتصبح أكثر يسرًا إن حفـــ...

خرجت من الماء تضع إزارها هاتفة بتوسل: صدقني لا قبل لنا بمواجهة ما تخبئه وراءها وأسفل منها، ثمة ابتسامات متبادلة بين قائد جيشك وكبير كهنتك، يحملان البغض والعداء لشخصك المقدس؛ مولاي لم يخرج من عباءة الكهنوت، ولم يرضَ بالاستسلام لسلطة الجيش وإطلاق أذرعه في أركان البلاد كما أرادوا. قائد جيشك يستغل القناة في عمليات تجارية مع من اخترتهم للإشراف، يُصَرِفُ بها ما يصنعه من أدوات حفر في أعمال جانبية خاصة لا تعلم عنها شيئًا يا مولاي، أما الثاني فيستغل كرمك بمنح مخصصات للعمال ويحول مصارفها للمعبد باسم الآلهة؛ كلاهما يستغل الأمر لصالحه بلا اكتراث لحالة العمال المساكين في غفلة منك، لقد ابتلعت القناة اللعينة آلافًا من خيرة أبناء أرضنا، التوقيت خاطئ، ولن يحتمل ذنبهم سواك يا أخي الحبيب، يجب عليك أن توقـــ...

التفت صارخًا في استنكار: يجب عليّ! أتامرينني يا ميليت؟ بل وتشككين في رجاحة عقلي ووزني للأمور وتتهمينني بالغفلة؟

سارعت تحتضنه: حاش وكلا أن تتجرأ روحي على هذا، كل ما في الأمر أن تلك القناة سوف تكـــون مصدرًا للخـــ...

دفعها بعيدًا: كفى. عكرتِ صفو ليلتنا؛ سأغادر للقصر ولا أدري إن كنت سآتي غدًا، أحتاج لبعض الوقت كي تهدأ فورة غضبي عليكِ.

لم يمهلها فرصة للتوسل ومحاولة إخماد ثورته، غادر كالإعصار تاركًا الوحدة تنهش روحها الجزعة. لم تكن تعني أيًا من الأشياء التي اتهمها بها؛ أرادت أن تمنع شرًا مستطيرًا يلوح في الأفق، سيجرف البلاد والعباد نحو مصير مجهول. ودت إعفاء الأرض من ذنب قتل الأبرياء، لكنه لم يسمع ولم يرَ، أعماه الغرور وسطوة الملك، فانتزعه ست بعيدًا عن ذراعيها! لكنها قوية ولن تعييها الحيل.

* * *

(٧)

«عاجزة عن الحراك! جيوش العقارب الزاحفة تغرز أذنابها المسمومة بلحمها ممزعة جلدها، عبثًا تحاول التشبث ببنطالها الممزق ساترة عورتها، العقارب تتوغل داخل فرجها، تمزق أحشاءها نافثة سمها الحارق بعروقها، تدلف إحداها إلى فمها حين تهم بالصراخ، تهرول نحو بلعومها ورئتيها، تجاهد لالتقاط أنفاسها، الرائحة خانقة عطنة، تنتشلها أياد سوداء من بركة الوحل وتعاود غمس جسدها العاري، يتناهى لسمعها من بعيد هتافات خافتة (يسقط.. المرشد.. حرية)، خارت قواها محاولة الصراخ، صوتها يكبله الرعب، لا أحد يأتي. لا أحد يسمع، طعم القذارة يغمر فمها غارقة في أوحال طينية وفضلات»

ـ ماماااااااااا

فتحت زاد عينيها منتفضة، والعرق أسفل ملابسها كالسيل.. كابوس! وهو السبب؛ اقتحم عزلتها، اللعنة، لم تكن سوى مصافحة!

«بل كانت قبلة على يدي، كيف يجرؤ؟»

أعيتها الحيل؛ كلما اقترب أحدهم ينطلق صفير الإنـذار وتضيء إشارات الخطر! حكت موضع قبلة الأمس فوق يدها بعصبية، متطلعة للدمية الضخمة إلى جانبها دائمة الابتسام، تملك مثلها جديلتين بنفسجيتين؛ أمسكت بذراعيها الطويلتين ولفتهما حول جسدها، تتكور في حضنها الجامد، تتنفس بعمق مغمضة عينيها تهدهد نفسها كالأطفال، هي في أمان غرفتها؛ لا غرباء، لا عقارب ولا جروح دامية ومياه عطنة. مدت يدها تمسك بإحدى عبوات معطر الهواء من فوق الكومود، ترش رذاذه الفواح حولها، معاودة احتضان دميتها. يتناهى لسمعها من الأسفل صوت عبد الباسط عبد الصمد خافتًا في سورة الكهف؛ فقط حين تغادر المنزل تصدق رحيلها عن القاهرة! انتهت شعائر الجمعة التي يحرص والدها على الاستماع إلى خطبتها في المذياع المصاحب له كظله، اعتادته كجزء لا ينفصم عن حياتهما، لا ينام سوى على صوت إذاعة الشرق الأوسط من القاهرة، فيصلها الصوت وإن باعدت بينهما عشرات الأمتار، ورغم تذمرها تفتقد إزعاجه إذا فرغت البطاريات! راديو أسود عتيق بحجم الكف انهزم الزمن إزاء صموده المشرف أمام اجتياح الأجهزة الرقمية. لملمت أنفاسها المبعثرة وحصلت على حمام دافئ، أدت صلاة الظهر وفي التسليمة الأخيرة تطلعت للسماء عبر النافذة متمتمة: «أُجبرني».

لم يطالبها والدها يومًا بالصلاة، مارستها وحدها ببساطة دون أن تتذكر متى وكيف، كل ما تذكره هو مشاهد متفرقة لها تتسلق ظهره في أثناء سجوده، وأخرى تقف إلى جانبه متابعة حركاته في صمت، ثم جلوسها على الأرض قربه تقلد ما يفعل بضحكات شقية تخرجه في أحيان كثيرة عن تركيزه ليشاركها الضحك، لم يخبرها يومًا بما عليها فعله؛ منحها حرية دفع كلاهما ثمنها باهظًا! حارت كثيرا في تفسير تلك الكلمة المطاطة (حرية)، من يجرؤ على ادِّعاء امتلاكها نقية بلا شوائب؟ يمنحونها وهمًا ويسلبون الوهم بالدماء متى تجرأت على ممارسته،

يمنحونها لحظة ويسلبونها دهرًا تبعًا للمصالح، يزرعونها بلا تربة خصبة فتنمو بلا جذور وتُقتَلع مع هبة هواء، فلا تجد بين يديك حينها سوى قبض الريح!

بدلت ملابسها وصعدت للسطح كي تقوم بتمارين الإحماء الصباحية قبل الذهاب للمسرح؛ حرص والدها على تخصيص الطابق الأخير لها والطابق الأرضي له، أما الطابق الأوسط فجعله للسكن، ورغم دفعه المقابل المادي كاملاً فإن أوراق الملكية الرسمية باسم عمتها حرية؛ وكأن القدر يخطط للأمر منذ زمن بإقامة الأخيرة وزوجها في لندن؛ كانا عاملاً تشجيعيًا كبيرًا على الانتقال؛ فقد أرسلت دعوة لوالدها لزيارتها سهلت مرافقته لها في أثناء البعثة، لا سيما في ظل الظروف الصعبة التي كانت تمر بها وما زالت. مسكين والدها! أفسدت عليه حياته المستقرة. يملك قدرة على العطاء كالسيل الجارف، ينتبه لأدق التفاصيل موفرًا أتفه الاحتياجات، يدللها لدرجة تهيئته فسحة السطح الواسعة لأجلها؛ أرضية خشبية وبارات ألومنيومية، مشغل أسطوانات رقمي، جدار تكسوه مرآة ضخمة من السقف للأرض، كل هذا ولم ينسَ التدفئة المركزية. يجاهد طوال عمره حتى لا تشعر بالحرمان، متقمصًا دور الأم والأب في آن واحد كمن يسير على حبل رفيع؛ عليه ألا يغفل كيلا يفقد اتزانه.

أحبت المكان كثيرًا؛ عزلته تخففها من أثقالها مطلقة العنان لجسدها وروحها لتمارس الباليه الذي تعشقه. خلعت معطفها مكتفية بسروال قطني وبلوزة بحمالتين رفيعتين، لتبدأ بتمارين تقوية عضلات الخصر والفخذين والساقين. أدارت إحدى أسطوانات النقشبندي المفضلة لها متيحة لصوته الرخامي الغوص لأعماقها، تميل يمينًا ويسارًا مثبتة قدميها في وضع أجنحة الفراشة، تمسك بالقضيب الألومنيومي في اتزان. لوالدها أيضا صوت جميل كصوت النقشبندي، بل أجمل؛ مزيج فريد من نبرته ونبرة عبد الوهاب، لم ترث صوتًا كروانيًا مثله، ورث الملكة عن جدها عبد السلام؛ تلك الشخصية الممتعة دسمة التفاصيل، كان

مقرئًا ومنشدًا وخطاطًا و.. الكثير! استغرقها الأمر نصف ساعة عاودت بعدها ارتداء ملابسها وهبطت الدرج المفضي للحانوت. مرت بشِوال الريحان وقبضت حفنة تفركها بين يديها مستنشقة عبيرها بعمق، ثم فتحت كفيها تجاه الريح تذروها بعيدًا آملة أن تُذرى أفكارها الحائرة معها، متطلعة للافتة الحانوت الضخمة (عطارة الطيب). لم يشأ والدها أن يضع تشكيلاً لغويًا، وحين سألته عن السبب قال: «ليقرأها كل على هواه، هناك من سيقرأها لقب العائلة (الطَيْب)، وآخر سيقرأها صفة صاحبها من (الطيبة)، وغيره سيقرأها (الطِيب) أي الرائحة الحلوة، وفي كل الأحوال سترتاح لها النفس. لنمنحهم حرية الاختيار».

فتحت ذراعيها على اتساعهما تستنشق عبير المكان مشبعة رئتيها، السلام الحقيقي هنا بين حفنات الأعشاب العذرية، عبق يوحي بالسكينة. رفوف خشبية ملونة كالمدرجات قسمت بفواصل زجاجية شفافة تبين ما تحويه، مئات الأنواع من الأعشاب المعروفة والتي لا يعرف اسمها ووظيفتها سوى عطار خبير كوالدها محمد، عبوات فخارية مليئة بمواد هندية وصينيه وفارسية، غرزت بداخلها لافتات تشير لاسمها بالإنجليزية والعربية، نسخة طبق الأصل من حانوته القديم بشارع الحسين، ولأن هذا النوع من التجارة ليس منتشرًا بشكل واسع في المنطقة، ذاع صيته في غضون أسابيع بين الجالية العربية، مثيرًا فضول اللندنيين أيضا للتجربة. رجل نقل عالمه من أقصى الجنوب لأقصى الشمال، منتزعًا جذوره من تربتها ليزرعها لأجلها بأرض غريبة! وتحمد الله أن الأمور تسير للآن بشكل جيد.

«آه منك يا ماما! ربما لو تركتني أجابه المصير وحدي، لعدت إليك كما ولدتني أمي.. بروح معافاة»

لكن محمد رجل غير عادي، تستحوذ عاطفة أبوته على كيانه بأكمله؛ رجل لم يخجل من اشتراء فوطها الصحية كل شهر، ولم يمل من البقاء جانبها حين تعاودها آلام طمثها المزعجة، تصاحبها هدهدة صوته وبين

يديه كوب قرفة دافئ بالنعناع. للحب سطوة وحقوق، وأبسط حقوقه الحماية ولو من نفسها؛ يكفر عن خطأ غفلة ليس بذنبه، بل ذنب من قدموها قربانًا ومن ذبحوها إنذرًا للآخرين!

ظهرت فتاة أمام الحانوت بصحبة شاب بدا أنه صديقها الحميم من الطريقة التي احتضنها بها وهمس جعل يسكبه في أذنيها انفرجت له شفتيها بابتسامة هائمة. شقراء ببشرة قشدية وشاب من ذوي البشرة السوداء الغطيس كالتقاء ليل بنهار! قالت الفتاة متطلعة إليه بهيام: نريد عشبة تؤجج الحب بيننا.

رفعها بذراع واحدة مقبلاً إياها: أجل. أريد تأجيج نار شغفنا.

ـ ألا تخشى التفحم؟!

قالتها زاد بالعربية متهكمة فتعالى ضحك والدها من الداخل، خرج حاملاً كيسين قماشيين صغيرين من الساتان الأحمر، وقال بإنجليزية اكتسبها من طول تعامله مع السائحين: تفضلا. زجاجة من زيت (الفلورنس)، ضعي نقاطًا منها على السلطة وسيشتعل الحب كفوهة بركان، لكن انتبهي إن كنتِ حاملا، فبإمكانه أن يؤدي للإجهاض؛ أما هذا فـ(ناتميج) أضيفي بشره في أثناء طهي الطعام يصبح حصانًا جامحًا ـ شكراه بسعادة وغادرا فمازحها ـ أتسعين (لتطفيش) زبائني؟

ـ تحدثت بالعربية، لم يفهما شيئًا.

مط شفتيه مستنكرًا ثم غاب داخل الحانوت، وعاد بطبق يحوى بيضة وخيارة، قائلا: الإفطار، إن لم أحضره عزفتِ عن تناوله!

جلست خلف المكتب بصدر الحانوت: ألا مهرب منك أبدًا؟

أشار نحو الطبق باسمًا فوضعت البيضة بأكملها في فمها.

ـ ستغصين بالطعام يا فتاة. رويدك!

ـ عليّ هضم البيضة قبل التمرين. اصدقني القول؛ ألم تندم يومًا على المجيء؟ انتزعتُك من قلب شارع الحسين الذي تعشقه، ويجافيني النوم لتأنيب ضميري.

شرع في تنظيف الأتربة العالقة برفوف الحانوت، مجيبًا: لم يتغير الكثير، ربما تحول الشمر لفلورنس وجوزة الطيب إلى ناتميج، لكن البقية أمور لا تهم، وهل يندم المرء على الاحتفاظ بروحه داخل جسده يا زاد محمد؟ أنتِ زاد رحلتي، والرحلة بلا زاد موت محقق ـ أطرقت في صمت فاستدرك ـ تلقيت بالأمس اتصالاً جديدًا من الدكتورة نهال، ترجوني محاولة إقناعك بالعودة، سيسافر فريق البالية للاشتراك بالمهرجان الدولي dance open في بطرسبورج ويريدونك معهم.

ـ لن أعود إلى هناك مهما حدث.

ـ على الجرح أن يندمل، كلما طال الوقت أصبح أكثر عرضة للتقيح، أنتِ بحاجة للمواجهة لا الهروب. استمعي إليها وواجهي مخاوفك.

ـ ماذا تعرف الدكتورة يا ماما؟ لم أمت لكن ما زلت أنزف! ـ تناولت وشاحها وقبعتها من فوق كومة الريحان ـ أراك على العشاء.

أوقفها يمد يده بقرصي دواء: لا تنسي الفيتامين.

اتخذت الطريق للمعهد ركضًا، آلمها جانبها لأن الطعام لم يهضم بعد لكن هكذا أفضل، عليها الابتعاد عن كل ما يمكنه إجبارها على التذكر، ستنتهي من تلك الأرض تمامًا، ستنفضها من ذاكرتها كما تنفض ذرات التراب العالق بالأنسجة، هي الآن ميليت، راقصة البالية التي تنتظر مستقبلاً باهرًا، ربما تقابلها عثرات عدة قريبًا أهمها الحصول على الجنسية، خاصة أن الوقت يمر كالبرق وموعد انتهاء البعثة اقترب، لكن لا بأس، ستتعامل مع مشكلاتها الواحدة تلو الأخرى.

وصلت للمسرح منهكة من الركض، فجعلت تتجرع أكواب الماء بنهم في غرفتها، ثم حصلت على حمام دافئ جديد قبل بدء التمرين، كانت ترتدي ملابسها حين سمعت طرقًا على الباب؛ حارس المبنى يحمل باقة من الزهور الحمراء تتوسطها بطاقة أنيقة مذهبة الأطراف كتبت بالإنجليزية. همت بإغلاق الباب لولا دخول زميلتها الصهباء كلوديا.

ـ حسنًا، حسنًا، انظروا ماذا لدينا هنا! المرة الأولى التي تدخل فيها المسرح باقة ضخمة بهذا الشكل، يا لكِ من محظوظة ميليت! ترى ممن؟

ألقت ميليت البطاقة بلا مبالاة على طاولة الزينة: لا فرق ممن.

تناولتها كلوديا وقرأت بصوت عال: باليرينتي الباكية. إليكِ زهر شغف يماثل ما اجتاح عروقي فور حصولي على قبلتك. أحلم بالمزيد، فإلى لقاء. راجيب السائي ـ شهقت متابعة ـ سمحتِ لأحدهم بالاقتراب منكِ ومنحته قبلة! أهو يوم الدينونة؟

جذبت ميليت البطاقة من يدها وألقتها على الأرض: إنه يهذي، سخيف! قبل يدي بالإجبار، الغبي لا يعي متى تنفر منه امرأة.

ـ ظننتك استفقتِ من الغيبوبة وأدركتِ ما تفوتينه على نفسك من متعة! أنتِ قضية ميؤوس منها، لا تميلين للنساء وتدعين احتفاظك بعذريتك للرجل المناسب، أفيقي يا عزيزتي، الحياة كلها تفوتك.

تركتها وحيدة تتبادل والبطاقة نظرات الريبة، لا أحد يعلم حقيقتها؛ ساعدتها السيدة أحلام عميدة المعهد البالية في الانضمام للفرقة، أسرعت من إنهاء المعاملات الورقية والتأشيرات، وأمنت بصلاتها وصداقتها للمدير هنا الإبقاء على هويتها سرًا، مدعية أنها ابنة أب إنجليزي وأم إيطالية، ولأن الكل هنا يهتم بشأنه الخاص، مرت الهوية المستعارة بسلام.. حتى الآن، لكن من أين تأتي بالقوة لتواجه المزيد؟! كم تكره هذا الصراع.

* * *

معلومات مجانية مفاجئة

(٨)

تزينت القرية لزواج صالح وأبية، اختفت الأحلام المزعجة بنسوتها البائسات وسكن الفرح عيني الأخيرة، فمرت أيامها قربه هانئة تمامًا كما توقعتها وتمنتها؛ دار صغيرة جمعتهما، حرص على بنائها من طابقين في وقت كان الجميع يكتفي بطابق واحد، فجعل سطحها العالي عشهما السري، يمارسان حبهما على مرأى ومسمع من الأطيار وسعفات نخيل باسقات، تشاركهما غرامًا مشبوبًا بلحظات تزيل شقاء اليوم، يتوحدان فيها مع الكون كآدم وحوائه بلا هموم أو مخاوف، يطربهما تسابيح الكراوين في أفق السماء، وتزورهما بضع فراشات اجتذبها ضوء القنديل في ركن السطح؛ تقف الفراشات على أصابع قدميها المستلقية بجانبه، فتهزها بمرح لتعاود الحط فوقها، فيما يضحك صالح قائلاً: كل روح تعشق قربك يا أبية!

ـ ما يجذبها هو غرامي بك يا «واد عمي»، فقربك الحياة.

لم يكن قربه منها حياة فقط، كان طمأنينة وسترًا ونجاة؛ قام بما لم يقم به أحد في عالمهم الصغير الذي جُبِلَ على أعراف وتقاليد سلطت

كحد السيف فوق الرقاب؛ رفض ذبحها كالنعاج ليلة الزفاف أمام مراقبة الأعين؛ وقد منع بحزم دخول والدتها وداية القرية معهما إلى غرفة النوم رغم استنكار الجميع. ليلة مُحتَم فيها على كل فتاة إثبات طُهرها جهرًا، رغم ركبهن التي تصطك اجترارًا للحكايا التي سُكبَت في أسماعهن ممن رزحن أسفل وطأة التجربة المريرة! كانت همهمات الجمع الغاضب والمنتظر بالخارج تشوش فرحتها، يحملون فوهات بنادق تترقب محرمة خضبتها العفة كي تطلق الرصاصات احتفالا؛ أغلق باب حجرتهما وأخذ سكينًا من صينية العرس قاطعًا جرحًا في زنده، مسح دمائه السائلة بالمحرمة المهيأة لطقس الدخول، قائلاً بنبرة ربتت فوق قلبها: لا مخلوق سيجبرني على إفزاعك، فما بيننا مودة ورحمة.

ألقى لهم بالمحرمة مغلقًا النافذة عن ضجيج الرصاص ونغم الطبل والمزمار، وعاد يمضي الليلة بطولها يروض جوعًا وتوقًا يعلم أنه سيفتك بها ما أن يطلقه من عرينه، حريصًا على ألا تغيب إشراقة فرحتها عن وجهها. ظلا لصيقي الجسد يسكب في أذنيها همسات غرامه وشوقه؛ محتويًا ارتعاشة جسدها الهائب عالم جديد تطؤه قدماها للمرة الأولى، يذيب ثلوج الخوف من فوق عظامها بلمساته الحانية، مستكشفًا ربوع أرضه الطيبة بعد طول انتظار. وحين أتت لحظة ولوجه برعمها الغض؛ كان سمعها لا يدرك سوى صوته، وحسها لا يعي سوى زفرات شوقه المحموم غائبة عما سواه، فيما قبل جبينها قائلاً: آذيتك.

لملمت شفتاها حبات العرق فوق عنقه، قائلة: أي أذى وأنت سِترِي؟

تنهدت تنهيدة كسولة حين دغدغت الذكرى جسدها مُعيِدة إياها لأرض السطح، تطالع حدود السماء الموشكة على الإصباح.

ـ ترى ماذا هناك خلف حدود قريتنا يا صالح؟ كم أتمنى رؤية العالم البعيد ووجوه ناسه!

ـ الدنيا واسعة يا أبية، واسعة ومخيفة، سمعت حكايات عن أناس يزهقون أرواح بعضهم لأجل لقمة، ولأشياء خسيسة لو علمتِها لمُلئتِ

منهم رعبًا! منهم من يعيش في قصور مشيدة كقارون، يجاورهم حفاة عراة لا يجدون ما يستر عورتهم ويسد رمقهم ولو بكسرة خبز، فلا تلين قلوبهم الغليظة للغلابة، تمامًا كعمدة قريتنا، ذاك التعس!

ـ دنياهم مخيفة يا صالح! حمدًا لله على دنيانا الصغيرة.

ـ أحلم بأن تنضج ثماري حتى تنوء بحملها الفروع كما ينوء ضرع بقرتنا بحليبها، فيحذو أهل القرية حذوي؛ يزرعون المانجو في رحم أراضيهم، وتنكسر اللعنة ليتضح كذب العمدة، الحمقى يخشون خيال مآتة!

تمتمت قبل سقوطها في هوة النوم : لا تقلق يا «نضري»، سيكرمك الله ليعلم الجميع صدق حديثك.

* * *

جلس (ني كاو) فوق عرشه في صدر القاعة ممسكًا بصولجان ذهبي، يقف إلى جانبه الكهنة، فيما جلست ميليت على الأرض مصفدة اليدين والقدمين، ترتدي ثوبًا واسعًا من الكتان أُسبِل من حول جسدها ورأسها، خلفها جدار نقش برسوم ملونة لبشر برؤس حيوانات يقفون أمام ميزان ضخم، وضعت فوق إحدى كفتيه ريشة والأخرى قلب بشري.

قال كبير الكهنة، تهتز كتل شحمه لفرط انفعاله: تلك المدعوة ميليت؛ المجرمة بحق نفسها وقداستك، تحرض العامة على العصيان ورفض الذهاب للعمل بالقناة، مدعية أنها نذير شؤم على الأرض وعليهم! لذا أدعوك لتطبيق شريعة ماعت وعقابها على ما اقترفته.

اختلجت قسمات الملك متطلعًا إليها، يكابد توقًا كالله الغضب؛ غائبة لفصول! لم يرها منذ آخر شجار بينهما. أرسل حراسه في إثرها للبحث فلم يعثروا لها على درب، لتعاود الظهور بغتة محرضة على العصيان.

ـ هل قمتِ بما يدعيه الكاهن أيتها الآرت؟

تطلعت إليه بثبات: أجل يا مولاي، فعلت.

أطرق لبرهة وحين رفع رأسه؛ أنبأت قسماته عن انفعالات أرسلت الرعب لوجيب قلبها.

ـ ألا تعلمين أن ما فعلتِه خيانة؟

قالت وحدقتاها تسبحان في أمواج من الدموع: لم أكن لأخون مولاي ولو تكالبت عليّ تماسيح حابي، لأجله أروض أفراس البحر وأمتطيها مُواجِهة الأخطار، ولو انهالت على رأسي صواعق الرعاد تحرقني حرقًا.

اختلجت عضلة أسفل عينه، قائلاً: إذن ما معنى هذه الاتهامات؟

أمسكت بحجر الجعران فوق صدرها، مجيبة: أنا الآرت المجنحة ميليت، خادمة المعبودة حتحور ومحبوبة الإله رع، لا أحمل سوى الإخلاص والحب الأبدي لكيميت وشعبها الطيب.. ومليكها العادل.

أدرك مقصدها، لكنه لم ينس للحظة طوال أيام العذاب المنصرمة، هجرته السكينة مقدمة روحه المضطربة لمذبح الخوف، وها هي تضعه في مأزق بين كفتي القلب والعقل، وسيتعين عليه الموازنة بينهما كي لا ترجح كفة وتسقط الأخرى في غياهب الجحيم.

صرخ الكاهن بغضب: عليك التخلص من هرطقتها يا مولاي، لقد مس سِت روحها وأفقدها عقلها.

سارعت هاتفة: يعلم مولاي أملي نيل رضاه، ولو أن لي روحًا خبيثة يملكها سِت لرفلتُ في النعيم ملتزمة الصمت، مكتفية بما خلفته ورائي من رغد عيش مِلك يميني!

ميليت... ميليت... ميليت

تعالت بالخارج هتافات باسم الآرت، فدلف خادمه الخاص إلى الشرفة ملقيًا نظرة خارج الأسوار، ثم عاد ينقل مطالبة الكيميتيين بالخارج للفرعون بالعفو عنها، رافضين ادِّعاءات الكهنة الظالمة، يناشدونه الاستماع لمظالمهم؛ فارتخت قسمات الملك قليلاً وصرخ موجهًا حديثه للكهنة،

بعد ازدياد علو الأصوات مزلزلة جدران القصر: هل كانت المجنحة قادرة على استشراف الغيب قبلاً؟ ـ أومأ الكاهن بالإيجاب ـ هل شُهدَ لها يومًا بزوال العقل أو اقتراف شر بمخلوق؟

تبادل الكهنة نظرات حائرة، فسارع الملك يحثهم بنفاد صبر على الإجابة، حين قال كبيرهم على مضض: لا يا مولاي.

انهالت بغتة كالأمطار قطع حجارة عبر النوافذ، ما جعل الكهنة يخفون وجوههم بأيديهم وقد ضربت إحداها رأس كبيرهم! وحين هم خادم الملك بالانحناء لالتقاط إحداها منعه الأخير بإشارة من يده، وانحنى بنفسه وسط ذهول الحضور يلتقطها؛ كانت الحجارة ملفوفة بقطع من ورق البردي ففضها ليقرأ ما فيها بصوت جهوري؛ كانت رسائل ممن يقفون بالأسفل، تحمل سطورًا مترعة بالهم واليأس، تصف حال من ذهبوا للحفر ولم يعودوا، ومن عادوا مرضى وجرحى؛ عن بطون جاعت وألسنة جفت وشفاه تقرحت عطشًا، عن جلود قطعتها السياط وأحرقتها شياطين الأرض في حفرة العذاب، ذُيلَت جميعها بجملة واحدة...

«شفت الآرت المجنحة أجسادنا وأرواحنا فاعفُ عنها يا بن آمون»

أسبلت قطعة من الليل على قسماته: لنستمع لما في جعبتها، «همس المظلوم أعلى من صراخ الظالم»، أخبرينا بما يهمسه الغيب يا مجنحة.

أطلقت أنفاسًا حبيسة بعد طول أسر، وانفرجت شفتاها المرتعشتان ببسمة مترددة، ثم أسبلت جفنيها لتفيض دمعاتها على خديها، متشبثة بالجعران: أرى الآن ما وراء الغيب وتتلبسني روح إيزيس المقدسة مُتحدِثة بلسانها «عملك يا ني كاو سيجلب الضرر على كيميت، اليوم تتقاضى الرسوم على مرور الناس بأرضك؛ التجارة والقوافل، وتتحكم في مصير الناس والبضائع. أما غدا، سيمر جميع الأجناس عبر القناه فوق أجساد شعبك، ستجذب الهمج وتفقد السيطرة، وتجعل للخطر مَنفذًا إلى قلب البلاد، فبحق الآلهة وحق الوطن عليك، أصدر أوامرك بوقف الحفر».

سُلطَت عليها عيون الكهنة كالحراب المسمومة في صمت لم يقطعه سوى الملك: يقول الحكيم إيمحوتب «انظر لمن يقول لا ما يقول.. تعرف الحقيقة»، لتعلم يا كبير الكهنة أنك مثلما شهدت لها بالروح الودود والعقل الراجح، يشهد لها أيضا ابن آمون (وحم إيب رع) بالقدرة الربوبية على الشفاء؛ نزعت الآرت آلامي فشفتني من لعنتي. ومن يزرع الزهور بقلوب الكيمتيين، لا يحصد سوى نفحات من عطر المحبة مثلها.

اتسعت عينا الكاهن صدمة: كيف يا مولاي؟ هي لم تأتِ إليك!

ابتسم مجيلاً ناظريه فوق قسماتها بإجلال: أرسلت الآرت تعويذة فوق فرس بحر، سبح حتى وصل لشرفتي وشفاني. حِلوا أصفادها في التو وأوقفوا الحفر؛ فروح كيمتي واحد أغلى من كل أحلام الملك الجامحة.

نهضت ميليت رغم ثقل الأصفاد فظهر بطنها المرتفع، وانحسر رداء الكتان عن رأسها ليتجلى شعرها النحاسي الذي طال حتى كتفيها مصيبا الملك بالذهول؛ نجح مثل حابي! يطارح كيميت الغرام منذ بدء الخليقة مخصبًا رحمها شمالاً وجنوبًا، وها قد طرح غرامه بميليت سلسال ملكي.

«لو أن حبي الحقيقي لم يأتِ الليلة.. سأكون مثل جثة في قبر»

تمتم في نفسه الأغنية التي صاحبته كل يوم منذ غيابها، وقد كتبَ لأجلها برديات أخفاها عن الأعين، وسجل آلام حبه المعذب وتفاصيل حكايتهما المقدسة، عازمًا على أن يقرأ لها الليلة كل ما كتب.

رفعت ميليت رأسها متطلعة لأبية: مسكينة! سأعجز عن إيقاف الحفر لوقت طويل. لا تتركيه لهم.

تناهى لسمع أبية صراخ ظنته آتيًا من كابوسها، لكنها حين استعادت وعيها، وجدت صالح ينتفض من نومه على صوت والدته المفزوع:

ـ وماذا تريدون من ولدي يا بيه؟!

قالت أبية: ماذا هناك يا صالح؟

نهض مسرعًا يطل عبر سور السطح، رأى أحد اليوزباشية فوق حصانه ينخز وجه والدته بطرف عصاه زاعقًا: الأسئلة ليست من اختصاصك، كل ما عليكِ قوله هو حاضر ونعم، أين المدعو صالح؟

نادته أبية بجزع: لا.. لا يا صالح.. لا تذهب إليهم!

لم يتمالك الأخير نفسه وهبط ممتطيا الريح؛ كان الوقت قد فات، بات المصير المسطور فوق الجباه أمرًا واجب النفاذ، ولا هرب من الأقدار.

* * *

(٩)

«أنتِ قدري وأنا قدرك»

تمتمها دياب لنفسه وهو يزيح ستائر الغرفة السميكة متيحة لأشعة شمس باهتة ملامسة وسادتها ودغدغة أجفانها المثقلة بالنعاس، يتناهى لسمعها صوته الرقيق: صباح الأنوار على عيون المها.

نهضت بتثاقل متكئة على مرفقيها: استيقظت مبكرًا!

قال باسمًا وهو يضع صينية الطعام أمامها على الفراش: لتحضير إفطار يليق بحبيبتي ـ داعب وجنتها بزهرة صغيرة ـ صباح شريف.

ضحكت قائلة وهي تمسد رقبتها: ما سر هذا الرضا؟ يا إلهي! أشعر بصداع رهيب وبرأسي ثقيلاً؛ لا أذكر الكثير عن ليلة الأمس! كل ما أذكره أني عدت مع راغب في سيارتي وصعدت إلى هنا ورأيت.. كابوس سخيف ـ رفعت رأسها بغتة ـ هل أتت صوفي بالأمس للتنظيف؟

ازدرد ريقه وأخذ قطعة توست ليضع فوقها المربى وناولها إياها.

ـ صوفي؟!

ـ عاملة نظافة المبنى.

ـ لا أدري. عدت بالأمس ووجدتك نائمة بملابسك الداخلية، وملابس الخروج ملقاة على الأرض.

صمتت لبرهة تحدق بفنجان الشاي: كأنني رأيتها هنا بغرفتي! ـ مسدت جبهتها ـ لا أذكر تفاصيل الحلم؛ لكن يجثم منه أثر قاتم فوق صدري!

ـ هكذا الأحلام! تحمل أغرب وأعجب المواقف المستحيلة، ولا تترك في إثرها سوى مشاعر مبهمة تصاحبنا لبعض الوقت وسرعان ما تُنْسَى، استرجاع تفاصيلها أمر بلا طائل، هيا، كلي ريثما ألملم ملابسك المبعثرة؛ أحجمت نفسي بالأمس عن إيقاظك رغم اشتياقي لكِ.

انحنى يلتقط ملابسها؛ خلعها عن جسدها بنفسه، لم يملك خيارًا آخر؛ لم يكن عليها المجيء في ذلك الوقت اللعين، المرة الأولى والأخيرة التي يواعد فيها إحداهن بالمنزل! لكن ماذا يفعل والصيد كان أمامه لساعة كاملة يدعوه للقنص؟ راقبها بإشفاق تقضم قطعة التوست واجمة. مسكينة! تزوجته دون أن تعي حقيقة اقترانها برجل باع روحه للشيطان بصفقة غير قابلة للاسترجاع، لا يجرؤ على خسرانها وعاجز عن رحمتها؛ كما تمنح الشجرة ثمارًا نضرة تتعلق بفروعها أخرى معطوبة، وهو حريص دومًا على إخفاء العطب عنها لولا خطأ الأمس. أدرك أنها كانت تحت تأثير الأقراص المهدئة بالأمس من حالتها غير المتزنة ونظراتها الزائغة؛ حظه جيد! حين حاول في البداية إثناءها عن تناولها أفلح لبعض الوقت، لكن سرعان ما عادت لها من جديد؛ تريح أعصابها، لذا رأى ألا غضاضة في الأمر ما دامت لم تدمنها؛ تتناولها من حين لآخر كما يفعل البعض مع كأس خمر أو سطر هيروين لتعديل المزاج. يبدو أن الأقدار تعلم جيدًا قذارته فأرادت إعفاءها من رؤيتها!

سمعا صوت راغب بالخارج ثم طرقات على باب الغرفة؛ دلف حاملاً الصغير مشرق الوجه: أردنا إلقاء تحية الصباح أنا والبطل ـ تطلع للصغير بفخر ـ كبرتَ كثيرًا منذ رأيتك المرة الأخيرة قبل عام ونصف.

قال دياب: سأخبر سوزانا بصنع طبق مخصوص، ابقَ معنا للغداء، وأرجو أن تقنعها بتناول فطورها كاملاً.

ـ تقلقني تلك السوزانا يا مها، ألا تخشين على دياب؟ ـ التفت موجهًا حديثه للأخير بنبرة ساخرة ـ ربما سحرته بقسماتها الفتية، هي خطر!

قال دياب: مها أعمت أنظاري عن كل الجميلات.

التفت نحو شقيقته متفرسًا في وجهها الشاحب وعينيها الذابلتين، ثم طبع قبلة على جبهة الصغير ووضعه على الفراش إلى جانبه.

ـ تسرعتِ في الحمل مجددا، كما تسرعتِ في المجيء خلفه.

ـ لم أستطع تركه يواجه الأمر وحده، كما أن رحيل ماما كان سببًا أدعى لرحيلي عن مصر، لم أكن لأحتمل البقاء بدون كليهما.

ـ طلبه اللجوء السياسي إلى بريطانيا أثار حوله الكثير من الشبهات. والفترة التي قضاها في السجن رهن التحقيق، وما انتهت إليه قضيته الفائحة كانت كافية لتعيدي التفكير في علاقتكما، لا أن تلحقي به!

هتفت بلهفة: مظلوم! كل جريمته أنه تصدى لفساد بعض عناصر الشرطة في مقر عمله بسيناء فقامت قيامتهم، الظلم مر وما تلاه من رغبته في الرحيل عن مصر أمر طبيعي. أحبه وأحبك فلا تمزعني بينكما.

تطلع لوجهها بحزن، كم تشبه والدته! الهشاشة والرقة لا تصلحان في عالم صعب كالذي يعيشون فيه، يؤلمه إسبال أجفانها عن الحقيقة، لكن من يكون ليجرؤ على فتحهما؟ لن تحتمل ضوءها الساطع، سيعميها. الكثير من الشكوك تحوم حول ذلك الحقير، لم يطلعها على أي تفاصيل، لم يخبرها أنه تم التحقيق معه لاتهامه بتيسير تهريب الأفارقة لإسرائيل عبر حدود سيناء، لم يخبرها أنه اتهم بالمشاركة في عمليات لتهريب الآثار والمخدرات هناك بمساعدة البدو، لم يخبرها بقذراته وفساده الفائح. لا يملك إثباتات تدينه، كيف يقنعها؟ الحب يغيب عقلها كما فعلت بها الأقراص المهدئة من قبل. قابلته مرة واحدة في نادٍ لم يكن يحلم بأن تطأه

قدماه؛ ولولا علاقة صداقة جمعته بأحد الأعضاء من رفاقها القدامى ما تلاقيا يومًا. ما زال حلم عبد الناصر المشؤوم وبالاً عليهم للآن؛ توفي جده لأمه بذبحة صدرية إثر إجباره على التخلي عن أملاكه، آلاف الفدادين ذهبت في الإصلاح الزراعي اللعين، لولا أخواله الذين راعوا الأفدنة القليلة الباقية لانتهى اسم عائلة السماني للأبد، وها هو ابن فلاح يستحوذ على عقل وقلب شقيقته في غمضة عين، لا يدري ما الذي جذبها إليه؟ ليس وسيمًا كفاية ليخطف أنظارها! ولا ذا شخصية جبارة لتسحق مقاومتها. ربما قناع المسكنة وتصنع الرقة أوقعها في حبائله؛ رافضة كل أحاديث المنطق لردعها، والده فقط من ارتأى فيه مستقبلاً واعدًا ومزيدًا من السلطة، ليته كان محترمًا! لتغاضى عن كل شيء في سبيل سعادتها، لكنه بعيد كل البعد عن هذا، كم غريب أمر العاطفة! تصبح أحيانا أكثر خطرًا على الإنسان من السموم الفتاكة.

ـ ألم تتساءلي كيف استطاع امتلاك منزل فخم بهذه السرعة؟ والوظيفة التي حصل عليها في إدارة الأمن بتلك القناة الإخبارية الشهيرة، خاصة مع ما يدور حولها من تساؤلات مريبة؟

ـ دياب في لندن منذ ثلاثة أعوام وقبلها بشهور كان يخطط للمجيء، من الطبيعي أن يمتلك منزلاً في ظل العائد الضخم لعمله الجديد، لا تنسَ أن عمله القديم كمقدم في الشرطة أتاح له الكثير من الصلات، ومن مثله يتركون وظائفهم ويتجهون لشركات الأمن والحراسه، كما أني ساعدته ببعض من أموال إرثي من ماما. راغب، أرجوك، كفى!

ـ ما تمنحه الحكومة البريطانية للاجئين السياسيين بالكاد يساعدهم على المعيشة! لكن دياب أتى ليجد بساطًا من الرفاهية في انتظاره.

ـ راغب! أرجوك.

ـ حسنًا، لا تنزعجي. أتعلمين؟ لنا نفس العينين. ذكرني غضبك الآن بامرأة وصفت نظراتي بالغيوم الممطرة؛ كانت تملك أجمل ابتسامة بغمازتين ـ استدرك باهتمام ـ وعلى ذكر الجنس اللطيف، أدعوكِ بعد أسبوع لمفاجأة

ستسعدك؛ الباليرينا الباكية ستعرض كارمن. ما رأيك؟

ـ للتو عيناك كانتا تومضان ببريق شغف قديم، وها أنت تركض خلف شغف جديد! الغريب أنها ليست نوعك المفضل.

ـ عم تتحدثين؟ أحجز التذاكر لأجل عينيكِ ـ أمالت رأسها ريبة فابتسم ـ حسنًا، أعترف، ليست نوعي المفضل؛ نحيلة جدًا في الحقيقة، تشبه الصبيان الصغار، لكني بحاجة لانتصار، فقط انتصار صغير يعيدني للحياة، لذا سأدلل نفسي قليلًا. والآن، هل ستأتين معي لمقابلة كارمن؟.

* * *

(١٠)

ـ الوطن يحتاج لجهدكم وعرقكم، هيا بلا تباطؤ، هيا.

اخترقت ضربات الباشجاويش (عَذَب) فضاء الصحراء، ليرفع صالح ومن معه معاولهم الحديدية يشقون الأرض، متسائلين عن أي وطن وأرض يتحدث هؤلاء؟ وهل هناك وطن آخر عدا جبل الطير يتشاركونه وذوي اللهجة الغريبة من الكومندات؟ ولمَ تذكروا الآن أنهم شركاءهم في الوطن؟

«لأنه لا يُتذَكر العبيد سوى وقت الخدمة»

ما الذي اقترفه ليكون العقاب بهذه القسوة؟ ينُفى بعيدًا عن محبوبة توشم باسمها على زنده! ولا تزال تلاحقه نداءاتها المبتئسة مصيبة إياه بالجنون..

«إلى أين يأخذونك يا نضري؟ يا نضري يا صالح».

خايلت عينيه المعبئة بالرمال الصفراء ذكرى ابتسامة العمدة الرصينة أسفل علامة السجود المتفحمة، وأصابعه تحصي حبات مسباحه برتابة، فيما تهيل أبية التراب على رأسها وتشج ملابسها صارخة: «يا مرارك يا أبية.. يا مرار المرار من بعدك يا صالح».

فيعاود الأخير رفع معوله لعنان السماء ضاربًا وجه الأرض الظالمة هادمة الملذات؛ لا تشبه أرضه، تلك التي كلما أفاض عليها من عرقه اهتزت وربت مغدقة عليه بالخير الوفير، لكن هذه.. الناعمة كجلد حية رقطاء، يرفع عنها رمالها فتمنحه المزيد!

«ما الفائدة من الحفر بلا بذار، والعزق بلا نبت؟!»

صفوف بلا نهاية من رفقاء العذاب تمتد في كل الزوايا كجحافل النمل؛ لكلٍ لون ينضح به جلده و(لغوة) تجري على لسانه والهم واحد، يأملونه كابوسًا سيفيقون منه، متعلقين بأمل كالهشيم في جهنم أُمِروا بشق قلبها لتجري المياه بشريانها فتطفئ بعض لهيبها.

انتزعته لكزة حماد قائلا: (ماكلين) الديك يحدق بك فوق حصانه، وعَزَب الفيل يراقبك.

كان ماكلين الكومندان الإنجليزي ذو وجه أحمر كعرف ديك رومي؛ لذا اكتسب لقبه الساخر من العمال عن جدارة، أما عزب فكان بالغ القصر والبدانة مكفهر الوجه، يسيل عرقه فوق جبينه وأسفل ملابسه، ويتعالى لهاثه المتسارع بين كلمة وأخرى، يصاحبه رذاذ من لعاب كثيرًا ما تخفق الريح في إبعاده عن وجوههم.

ـ أي جنون هذا؟

قال حماد وعيناه تختلسان النظرات بتوجس: ألم أنصحك بالتوقف عن التساؤل والتفكير يا صالح؟ كل ما عليك فعله هنا هو الصمود، كافح للبقاء يا صاحبي، لتعدها فترة عقوبة، لم تدخل السجن قبلاً لذا ما زلت تشعر بالغربة، ستعتاد الأمر.. لا تقلق.

كان حماد من الأشقياء؛ لص موالد وبهائم، طويل القامة مفتول العضلات، تحمل قسماته ملاحة بشارب منمق رفيع، أمسك به البوليس قبلا وقضى عقوبة في السجن، لكنه كان حلو المعشر يغالب سوء الحظ بالابتسامة والتهكم، ما خفف عن صالح مرارة الحال بعض الشيء.

قال الأخير معتصرًا ساق المعول: لماذا نحن؟!

ـ تحدثت مع الباشجاويش أحمد، هو أكثرهم رحمة، ربما لأنه علم بأني وهو (بلديات)؛ إسكندراني وأنا من كفر قريب. أخبرني أن المسؤول عن فكرة الحفر التي أحضرونا من أجلها، توقف عن استخدام العمال السوريين لأجورهم المرتفعة ونقلهم الباهظ، متحولاً لاستجلابنا بالقوة.

حدق به صالح في غضب: لمَ نرضى بالذل ونحن أكثر منهم عددًا؟

ـ بنادقهم تحوي رصاصات لا تضل الطريق.

ـ لن يستطيعوا قتلنا جميعًا.

ـ لا يجرؤ سواك على المخاطرة.

ـ وإن خاطرت وفعلتها؟ ربما أشجع البقية.

ـ ستريك الرصاصة، ويعودون بعدها للحفر مطأطئي الرؤوس.

لم تمهلهما للاسترسال في الحديث ضربات سوط أنشبت مخالبها في ظهريهما، فأتتهما من حيث لم يتوقعاها، لم يكن (عَزَب)، بل كان الأونباشي (أحمد) الذي لتوه ذكره حماد؛ فعلها رحمة بهما؛ الكومندان وعزب لهما أذرع فاجرة القسوة، وربما كان ضعف بنيته وهزاله أحد أسباب رقة ضرباته، لكن ملامحه الرصينة ونظراته الهاربة دومًا من مواجهتهم؛ أعلمتهم بإنسانية يحرص كل الحرص على إخفائها.

صرخ أحمد: توقف يا (نطع) عن الحديث كالنسوان. اعملا في صمت.

جالت أنظاره فيمن حوله في سأم، مستنشقًا روائح القهر والموت في كل مكان. يشتاق بحر مدينته ودفء أسرته، ويعده يومًا أسود بلا ملامح حين انتدب للعمل هنا؛ الإجازات قصيرة لا تكفي لالتقاط الأنفاس وإطلاق سراح الكوابيس، والكثير من الضرب يعني المزيد من الإعياء والمرض، وقد اكتفى من الاثنين.

فرقع سوطه في الهواء فطأطأ صالح يجز على أسنانه قهرًا، لا يعي أحد من أهل قريته بوجود هذا المشروع الضخم؛ فقريته ليست سوى

نقطة فوق الخريطة، لا مطمع فيها، حتى المقبرة اليتيمة التي أتت لأجلها البعثة لم تكن كافية لإلقاء الضوء عليها، وسرعان ما نهبت خيراتها وثمار المانجو فوق الأشجار المحيطة بها؛ حتى العمدة لم يستطع بكل جبروته منعهم عنها. تركت كالمغتصبة على قارعة الطريق، مهتوكة السر، ولم تُمنح الفرصة الكافية كي تسول لأهل السلطة نفوسهم بحكم قبضتهم عليها.

اجتاحهم غزو فرديناند دليسبس بالخيول والجنود، فلم تملك والدته المسكينة صِلات تخول لها إعفاءه من السخرة كابن العمدة الذي تبخر يومها في الهواء، أو بعض قروش تجذب بها أنظار القادمين بعيدًا، كما فعل شيخ الغفر لولده. أعجزه يتمه وقلة حيلته عن الذود عن نفسه وعن أهل بيته، وقد بُلِغَت الأوامر لعمداء القرى ومديري الأقاليم بجمع العمال في السن التي يمكن فيها استغلالهم، حاصروهم كما تحاصر كلاب الحراسة النعاج، انتزعوهم بسفور ووحشية من قراهم بالإجبار ولسع السياط، مستبعدين ذوي الأجسام النحيلة لحظه السيئ، ليساق مكبلاً بالقيود كالمجرمين مع العشرات من فتية القرية. شحنوهم فوق مراكب نيلية في أقفاص كالدجاج، فمات البعض من جراء الحرارة والاختناق قبل الوصول لمصيرهم المجهول. نهايات لم تخطر على قلب أي منهم. وعند نهاية خط الترحيل بالزقازيق، بدأت رحلة جديدة من العذاب بسيرهم أربعة أيام كاملة، حفاة مقيدين بالحبال، يتراءون للناظر من بعيد كخط نمل سرمدي.

صاحبهم حاملاً قلة ماء صغيرة و(زوادة) من الخبز الجاف والفلفل الحامض، تتعلق عيناه بعيني أبية وقسماتها المتغضنة، وصرخاتها التي تشق عنان السماء تسحق نياط قلبه، يصاحبها عويل نسوة القرية الأخريات في ترنيمة غضب، ظل جبل الطير يردد أصداءها لأسابيع. وسرعان ما فرغت مياه القلة، ونفد زاده القليل، فكان المزيد من العذاب متمثلاً بعطش لا ينتهي، عطشًا لأبية ولشربة ماء!

ـ أنجدني يا صالـــ...

أفزعه نداء أحدهم؛ انهارت الأرض تحت قدميه وسقط في لجتها كالغريق يمد يديه نحوه بيأس، لم يرَ وجهه، لم يعرفه، كانت الرمال أسرع. صرخ مناديًا على أحدهم طلبًا للمساعده، يهم بالانحناء للبحث عنه، فهرع حماد ليمنعه ممسكًا بتلابيبه: وإن كُنْتُ أنا من يغرق برمالها، لا تمد يدًا لإنقاذي؛ اصمد لتبقى.

هتف بلوعة: لا أدري من كان. ناداني باسمي!

ـ لا تقلق، سنعرف من كان عندما يُنَادَى فلا يجيب.

وتتوالى بهم الأيام، لليل نفس الظلمة وللنهار ذات الحريق، دوام القهر والعذاب كتنفس الهواء، قرع السياط يغزو آذانهم يصاحبه السباب والزجر وقت الراحة والشقاء، زمرة العبيد تتضاءل في لحظة وأخرى، تُزوَد بالآتين من قراهم ومدنهم البعيدة، تأجيجًا لفورة الحفر الدائمة، يحفرون ويحفرون بهستيرية، ظانين أنهم يقلصون ساعات العذاب، فما تلبث الصحراء إلا أن تطالبهم بالمزيد! لم يكن يروح عن أنفسهم قليلاً سوى ساعات الليل المتأخر الذي يهجع فيه معظم الأحياء في بقعة العذاب، فلا يبقى سواه وحماد وغناء رفيقهم مهدي، مستمتعين بنسائم السكينة في هدأة الليل.

ارتوركا عاشق ترا ار ووه اشير أشرين

أشر قسمه ونصيب

ـ ماذا تعني كلمات أغنيتك يا مهدي؟ لكم لغة غريبة!

تبسم الأخير فلاحت أسنانه اللؤلؤية مضيئة وجهه القاتم: لكن الأرض واحدة، أغني بلغة نوبيتي الذهبية (الرطان)، هي أغنية حب يا صالح، يناجي فيها الحبيب حبيبته (دنيانا يا محبوبتي قسمة ونصيب، أشعلت نار قلبي فغنيت كالعاشق، أنتِ يا حلوة قسمتي ونصيبي).

هتف صالح: الله عليك يا مهدي! الله!

«كم اشتقتك يا أبية!»

كان في شوق أيضا لقبلاتها ولياليهما المقمرة القليلة التي طارحها

فيها غرامه فوق سطح الدار؛ نزعوه من أحضانها قبل الآرتواء، لأسابيع ظل يشتاقها اشتهاءً حد الألم حتى تحول توق الاشتهاء إلى توق للحنان والسكينة بضمور عنفوانه، وانطفاء شبق الرغبة في أشهر الجحيم.

قال حماد موجهًا حديثه لمهدي: وما هذه الآلة الغريبة؟ لم أرَ مثلها! رغم أن العبد لله (صايع) قديم في ليالي الأنس وحوانيت المغاني والراقصات.

رفع مهدي الآلة بزهو: إنها الكنارة، آلة وترية من تراثنا النوبي، يقال إنها كانت أكبر حجمًا في الزمن البعيد.

زفر صالح بمرارة: صغرت مثلما يصغر كل شيء حولنا إلا الهم.

رجاه حماد: الرحمة يا صالح! لا تكن علينا أنت والعطش.

دوى بغتة صوت الرصاص مهاجمًا النائمين ومن قاوموا النوم كمدًا مثلهم؛ إعلان جديد عن الإمساك بأحد المتسللين محاولي الهروب، وسرعان ما سيأتون ملقين بالجثة أسفل أقدامهم، ويأمرونهم بحفر ثقب له كي يدسوه داخله؛ مشهد جديد يتنافس ومشاهد الموت اليومي، مع روائح الجثث المتعفنة التي تحملها الريح ممتطية كوابيس الجميع.

قال حماد: لم يكن على ذلك الأحمق الهروب، اصطادوه كالأرنب.

غمغم مهدي: مسكين مصيلحي!

هتف صالح بفزع: مصيلحي؟ ـ أمسك بتلابيبه يهزه ـ كيف؟

هم مهدي بالإجابة فظهر أحمد حاملاً الجثة، أنزلها برفق أمامهم، وقال بصوت يجاهد لثباته فانسلخ من شفتيه مرتعشًا: تعلمون ما عليكم فعله.

اقترب صالح ذاهلاً: مصيلحي!

ـ رأيته صباحًا يحصي قروشه القليلة التي يمنحونه إياها كل عدة أيام؛ بعد رفضهم منح من هو أصغر من الرابعة عشرة سوى قرش واحد.

قال حماد بحنق: لولا أن أعمارنا ما بين الثامنة عشرة والعشرين ما منحونا قرشًا. وليتهم يمنحوننا تلك القروش الشحيحة كما وعدونا في

موعدها! نحصل عليها بشق الأنفس. لكن هل هذا يكفي ليقوم بتلك الحماقة؟

أطرق مهدي بحزن: اشتاق لأمه وأعياه العطش، قال إنه لم يعد يحتمل البقاء بعيدًا عنها لأنه يعلم مدى حزنها، موقنًا أن دموعها لن تجف حتى عودته، خاصة أن عينيها تؤلمانها، وكثرة البكاء ستزيدهما سوءًا. الليلة قمرية يكثر فيها محاولات الهروب فقرر أن يهتدي بضوئها.

تفرس صالح في وجه أحمد بغضب: ربما لو أوفوا بوعودهم وأحضروا لنا بعض الكراكات للحفر لانتهينا من هذا (الغلب) وعاد كل منا لأهله، أو لكان لدينا بعض أمل في أن ننتهي، لكن كعادتهم، امتصت رمال الصحراء وعودهم كأنها لم تكن!

تطلع حماد للصبي الذي سالت الدماء من ظهره على الأرض: لو لم يمت بالرصاص لمات عطشًا، الموت نهايتنا جميعًا.. ولا مفر.

جلس أحمد على الأرض منهك القسمات ذابل العينين: لي ابن في نفس عمره، اشتقته كثيرًا ـ فرك وجهه بكلتا يديه ـ ترعة المياه العذبة التي كان مخططا لحفرها من القصاصين إلى الإسماعيلية لم تتم، توجس الكلب فرديناند من نظرات الريبة التي تحدجه بها إنجلترا خوفًا على مستعمراتها في الهند، فألقى بفكرة حفر الترعة العذبة على طول ذراعه، وحث الخديوي على الشروع في الحفر دون مصدر لمياه الشرب يكفي الحاجة.

قال حماد: سمعت مصيلحي مرة يحكي أن والدته ركضت خلفهم تصرخ لأنه ما زال صغيرًا على الجهادية، كما أنه وحيدها! ظنت أنهم يأخذونه للجيش. يا أخي لا أدري سر دنيانا العاهرة؛ تنتقل بين أحضان الكبار كانتقال فراشة بين الزهور، وتأتي لعندنا متحولة لدبور أقرع!

زفر صالح بمرارة: لن تعلم أنهم اختطفوه في زمرة العبيد ليلقى حتفه.

قال مهدي: جميعنا بلا ثمن. دومًا بلا ثمن!

خلع الأونباشي أحمد البيريه الميري مزيلاً برفق الرمال العالقة عن وجه الصبي: لم تروا البحر! ـ أشار من حوله ـ تخيلوا كل الصحراء ماء، والكثبان المتناثرة موجاته، والريح الجافة نسيمًا رطبًا وديعًا يداعب في ليالي الصيف الوجوه الساهرة كلمسة أم حنون، تلقي في جوفه بالهموم فترتاح؛ كفيلة مَغَارِبَهُ بضبط (أعفشها) مزاج.

أمسك صالح بصحن معدني مزيحًا الرمال، فسأله أبحمد عما يفعل.

ـ الشيء الوحيد الذي بت ماهرًا فيه؛ أحفر قبرًا! لن يعاني حياة وموتًا، ليبقَ بيننا، كفاه غربة ووحدة.

أمسك حماد بصحنه الفارغ واقترب يساعده في صمت، فوضع أبحمد فوق الصبي ملاءة مهترئة وربت على وجنته، وعاود مهدي الإمساك بالكنارة مداعبًا أوتارها، يغني بلغة يفهمها مصيلحي.

خدوني في قفص كبير.. مسجون ليه أنا؟
وما عملت شيء لا ستحق العنا
ما عرفت قط في دنيتي غير اللعب والشيطنة
يا يمه وين نلقى الشجر والمياه الجارية؟
قبضوني ليه؟ جابوني ليه؟ حرموني العيشة الصافية!

* * *

(١١)

فتح رؤوف باب المطعم كعادته في التاسعة صباحًا، ليجد ميليت واقفة على ناصية الرصيف المجاور، مرتدية معطفًا صوفيًا ثقيلاً تخبئ كفيها المتجمدتين بردًا داخل جيبيه. أفسح لها بترحاب فجلست في بقعتها المفضلة قريبة من أصيص الورد البلدي.

ـ راودتني نفسي لفنجان قهوة؛ تفاصيل السمسمية تشبعني دوما بحميمية أفتقدها.

أحضر صينية نحاسية فوقها (سبرتاية) وركوة. يشعر بالسعادة كلما لاذ رفيق بالسمسمية من فراغ وحدة، أو حزن يحيل ساعات اليوم لرمادية غربتهم.

ـ لم أشأ أن تمحو الغربة ملامحنا، إن غفلنا للحظة تاهت عن الذاكرة.

اشتمت الوردات بعمق: رغم أنكَ هنا منذ أكثر من عشرين عاما!

ـ الوطن ما زال يقطننا مهما ارتحلنا، يتشبث بنا كجلودنا فوق لحومنا. ربما ينجح البعض في استبدال جلده كما تفعل الأفاعي، لكن ليس نحن،

نبتنا في أرض حفرت جينات صمودها وتاريخها عميقًا في الخلايا.

ـ أحيانا أتمنى ألا أملك تلك الذاكرة، النسيان مريح.

أضاف البن والسكر لماء الركوة ووضعها فوق السبرتاية موقدًا نارها بعود ثقاب، وجعل يقلبها بملعقة صغيرة، قائلاً: ذاكرتنا درع حماية يا فنانة، كم من هائمين على وجوههم بالغربة يتمنون ربعها عندما تحين الإجازات أو يعتريهم الحنين للانتماء فلا يجدون وطنًا يعودون إليه! إما أن تكون ذاكرتهم ممزقة الأوصال مفتتة، وإما تكون ذاكرة تم محوها عن الخريطة. صدقيني، أثمن ما نملك هو ذاكرتنا. انظري من القادم!

التفتت حيث أشار فرأت فتاة سمراء قصيرة تترجل من سيارتها الرياضية، مرتدية بلوزة واسعة كالهيبيين وشورتًا قصيرًا، يزدحم عنقها بقلائد من الفضة، ويتوج رأسها قنبلة من شعر غجري.

ـ ماليكا!

سألها رؤوف باسمًا: أيهما تفضلين إذن؟ ذاكرة طمي أم ذاكرة ريح تتخلص من أحمالها كلما مرت على أرض جديدة؟

دلفت الفتاة قائلة بعامية مصرية صميمة: هل لي نصيب في هذه الركوة يا بيك أم أن زاد هانم حجزتها كلها؟

ـ تتحدثين المصرية أفضل من لغتكم المغربية، ألن تفشي بسرك؟

ـ عليّ عفريت مصري يا فنانة.

غمز رؤوف قائلاً: صدقيها يا زاد، نتلبسهم كالعفاريت منذ الأزل.

مطت ماليكا شفتيها: لن تستفزني يا رؤوف، أعلم جيدًا ما تعنيه، لكنك تنسى أني يهودية مغربية، لا يهودية إسرائيلية! كما أن جدي لوالدي (ستفان)؛ كان مصريًا مخلصًا لمصريته.

قالت زاد: المخرج السينمائي؛ أخبرتنا عنه من قبل.

قال رؤوف: كنت أمزح، لا داعي لأن تغضبي. ما آخر أخبار المنازل الجديدة؟

أخذت الركوة تصب محتواها في فنجانين: اصنع لنفسك غيرها. اشتريت شقة في ضاحية blackheath بشمال لندن في شارع Quentin، تطل على مرجة.

قالت زاد: هوس اشتراء المنازل! ـ أردفت بتلذذ ـ القهوة مذهلة.

قال رؤوف: لا مثيل لفنجان قهوة على السبرتاية، أنا ووفاء مدمنين.

ظهرت الأخيرة من الباب الداخلي للمطعم، مومئة: كانت أمي وخالتي تجلسان معًا في العصاري على شرفة منزلنا تشاركان الريح رائحتها، فتسافر لآخر الشارع مستدعية إياي ورؤوف، لنهرع حيث تجلسان متوسلين لرشفتين من فنجانيهما.

تأملها رؤوف تقترب ومع كل خطوة عرجاء تخطوها ينبض قلبه بدفقة حنان، في كل ليلة حين يعاود شاطئها الوفي يترقب الصحو وقد عادا جسدًا واحدًا بريئًا من الشطر، وبإشراقة الشمس يدرك أن الحلم حلم وكفى. نهض مفسحًا لها مقعده وطبع قبلة فوق جبينها، ثم ذهب لتلبية طلب شاب ناداه بعصبية.

ـ أشرت إليك أكثر من مرة يا رؤوف!

أومأ رؤوف بهدوء: لا داعي للعصبية، إلام تحتاج؟

ـ تعلم جيدًا ما أحتاجه لكنك تنكر حاجتي.

قال من بين أسنانه: من فضلك يا ويليام، أخبرتك أن المكان هنا غير ملائم لحديث لا داعي له، كل ما أردته وتريده أرسله ولا أملك سوى هذا ـ اعتدل في وقفته ـ سأحضر لك القهوة حالاً.

قالت ماليكا محدجة الشاب: في كل مرة يأتي هذا الويليام يوتر الأجواء، لا أدري لم لا يطرده رؤوف تجنبًا لإزعاجه!

تطلعت وفاء نحوه بحيرة: أخبرني رؤوف بأن علينا الصبر كي لا نُسبِب سمعة سيئة للمطعم ـ استدركت باسمة ـ أتعلمان أن صينية كهذه أنقذتني من عملية ختان؟

شهقت ماليكا: احكي!

لم تنسَ وفاء ذكرى ذلك اليوم البعيد؛ حين جلست على الأرض فوق إحدى الحشايا القطنية، وخالتها يسر وأمها تجلسان على الأريكة (الاستامبولي) في شرفة منزلهم؛ كانت خالتها تعيد تثبيت عيني عروسها القماشية بزرين، بعدما انتهت من قص إحدى الحكايات للمرة الألف نزولاً على إلحاح وفاء.

ـ اتفقت يا يسر مع أم محمود على المجيء يوم الجمعة لتختن وفاء.

التفتت يسر بحدة كادت تقتلع رأسها: هل جننتِ يا فتحية؟!

ـ ما المشكلة؟ ألم نُختن وكل فتيات قرية الصيادين؟

ـ إذن يكفينا ما مررنا به من شقاء لنجتره فوق ابنتنا المسكينة!

ـ (إشمعنى إحنا)؟ هي عاداتنا وتقاليدنا فالختان عفـــ.. ـ قطعت استرسال حديثها بصرخة ـ آآآه! هل جننتِ يا يسر؟

رفعت يسر كف فتحية الذي لسعته بعين السبرتاية المطفأة للتو، وقد صنع الحرق علامة حمراء فوق رسغها: أنتِ من جُن! انظري ليدك، ألم يكن الأمر شبيهًا بهذا؟ أثر باق في أرواحنا المذعورة وأجسادنا المقطعة أعجزنا عن استشعار احتياجاتنا؛ أعفيها عذاب الحرمان.

هتفت فتحية بذهول: أحرقتني!

ـ كلما نظرتِ لأثره ستذكرين الوجع القديم، لم يلدك بطن أمي إن فعلتها! لن أسامحك أبدًا يا فتحية. هل سمعتِ؟ لن أسامحك.

قالت وفاء بنبرة شابها الحنين: ملكت خالتي الحنان وقوة الشخصية في مزيج تفتقده الكثيرات.

قالت زاد: ستظل المرأة العربية مكلومة بأنوثتها، مفطورة على الانزواء خجلاً من احتياجاتها، بل ومجبورة على جزرها قبل أن تعي لها أهمية، كي لا تفكر في مناطحة ذكور هي أقل منهم مرتبة وطهارة! حتى أجسادنا لا نملك فيها من أمرنا شيئًا.

لكزتها ماليكا: أعرف جيدًا الحزن الآتي من وراء رجل؛ ائتني بما يحمل رائحته وسأجعله يحبو أسفل قدميكِ ملاحقًا إياكِ كظلك.

قالت ساخرة: ألا ترين معي أنه إن لم يأتِ وحده فلا معنى للأمر؟

تلاشت أمارات المرح عن محيا ماليكا: أتدرين؟ ربما هي الإجابة التي امتنع ماييز عن الإفصاح عنها. سألوه مرارًا لم لا تعفي نفسك العذاب ما دمت تملك القدرة؟

تساءلت وفاء: من ماييز؟ وأي عذاب لم يعفِ نفسه منه؟

ـ جدي الثانى لأمي. حكاية طويلة؛ وها أنا أحذو حذوه!

قال رؤوف باسمًا: ورثت وفاء عن أمي قوة الشخصية.

كلما جاء شخص على ذكر غاليته الراحلة، يذوب القلب شوقًا لا يخبو مهما مر الزمن، كم تحملت يسر لأجله! وكم من حكايات عرفها تحمل طعم المرار، ولا تزال منها أسرار في جعبة الغير!

«رحيلك سيبقى نصل خنجر بكبدي.. يا كبدي»

اجترت ذاكرته جملتها المعترضة حاملة صوتها الدافئ؛ سكبتها على مسامعه لوعة، انتقت الرحيل كلمة الوداع ونقطة السطر الأخيرة، أيقنت استحالة إثنائه عن هجرة طال شوقه إليها. لم تقل أمه لا تذهب فالذاهب يعود، ورغم أوجاعها.. لم تتوسل، فيُسْر لا تعرف للتوسل طريقًا ولو أنهكتها الخطوب. حين أعلن رؤوف نيته جلية بالبحث عن وسيلة تحمله لأقاصي الأرض، هتفت يُسر فزعًا بأن سيد والده مهما حدث وعليه احتماله كما فعلت، لكنه كان ككل شاب في مثل عمره؛ يحلم بالسفر ورؤية العالم البعيد، مقررًا السير على خطى جده الكبير صالح؛ يحلم بأرض جديدة يمد فيها جذوره، ويعيش حياة جديدة بين أناس غرباء لا يعرفون شيئًا عنه، يختبر بنفسه ما سمعه من أصدقائه العائدين من هناك ممن قرروا المغامرة مثله؛ فلن يكفيه الابتعاد بضعة كيلومترات إلى مدينة أخرى، لا سيما أن بورسعيد لا تملك مفتاحًا لكنز أحلامه رغم غرقها في

الانفتاح؛ الوقوف بعربة لبيع قطع من الملابس المستوردة يجني بها بضع جنيهات لا تكفي لاشتراء جحر يبدأ فيه حياته البائسة؛ ولن يقبل بالعيش مع والديه ليندس مع زوجته في إحدى حجرات المنزل، معيدًا حكاية الفقر المدقع من جديد.

أطلقت يسر البخور وأحرقت المستكة، ترقيه ليل نهار معلنة إصابته بالمس رغم أنها ليست محاولته الأولى. وبعد صلاة الجمعة لأسابيع سبقت رحيله، جعلت تصنع عرائس الورق باسمه، تخزها بالدبابيس بهستيرية، وتقرأ آيات المعوذتين مرارًا بلا كلل، من أعين كل من حولهم عدوًا كان أو حبيبًا، هاتفة بفزع: رقيتك يا كبدي، من عين والدك.. من عين سيد.. سيد.. سيد.

موعودة برحيل أطيارها، أرواح تتحين الفرص لفراقها؛ ودومًا كانت القادرة على الصمود، كأثر فرعوني نحت من صخرة أبدية؛ سليلة عائلة استوطنت أرضًا مفطورة على الشقاء ومكابدة قسوة الواقع. كانت قرية الصيادين بضع بنايات تجمع بها كل من امتهن الصيد للرزق الحلال، قرب موجات تتمايل بغنج على شاطئ عائمٍ في زبد بحر معطاء كريم. وكما كان أصل الجذر عفيًا، امتد الفرع رشيقًا لا يهاب التحديات؛ يُسر زينة فتيات قرية الصيادين، أول حفيدة لأبية وصالح من ابنهما الوحيد حسن؛ تحصلا عليه بشق الأنفس، بعد عشرين عام من انتظاره حتى أوشكا على اليأس لولا رحمة الله.

كانت يسر مهرة لا تعرف الهدأة، صاخبة، مجلجلة الضحكات، عصية على أي لجام يجرؤ على الاقتراب، أو لسان يجاهر مفاخرًا بقدرته على ترويضها. ترك لها والدها كامل الحرية في مراقصة البحر ومخالطة رماله، فكانت منذ نعومة أظفارها قنديل ظلمته كما أحب أن يدعوها. أغدق عليها والداها الحب الوفير هي وشقيقتها فتحية التي تصغرها بعام. أسمياها تيمنًا بأحجار كريمة أحاطت عنق جدتها أبية طوال أشهر حملها بحسن، بعدما أفسح رحيل الجعران مكانًا لها؛ أرسل صالح في طلبها

خصيصًا من قاهرة المعز، معتقدًا في تلك المادة البركة والسعد وسهولة الولادة؛ فلم يطق رؤية أبية تعاني وقد كفاها ما عانته. كانت ولادة يُسر من أسهل الولادات التي عاصرتها القابلة، حتى أصرت حينها أبية على إطلاق اسم الحجر الكريم على حفيدتها، ممنية نفسها أن تخرج الطفلة مثله قوية الداخل ناعمة الخارج. وكما تنسلخ فروع اليسر من رحم البحر، انسلخت الفتاة من رحم أمها كالنسمة الهادئة.

هناءة العيش لم تدم طويلاً، قابلتها الحياة بوجهها القبيح متمثلاً في سيد؛ ذاك الذي لم ينجح لمرة في أن يصبح سيدًا ولو على نفسه. سيد الطبالي ثعلب القرية المتربص، وأكثر من حصل على نظراتها المحتقرة، لكنها سويعات قليلة تلك التي قلبت الموازين بعد طول صد ورفض لعروض زواج لا تنتهي؛ وفي لحظة قبلت! يسر التي تقبل العمى فاتحة ذراعيها ولا تقبل سيد.. قبلت، بل وأصرت عليه هاتفة بحرقة أنها لن تتزوج بسواه ولو قتلها الانتظار! حينها لم يجد والدها مفرًا من القبول؛ نضجت الثمار فوق أغصانها وباتت مطمعًا للأعين، حتى جديها لم يفكرا للحظة في إثنائها وهي حبة قلبيهما؛ لم ينسيا أنهما ذاقا من قبل حلاوة الحب والتعلق بالمحبوب. وتلك الكراهية نحو سيد الطبالي لم تكن مبررة لأي كان، الشاب قوي صحيح البدن، وكما يقولون (كسّيب)، صانع لطبالي الخشب التي تحمل عليها الأسماك، صنعة لن يتوقف الصيادون عن الاحتياج لها مهما مر الزمان. وقد فسر الجميع الأمر بأنه لا يتعدى غنج الفتيات المتمنعات وهن الراغبات. وعلى الرغم من سريان بعض الهمهمات الخافتة بين نسوة القرية وإشارتهن الخفية نحو صديقته برديس الدلالة الهائمة عشقًا به؛ لم يكن من المنطق اتهامها بصنع عمل سفلي كي تقع يسر بين يديه كالثمرة الناضجة وهي غريمتها! لكن من الحب ما أذل، وجعل سيد يبكي انكسارا ورأسه في حجر عشيقته يغرق جلبابها الأحمر بدموع عشقه المهان، حتى جذبته من تلابيبه تهزه غيظًا، مقسمة بأغلظ الأيمان على إتيانه بيسر مكبلة تتوسل وصاله. هكذا كن

يغمغمن بأخبار تناقلتها الألسن قيل إن منبعها برديس بذاتها؛ حين تنقطع بهن السبيل لتفسير الظاهرة الكونية العجيبة لقبولها إياه! ورغم هذا لم يستطع أحد الجزم بالحقيقة. لكن الأكيد أن سيد الطبالي كان رجلاً مجربًا، ورغم المهرة الجامحة داخلها، سهل ترويضها ببضع كلمات رسمت لها عالمًا لم تطأه من قبل، منّاها بعيشة راضية ومنزل يحوي كل ما لم يخطر لها على قلب، كما أن صلادتها لم تكن كافية أمام ما بثه لها من غرام في سويعات قليلة نجح خلالها بالاختلاء بها، فأجبرها على التخلي عن صدفتها الجافة، معرضًا رخو عواطفها لهبوب شغفه الذي ذاب بعدما صارت ملك يمينه، فكسر عجرفتها أو هكذا ظن!

ضاقت بعدها الأحوال بالمسكينة، ترزح تحت وطأة زيجة لم يدم عطرها، تلاشى مخلفًا رائحة خانقة تحاصرها. صار سيد شحيح الرزق كثير السُكْر، فاشلاً في حياته برمتها. ذهبت وعوده أدراج الرياح، علق مبررات فشله على مشاجب الغير معتليًا عرشًا واهيًا، يرسم لنفسه صورة وهمية جعلته يتشدق كل حين بالحادثة الوحيدة التي أشعرته بأهمية يفتقدها؛ يفتخر بأنه أحد الشجعان الذين دفعوا تمثال دليسبس نحو هلاكه المحقق بعمق القناة! وكلما خلا إلى ذاته عذبها بالحقد واللوم، نافثًا غضبه المكبوت وغيظه من نفسه عنفًا حارقًا أعمى يضرب ما حوله كالإعصار، لا يفرق بين حبيب وعدو. ورغم هذا ظلت يسر براعم نعناع؛ كلما قطفت منها أزهرت وتفرعت أغصانها ناعمة لينة، لا يزيدها الوجع إلا حنانًا، ولا يزينها مرور الزمن إلا جمالاً، عافرت نصيبها المعوج، وظللت كشجرة وارفة على عشها البائس، تكتم واقعها في صدرها، لا مخلوق يمكنه كشف سترها مهما تحايل لأن تبوح، فكانت تضحيتها وصبرها لأجل رؤوف؛ أنجبته رافعة رأسها تعارك آلامًا مهلكة، تعض قماطه المنتظر خصره، تصرخ وعرقها يتفصد من جبينها المتغضن.

ـ اخرج يا سندي لتشد ظهري، لا تسمح لرحم أمك بخنقك يا رؤوف.

استمر المخاض لثلاثة أيام، دارت رحاه طاحنة عمودها الفقري عاصرة

رحمها، أقام والدها الليل يرابض قرب سريرها، يتضرع إلى الله أن يخرجها سالمة، ووالدتها أسفل قدميها تحدق ببطنها في صمت وتسبح على عقلاتها.
كانت يسر محاربة، لا تُهزَم مهما اشتد وطيس المعركة، خرجت منتصرة تحمله بين ذراعيها مكبرة بأذنيه، آملة أن يكون رؤوف رأفة الحياة بها؛ لا سيما وقد اختفى سيد عشرة أيام، عاد بعدها يتجنب ابنه كالوباء.. لا يطيق رؤيته!

* * *

(١٢)

الجوع كافر، لكن صالح اختبر ما لم يختبره يومًا؛ العطش الكافر؛ عذاب جديد يضاف لعذابات لم يظن للحظة أنه سيأتي يوم ويتلظى بنارها! هو من كان يلقي بنفسه في المجرى العذب قرب داره كلما شعر بلمسة من حرارة القيظ، يسبل الماء على جسده أسفل شمس جبل الطير في صباحات الحرث المرهقة؛ فبات الماء سراب صحراء! تساقط رفاقه كالذباب في ملابسهم الرثة المهلهلة الموشكة على التحلل، البعض صريع أمراض افترستهم محولة إياهم لمجانين يهذون غارقين في عرق لا يدري من أين أتى، وأجسادهم متيبسة كالأغصان في موسم الجفاف، يتقيؤون عصارة معداتهم الصفراء متلوين من ألم يطحنها، وقد حفرت بذاكرته المسكينة تلك المشاهد مؤكدة له ولمن معه أنهم هالكون لا محالة. أصبحت أبية ماضيًا بعيد عليه أن يلقيه خلف ظهره، ليمضي أيامه المعدودة الباقية بعيدًا عن عذاب التوق، وكلما توقف عن شق الأرض ليحمل صديقًا أو يسعف رفيقًا ضاربًا بنصيحة حماد عرض الحائط، تهبط لسعة السوط على ظهره كلفحة من سواء الجحيم، تتابع عيناه الكسيرة رفيقه يُجَر على بطنه تحدجه

أعين الغرباء بقرف، ملقين به إلى جانب القناة الآخذة في التوسع يومًا عن يوم مبتلعة إياهم، تتلوى أسفل أقدامهم كالحية الرقطاء.

كانوا جالسين يومًا على حافة الأخدود وقد طال انتظارهم لشحنة ماء موعودة، يجترون أيامهم الهانئة البعيدة. لاحت من بعيد ظلال لقافلة جمال تحمل جرار الماء من آبار في الصحراء أو ربما من بحيرة المنزلة، لكن ما أن اقتربت حتى تحفزت أيادي الحراس لأي حركة سعار تعتريهم؛ الجميع يعاني العطش والجفاف، يتوقون لقطرة، ولا سبيل لتفادي كارثة تذهب بالجرار لشقوق الرمال كما حدث قبلاً سوى ضربات السوط ودوي الرصاص. أشار أبحمد له ولحماد وآخرين بالذهاب لتحميل الجرار فامتثلوا للأمر، وجعل كل منهم يحمل جرة فوق ظهره يناوله إياها أحد القادمين برفقة القافلة التي وجه قائدها حديثه لأحمد:

ـ معي شاب يرغب في الانضمام للعمل هنا على ضمانتي الشخصية.

تطلع أبحمد بضيق حيث يشير الرجل صوب شاب صغير أطرق رأسه نحو الأرض في خنوع، نحيل البنية، يضع عمامه التهمت معظم رأسه الأصلع.

ـ وما الذي رمى هذا المعتوه في جحيمنا؟ ألا تعلم ما ينتظرك هنا؟ ألم تصلكم روائح الأخبار النتنة؟

قال القائد: هو مقطوع اللسان لكن يسمع، يتيم وفقير لا يملك من زاد الدنيا قشة، ضاقت به الحال فسمع عن القروش التي تمنحونها للعمال.

ـ ألم أقل إنه معتوه!

ـ اتركه يا أحمد يسترزق، ورب هناك رب هنا.

ـ هنا تعيث الشيطاين فقط. أنت حر.

حمل الشاب إحدى الجرار وسار صوب صالح يناوله إياها، فيما انشغل البقية بالتحميل والنقل، أراد الأخير أخذ الجرة من بين يديه فأطبق الأول عليها بكل قوته، قطب صالح بضيق وهم أن يصرخ به، فسارع الشاب لدس يده داخل صدره وأخرج حجر جعران أزرق! اتسعت عينا

صالح ذهولاً ورفع ناظريه يتفرس في ملامحه التي لم تكن سوى ملامح أبية؛ تحكم هالات من الحزن السوداء قبضتها حول عينيها الذابلتين من البكاء، وعظام وجهها الناتئة حزنًا؛ حتى وشمها الجميل فوق ذقنها اختفى لتحتل بدلاً منه بقعة جلد محروق! أجهزت على الوشم بماء النار كما أجهزت على شعرها الفاحم الجميل محيلة رأسها لصحراء كالرابضة أسفل أقدامهم. أومأت تطمئنه بابتسامة شوق حرصت ألا يراها سواه، هم بالنطق فخانته شفتاه المرتعشتان كركبتيه الموشكتين على الانهيار، واغرورقت عيناه بدموع الفرحة عاجزًا عن التصديق؛ وكأن الأرض أنبتت مشاتل زهر فرشت الصحراء، تتفجر الينابيع عذبة في أنحائها، مساقطة رذاذها فوق شقوق شفتيه، لكن سرعان ما عاود قلبه الانقباض وتلاشت الصورة الملونة.

«صالح أيها المخبول، علام تفرح؟ أبية هنا في جحيمهم!»

جذب الجرة من بين يديها يعفيها العناء، فاهتز زنداه ضعفًا وسقطت على الأرض، ليستقبل ظهره لسعة سوط لاهبة، ويندس في أذنيه سباب سافر الفجور من حفرة فم عطنة، ولولا نعومة الرمال التي أنقذت الجرة من التهشم لكان رأسه بدلا منها! خفض ناظريه خجلاً؛ أول مرة تهان فيها كرامته أمامها! انسلت دموعه في صمت وعاود حمل الجرة تتبعه أبية حاملة أخرى في صمت صوب المخازن.

قال عزب بقرف: وبم ننادي هذا المعتوه؟

أجابه قائد القافلة: يدعى أُبَي.

* * *

(١٣)

«في حلبة مصارعة الثيران، تتعالى تكتكات الصنوج الخشبية بين يدي كارمن التي تقف على أطراف أصابعها رافعة رأسها بشموخ في ثوب أحمر قصير، تعقد وشاحًا أسود حول رقبتها وزهرة نارية تغفو خلف أذنها. تقافزت فتيات القرية من حولها يضربن دفوفًا ملأى بالصلاصل والأشرطة الحريرية في تناغم حماسي داخل أثواب مزركشة بألوان الربيع، ووالدها ينشد بصوته المخملي.

أقوم في الليل والأسحار ساجية

أدعو وهمس دعائي بالدموع ندي

يهبط مولويّ من السماء في تنورة بنفسجية تنفرج كمظلة، يطوف حول كارمن كفلك حول النجم؛ كلما طاف توهج ثوبها، حتى انطلقت بغتة رصاصة الغيرة من مسدس مصارع الثيران إسكاميلو، ليتعالى الكمان والتشيلو منهيًا المشهد بسقوطها مضرجة في دمائها جثة هامدة».

انطلق التصفيق والصفير من كل ركن بالقاعة يرجها رجًا، ومعهم

نهضت مها هاتفة: لا يمكن أن يكون هذا الجمال وهمًا! إنها حقيقة يا راغب، أكاد ألمسها. لم أرَ في حياتي راقصة تنتزع انفعالات مشاهديها كميليت.

قال مشعلاً سيجاره: لكن أين هي؟ لم تخرج لتحية الجمهور!

ـ مرة أخرى تختفي بعد كارمن! ـ أضافت بمكر ـ حضرتُ من قبل.

ـ مشاكسة! اجلسي ولا ترهقي قدميكِ ـ قطبت متأوهة ـ ما بكِ؟

ـ لا أدري، تؤلمني رقبتي ورأسي قليلاً.

اقترب متفرسًا في رقبتها: ثمة كدمة باهتة أعلى عنقك!

ـ ربما ارتطم رأسي بالفراش. تثقل الأقراص وعيي.

ـ عليكِ أن تكوني أكثر انتباها لنفسك. انتظريني، سأغيب لدقائق.

اتجه نحو باب الكواليس وطلب من الحارس إبلاغ ميليت برغبته في مقابلتها. انتظر لثوان عاد بعدها الحارس وبرفقته كلوديا متشحة برداء حريري: مرحبًا. أنتَ مرسل الزهور الحمراء؟

ـ أنا مشهور!

ـ بل ميليت هي المشهورة برفض كل شيء حتى الزهور، وضعتُها فوق طاولة زينتي حتى لا تلقيها بالقمامة. أنت عربي؟

ـ مصري. أين هي؟ لم أرها في نهاية العرض.

مطت شفتيها مطرقة لوهلة: لا أدري إن كان ما أفعله صوابًا لكن، ربما دماء جديدة هي ما تحتاجه؛ تستحق بعضًا من متع الحياة، حسنا سيد راجيب. ميليت لا تزال على الخشبة.

التفت حيث أشارت: لا أراها! لقد غادر الجميع.

ـ هذا لأنها على الأرض، لا تزال جثة هامدة.

اقترب منها أحدهم بعد مغادرته؛ هاتفًا بعصبية: لمَ أخبرتِه كلوديا؟ تعـــ..

قاطعته مقدرة مدى غضبه إزاء كل محاولاته الفاشلة مع ميليت: على أحدنا المساعدة في كسر كلاباتها دايفد، كما أن فرصتك منعدمة معها؛ لا يكفي أن تكون راقص الفرقة الأول فهي ليست أنا، تخل عن الأمر واتركها لحالها.

وقف راغب بوجه جامد، يتأمل أجفانها المسبلة وتنفسها المنتظم وجسدها المسترخي في هدوء المسرح، مرهفًا أسماعه لتكتكات صنجة خشبية بين أصابعها: ميليت!

انقبض قلبها لسماعه؛ فضمت قبضتيها على صنوجها: ماذا تريد سيد راجيب؟

ـ ذاكرتك السمعية جيدة! ليت لعينيك ذات الذاكرة لتدركي مدى اهتمامي.

فتحت عينيها هاتفة: ابتعد عني.

ـ أرجو أن تنهضي ليتسنى لنا حديث لائق. لم أنتِ هنا؟

جعلت تضرب صنوجها كنقر الخطوات: من أخبرك أني هنا؟

انحنى بنفاد صبر يهم بجذبها: انهضي من فضلك.

ألقت الصنجة ونهضت على مضض: لا تلمسني! أنت رجل غاية في الإزعاج.

ـ وأنتِ غاية في النحول! أثواب الرقص تمنحك وزنًا وهميًا، لولا هاتين العينين الواسعتين والملامح الناعمة لظننتك رجلاً.

ـ ظننتي كذلك بالفعل بل وشاذًا، لا أظنني أملك ما يثيرك فدعني لحالي ـ اندهش لتصريحها ـ حسنًا، لراووف فم ثرثار.

ـ يبدو هذا! ما رأيك بدعوة على العشاء في المطعم الذي تفضلين؟

ـ أنا لا آكل.

ـ بالطبع. يا لسخافتي! ـ عض على شفته متفرسًا بها ـ حسنًا، ما رأيك ببعض الشامبانيا وقطع من فاكهة الشغف؟ ستكون لذيذة وحارقة للسعرات برفقتي.

لم تحتمل أعصابها المزيد من تصنع الثبات فقالت من بين أسنانها: أحرق الكثير بالفعل كلما رأيتك، وجودك يوترني، بالتأكيد تدرك نفوري من محاولات اقترابك، لا تضع وقتك سدى.

ـ أملك كل وقت العالم. لكِ نكهة حمضية تنعش النفس، ولم أكن يومًا رجلاً ترضيه النمطية، أحتاج للاحتراق من آن لآخر لأستشعر الحياة وأمتص نخاعها، وحاليًا، أنا في أمس الحاجة لذلك.

ـ لكنني لا أملك رفاهية الوقت ولا قدرة على الإحراق؛ أعاني برودة شديدة؛ لا تعذب نفسك بثلجيتي.

سارعت بالاختفاء داخل غرفتها، يعلو صدرها ويهبط انفعالاً، اتكأت على الباب تحدق في بطاقته الذهبية أسفل إطار المرآة. كان عليها إبقاؤها أمام عينيها طوال الوقت فلا تغفل عن تسلله، وها قد غفلت! ولا تدري ما تحمله الساعات المقبلة من كوارث، لذا تأكدت قبل خروجها من المسرح خلو الطريق من جسده الضخم؛ فلا يمكنها المخاطرة بأن يتبعها كمقتفي الأثر المهاويس.

اختارت أكثر الطرق هدوءًا، مهرولة، وحين وصلت للمنزل وصعدت درجاته ركضًا استقبلتها أسمهان مع صوت والدها..

«يا حبيبي تعالَى الحقني شوف اللي جرالي.. من بُعدَك»

كان والدها يشعل شمعة وسط المائدة، وصحون من اللحم المشوي وأطباق السلطة تفترش سطحها بأناقة، يتوسطها فاز كريستالي به زهرتان بلديتان فواحتان.

ـ لم تتأخري! معدتي تزقزق.

تنهدت براحة خالعة معطفها والوشاح، وابتسمت مرسلة قبلة في الهواء، تغني معه.

«وأنا كاتمة غراااااااااامي.. وغرامي هالكني»

هز رأسه باستياء: لا يزال صوتك نشازًا! لا أدري لمَ فوتت جيناتك

الحمقاء على نفسها اصطياد صوتنا العائلي الفخم؟

ضحكت قائلة: ليست جيناتي فقط الحمقاء، لو تعلم العشاء الذي فوته على نفسي! أحدهم عرض على شمبانيا وقطعًا من فاكهة الشغف حارقة السعرات.

ـ معجب جديد إذن؟

تلاشى المرح من محياها: وليس عاديًا لأنه مصري، لا أدري من أين انشقت عنه الأرض! ماما، أنا مرتعبة، كلما تذكرته يعاودني طعم القذارة، المعذرة.

غابت لوهلة ثم عادت يصاحبها عطر معجون أسنانها، فأطرق محمد متلاعبًا بقطع الطماطم والخس في طبقه.

ـ كم أخشى على لثتك وأسنانك من هذا الهوس يا زاد! إلى متى؟

جلست على المقعد ممسكة بقطعة لحم: من الجيد أنك قمت بشيها.

تأملها تقضم قطعة اللحم بشهية. لا تزال في عينيه صغيرته الحلوة؛ يوقن أن الطفلة بلا أم نبتة عجفاء لا يطالها الندى ولا تعي للشمس دفئًا، وإن شد عضدها والدها! لذا حرص على ألا يزور الحزن قلبها؛ وقد حرمت نعمة امتلاك أم وأشقاء كقريناتها. مجيئها للحياة سلب حياة والدتها؛ حملت بها في سن متأخرة بعد اكتشافها مشكلات بالقلب، أخفت عليه الأمر آملة أن تمر الولادة بسلام؛ فلم تذق طعمًا لحليبها الدافئ أو تنعم بلحظة سكينة بين ذراعيها. طالبها أن تناديه ماما حين جاءته باكية لافتقادها النداء كزميلاتها؛ فأوقفها بين بين، عاجزًا عن منحها الأمومة التي تفتقدها أو منحها أبوته بشكل طبيعي، كان يحاول ألا يحرمها مما تفتقده قدر استطاعته، تصرف على سجيته بلا منطق ربما يلومه عليه الكثيرون! وقد حرص على أن يوفر لها ما حُرم منه قبلاً؛ الاستقرار والأمان. أخطأ من قال إن (فاقد الشيء لا يعطيه)؛ ولأنه نبت والده ومرآته، سعى جاهدًا لأن تكون المرآة نقية بلا شوائب الأصل.

ـ ألا تزال أسنانك قادرة على المضغ في ظل تعذيبك المستمر لها؟

رفت عيناها معيدة قطعة اللحم للطبق، ونادته برسمية لتضفي الجدية على حديثها: بابا. أنتَ صمام الأمان الوحيد في حياتي؛ (رمانة ميزاني) كما يقولون؛ رجل تخلى عن كبرياء ذكورته لأجلي! ضحيت بشبابك، بعملك وذكرياتك في مصر، صحبة أصدقاء عمرك، بل وركضت خلفي لأقاصي الأرض. أنتَ عمودي الفقري يا طيب، وإن أمالت سفينتي ريح زائرة، فأنتَ شراعي الذي يحميني.

لوح قائلاً: لا داعي للدراما؛ ولا تنسي أيضا تضحيتك الكبيرة بقص شعرك! وجدتني حائرًا في تمشيطه بعد كسر ذراعي؛ عدتُ ليلاً من الحانوت لأعثر عليكِ أمام مرآتك وذيل حصانك ملقى على الأرض وبيدك مقص، بكيتُ بحرقة فاحتضنتِني مربتة على ظهري وقلتِ إنه لم يكن مؤلمًا مثلما ظننتِ، كما أنه سيطول ثانية، وسأكون حينها قد شفيتُ. لم تكوني قد أكملتِ الخامسة بعد، كبرتِ قبل الأوان يا حبيبتي.

أمسكت بيده: ومنذئذ وأنا قصيرة الشعر؛ أحببته قصيرًا. لا تصنع منها جلبةَ فلا شيء يضاهي تضحيتك ـ صمتت لوهلة ـ ما زلتُ خائفة!

ـ لم أعد أطيق الضعف الذي تحيطين نفسك بشرنقته.

ـ أجل، أنا ضعيفة، كل النساء ضعيفات، لم آتِ بالجديد.

ـ غير صحيح، أنتِ قوية، كنتِ قوية يوم قررتِ النزول إلى الميدان رفضًا للظلم ودفاعًا عن الحق، كنتِ قوية لحظة اتخاذك للقرار، أما تبعاته فشأن آخر، لستِ الأولى ولم تكوني الأخيرة.

ـ سمِّ لي امرأة تعرفها بتلك القوة التي تتشدق بها عداي.

ـ كل نساء حياتي قويات، ابنتي، زوجتي ووالدتي، جدتي..

قلبت عيناها معترضة: جدتك كانت راقصة في ملاهي طنطا!

ـ اتخذتْ قرارات كثيرة أظهرت قوتها، حتى (مُنتهى) كانت قوية.

ـ من منتهى؟

ـ زوجة جدك عبد السلام التي لم يتزوجها! كانت شجاعتها أيضا قرار، خسارة! لا تجرئين مثلها على اتخاذه ـ طالعته بارتياب ـ أجل. كانت شجاعة؛ واجهت اقتحامه وسمحت له بالاقتراب رغم مخاوفها، عشقته ولم تقبل بأنصاف المشاعر.

ـ وكيف تكون زوجة لجدي دون أن يتزوجها؟!

حار محمد دومًا كيف يجيب على تساؤلات الغير بشأن والده، من كان؟ ماذا عمل؟ بمَ اتصف؟ وكان السؤال الأخير هو الأصعب؛ كيف يصف رجلاً جمع كل المتناقضات؟ ويكنَ له منتهى الحب والتقدير.. ومنتهى السخط والغيظ!

* * *

(١٤)

يقولون إن للوراثة عاملاً كبيرًا في ما يسلكه المرء من دروب، فكان عبد السلام الطيب الوحيد الذي كسر القاعدة؛ آخر عنقود أكبر وأغنى عائلات دمياط؛ مالكي مصانع الحلويات الشرقية ذوي العقارات والأراضي، عرق نافر مزعج بزند العائلة لا يتسبب إلا في الصداع المزمن. نبت شيطاني بأرض مباركة يجذب السمعة السيئة مؤرقًا مضجع عميد العائلة، غامرًا قلب الأم ذات الحسب والنسب بالحسرة. كان طيرًا هاجًّا بلا مواسم رحيل، العالم موطنه وكل البقاع مسكنه، وحيثما وجد الصخب والندماء والموسيقى يكون. باحث دائم عن مغامرة جديدة تؤجج غضب والده بلا تعمد! مرهقًا إياه في محاولات مستمرة لإثنائه عن الطيش وإقناعه بالعدول عن حياة اللهو والضياع. كان عبد السلام بهي الطلعة، طويل القامة، أمرد البشرة بلون الحليب، ووجهه مشرب بحمرة الصحة، تزين خده الأيسر شامة قاتمة الحمرة بلون التين، وعيناه حملتا لونًا ماكرًا جمع بين زرقة السماء ورماد محترق. له ضحكة آسرة تكشف عن صفين من أسنان لؤلؤية، يلمعها كل حين بقطرات الليمون وصودا الخبيز، ذو شخصية مغناطيسية تجذب من يشاء وقتما يشاء.

ورغم ميله للهو، امتلك ذاكرة حديدية خولت له حفظ القرآن كاملاً بالتجويد، وقد حرص والده على تحفيظه الكتاب كما فعل معه والده بدوره، ليظهر صوته الشجي في أثناء التلاوة؛ امتلك حنجرة ذهبية رغم إهماله تلك الملكة التي أمكنها أن تصنع منه منشدًا ذائع الصيت، فقط إن شاء! كان يصر أحيانا حين يميل هواه لأن يشارك المنشدين تواشيحهم في حفلات ذكر أقامها والده منتصف كل شهر عربي حتى بات ينافسهم، ليتوسل الحضور أباه كي يسمح له بالمشاركة، وكثيرًا ما يرفض عبد السلام؛ فقط لأنه لا يملك المزاج! مشكلة المشكلات؛ هوائي لا يريد سوى الترحال في بلاد الله، يبحث عن طرف ملاءة مشدودة فوق خصر نحيل، وعينين كحيلتين بسواد ليله الطويل داعيًا ألا يأتي نهاره. تهزه ضحكة رنانة بغنج الدلال ونظرة تشير إليه من بعيد ليقترب. كان في أحيان رجلاً دنيويًا حتى النخاع، وفي أخرى وليًا من أولياء الله. شخصية مزدحمة بالمتناقضات، يميل إلى قسوة نادرة، سريع الغضب والغفران، رقيق العاطفة حنون الطبع؛ تكاد نسمة الهواء تخدش روحه.

ود عبد السلام لو يقبلونه كما هو، بحسناته ومساوئه، لكنهم عجزوا؛ فلم ينتظر أن ينطقها والده ويطالبه بالذهاب بلا عودة، غادر حين أعيته محاولاتهم الخانقة في نصحه، هائمًا على وجهه في حياة صعلكة يعشقها تمامًا كعشقه للموالد؛ تلك العادة التي بدأها السلطان قنصوة وعاودت الظهور بعدما ألغاها العثمانيون. ربما اختفى الترف والبذخ الذي قرأ عنه في كتب التراث والذي تميز به العهد الفاطمي، إلا أن الموالد ظلت تحمل ما يبحث عنه في كل شيء حوله؛ الحرية. ولأنه معدوم المال على الدوام، شعاره الأثير (اصرف ما في الجيب.. يفاجئك الغيب!)؛ أصبح ينشد ليحصل على بضعة قروش تعينه على الطعام والكساء، ثم يجلس أيامًا بلا عمل يمضيها في اللهو داخل عالم المولد الفريد؛ حيث خيام الغوازي تلاصق خيام الذكر والإنشاد، مرتلو القرآن يسير بينهم كتفًا بكتف سارقين ومتحرشين، بائعو البخور والسبح يتشاركون اللقمة مع الحواه ونافخي النار؛ مجتمع مصغر

لحقيقة الدنيا كما يراها بعينيه! يهوى صخبها العاصف، متمرغًا بجنباتها الحشيدة، معصورًا بزحامها المزعج، لا تضايقه روائح البشر المعرقة ودوائر الدخان السابحة في فضاءاتها، كان عاشقًا بمعنى الكلمة لكل شبر فيها وكل مظهر من مظاهرها؛ وسيلة جيدة للهرب من آثامه بمتابعة آثام الآخرين، يطمئن نفسه بأنه ليس وحده في عالمه المرهق، الكثيرون غيره في لجة الصراع، فيمكنه الازدحام من إغراق همومه وحيرته بينهم، ينسيه نفسه، من أين أتى وإلى أين سيذهب؟ لا أسئلة، لا حساب ولا عقاب، فقط أناس يأتون من كل حدب وصوب، تشرق وجوههم بسعادة اللهفة؛ حج أصغر لدى البعض، وما داموا يعجزون عن الاستطاعة سبيلاً نحو الكعبة، فضروح الأولياء قبلتهم، ولا أجمل من مولد السيد البدوي بطنطا يمكنهم من ممارسة نسك التبرك المبتغاة، ناهيك بتوافر الوجه الحسن.

كان عبد السلام يبجل كل ذات رحم، يقدسه، يراه أكثر موضع آمن يخبئ فيه إرهاقات روحه وأحزانه ويواري فيه هزائمه. ينشد ويرتل حتى غروب الشمس، ويتعبد في محراب النساء ليلاً بلا جماح يكبحه. يحصل على من يشاء من فتيات الليل وغوازي الموالد، يلين قلوبهن بجرأته وجموح عاطفته، يغازلهن ببضع شطور من شعر جاهلي وقح حفظه عن ظهر قلب، ربما لا يفهمن معناه، لكن يبهرهن أن رجلاً يتحدث بلغة القرآن يميل إليهن؛ هن الملوثات بلا أمل في الطهارة! فيرتمين أسفل قدميه، ليعثرن فيه على إجابة السؤال الموجع: هل تسع أبواب السماء الجميع كما تسع أبواب الخطأ بشرًا بعدد حبات الرمال؟!

وقف عبد السلام فوق منصة الأرجوحة الخشبية يلف عمامة المشيخة حول سبابته، يتأمل ما حوله ببسمة مرتاحة كمن يتطلع من شرفة قصره! يرتدي عباءة مفتوحة أسفلها قميص مفكوك الأزرار يكشف عن صدر عريض، وبنطال قماشي يحمل مسحة من أناقة ماضية. قضى ساعة في ترتيل جزء من سورة الأعراف التي يعشقها، تلاها بنصف ساعة من الإنشاد بين الجموع السابحة بالذكر، ولا تزال بقايا تعميرة الحشيش

تعشش بخلايا مخه؛ هو سيد ممالك الدخان الأزرق، أسرع من يُجهِز على جمره الملتهب بأنفاسه كومضة البرق! بينه والحشيش علاقة فريدة تحيط عقله برقائق ثلجية تنتشي بها عروقه، تنسل متوغلة أسفل جلده بخدر لذيذ، لتمنحه بعدًا جديدًا برؤية ضبابية تعزله عن الصخب الذي يضيق به ذرعًا أحيانا، فلا يبقى سواه وزرقتها المقدسة، تتمهل الحياة من حوله رغمًا عن أنفها، ويراقصها بإيقاع بطيء وترهف جهازه العصبي حد ولوج برزخ يفصل بين الوجود والغياب؛ يتلمس مواضع في عقله استحال الاقتراب منها قبلاً، تتدفق في صدره بهجة بمزاج سلطاني هو ينبوعها، يتوحد مع خيالاته فيبدع ويتجلى بأسمى اللحظات، حتى يستصرخه (السميعة) بهستيرية، سكارى صوته الرخيم، هاتفين: «الله يا مولانا! أعد يا أعرافي، أعد». وكما يُجهِز العشق على أصحابه في معظم الأحيان، يوقن أن خيوط دخانه الزرقاء ستطبق يومًا ما على عنقه مُجهِزة عليه، لكنه يدرك أيضا أن للوقوف على حافة القمم ثمنًا باهظًا يجب عليه دفعه.

دفع الأرجوحة دون شدة، فارتفعت ضحكة الفتاة ذات الجديلتين والفم المغموس بحلوى المولد الملونة. قفز صوب الأرض وألقى بقرشين في الهواء للمجذوب المقيم صيفًا وشتاء، ليهتف الأخير «مدد يا أعرافي.. مدد»؛ فيما يتعالى مزيج الذكر والطبل والمزمار مع صنوج نحاسية ورباب. شخصت عيناه صوب أنوار المصابيح المعلقة بمسجد السيد البدوي، وحلقات نار يقفز بداخلها أحد الحواة، حين سمع صوتا يناديه؛ التفت ليجد المعلم صاحب المقهى، يلقي له في الهواء ورقة سميكة مطوية، علم أنها تحوي لحم الأضحية المعتادة للسيد البدوي.

ـ لم تنسَ الكبد يا حسان.

جمع المعلم إصبعيه وقبلهما: لحم لوز يا مولانا، والكبد طازج.

لكزت الغازية رفيقتها باسمة بخبث، يتمايل خصرها كقطعة من الملبن على أنغام حاملي الطبل البلدي والمزمار:

ـ عاد الأعرافي يا منتهى!

تجمدت الأخيرة في وقفتها، متلفتة حولها بلهفة، فأشارت صديقتها للأرجوحة الخشبية، لتسارع منتهى في خلع الحزام المزين بشخاليل ذهبية، قائلة: أشعر بالدوار، سأذهب لخيمتي كي أرتاح.

ـ ومن أين لكِ الراحة يا مسكينة وقلبك معلق بين سمائه وأرضه؟

أطلقت منتهى ساقيها للريح، متصنعة عدم الانتباه لجملة رفيقتها التي اخترقت روحها كسهم ناري، صدقت! من أين لها الراحة وهي مكلومة بعشق لا أمل فيه مهما حاربت؟

«إلى متى ترتحل الروح خلفك؟ ردها لصدري يا بن الناس»

كلما لاح طيفه في أفق المولد تهرع كمن تخبطته الشياطين من المس كي تتهيأ لرؤيته، تود كل مرة أن يكون للحظة سحرها حين تقع عيناه عليها، فلا يرى منها سوى كل جميل. أحيانا تتمنى لو يذهب بلا عودة؛ تعبت! انتظاره ألم، وبقاؤه كشمس على وشك المغيب ألم، أما رحيله.. عذاب محتوم. سارعت بالاستحمام، تفرك جسدها بصابونة بنفسج صنعها بنفسه، ناثرة فوق شعرها الفاحم المموج قطرات من زيت اللوز وجوز الهند؛ هديته الأخرى من صنع يديه، ولسان حالها يصرخ: أين المفر؟

سارعت لبائع التوت المستند برأسه على ظهر إحدى خيام الغجر يغط في النوم، تلتقط حباته البنفسجية تلقيها بفمها وتمضغها دون اهتمام بتذوقها، ملقية قطعة معدنية في حجر العجوز، لتعاود الطيران صوب خيمتها فيما تتناول المزيد في أثناء ركضها. لم يتفقا على اللقاء لكن قلبها دومًا خير دليل إليه، فتحت خيمتها وكان هناك، جالسًا على بساطها يتكئ فوق كومة الخيش، سارحًا في ملكوت أفكاره المزدحمة بأمور لا تفقهها، وقطتها السيامي مستكينة في حجره، فهتفت بتغريدة حسون يستقبل الربيع:

ـ عدت يا سي عبده!

التفت نحوها باسمًا: عدت يا غازية. اشتقتك.

خفت وهجها بينما تقترب للجلوس بجانبه: لا أحب هذا النداء منك!

قال نافثًا دخان السيجارة صوب عينيها المكحلتين كعيني ملكة فوق جدران معبد: أتعلمين لم أسموكن بالغوازي يا منتهى؟ لأنكن تهاجمن القلب تمامًا كالغزاة، لا مناص من الوقوع بهوى شباككن والتمرغ فوق شواطئ خصوركن المتمايلة بأمواج الغواية.

ـ أفضل أن أكون حبيبتك منتهى على أن أكون غازية قلبك.

فتح ورقة اللحم وأطعم قطعة من الكبد للقطة، لم تكن واحدة من قطط الشوارع المنتشرة بين جنبات المولد؛ ألقاها حظها العثر حين دفع الفضول سيدتها لاستكشاف عالمهم في إحدى الليالي، هكذا أخبرها نافخ النار حين عثروا عليها وقد دهست قدمها عربة البطاطا. تاهت المسكينة وباتت عرجاء، فأخذتها منتهى لتمرجي المولد ليطببها قدر علمه اليسير، لكن ظل عرجها يؤرق مضجعها حتى ابتكرت لها قدمًا اصطناعية من الخشب ربطتها في فخذها المعتل، وكلما اتسخت أو ذابت أربطتها بدلتها بأخرى، معلقة صلاصل نحاسية حول رقبتها ليسمعها السيارة نهارًا، وتعكس أضواء المصابيح ليلاً فيراها العابرون.

أمسك بخصلة غليظة من شعرها واشتمها بعمق: بانتظاري رغم مرات مجيئي المتفاوتة! ـ تأمل عينيها المعاتبتين ـ (من سناها الشموس تشرق.. لما تبدى وتنجلي الأقمار)، لا تتجهمي.

قالت وقد تبدل عتاب عينيها لحيرة: أنا شمس! قلتَ شموس.

ـ وقمر أيضًا.

ـ قبلني، هيا، قبلني كما اعتدت أن تفعل.

ـ وهل تنتظرينني لقبلاتي؟!

أراحت كفها المنبعثة من رسغه جلجلات الأساور فوق وجنته: ليست القبلة ما أنتظرها يا حبيبي، بل ما تفعله بي القبلة، لا أحد يهتم لفعل كهذا

سواك، قبلتك تنفذ إلى هنا ـ أشارت لصدرها ـ أنت لا تقبل شفتيّ بل تقبل روحي، تطيبها.

أطفأ عقب السيجارة في تراب الأرض، واقترب ملتقمًا بشفتيه حزن شفتيها وتوقهما إليه، يغزو أنفه جيش روائحها الندية بمزيج ما صنعته أنامله، وحين ابتعد عنها كان ذقنها المدموغ برسوم الوشم الأخضر يرتعش بكاء.

ـ إن اقتربت تبكين، وإن ابتعدت تبكين، لمَ يا منتهى؟!

ـ لأن كليهما مر! منذ ألقت بي والدتي في ليلة شؤم وأنا قطعة لحم حمراء في خرابة المولد والجميع يصفني بالمنتهى؛ يقولون حينًا البنت منتهى الصغر، وحينًا منتهى الإزعاج. كبرت واستوى عودي فقالوا منتهى الجمال، منتهى الدلال، لكن لم يقولوا يومًا منتهى الوحدة، منتهى الخوف.

مسح دمعاتها قائلاً بإشفاق: لا يصح بكاء من لقبلاتها طعم التوت!

ابتسمت مقبلة شامة خده: ألا تحب قبلاتي بطعم التوت؟ يوم اقتحمت خيمتي بعد انتهائي من الرقص ودون أن تمنحني فرصة لالتقاط أنفاسي، انقضضت على مقبلاً إياي. تلك القبلة! نسيت كيف تكون في غمرة حياتي الصعبة، حين يربت أحدهم فوق روحي ـ أزاحت خصلة من شعره الفاحم عن جبينه ـ أنت فقط من يشعرني بأني حية بعد عمر قضيته عروسة من قماش، تسير فوق ساقين خشبيتين كساق قطتي بسبوسة. معك اكتشفت امتلاكي قلبًا يمكنه الحب كمخلوقات الله، ألم تخبرني أن مخلوقات الله كلها قادرة على الحب؟

ـ الكون كله خلق بالحب يا منتهى، لو لم يحبنا الله ما خلقنا.

ـ وهل تحبني يا سي عبده، أود أن أسمعها منك ولو كذبًا.

ربت فوق وجنتها كطفلة صغيرة: أنا لا أكذب، لا أجرؤ على إضافة المزيد من الخطايا فوق عاتقي، أجل. أحب فيكِ الكثير من الأشياء مثلما أحب غيرها بسواكِ؛ رقتك وخجلك الذي لا يراه العميان، حنانك وصبرك،

قبلاتك اللذيذة ـ استلقى مشبكًا يديه خلف رأسه ـ ليتني أستطيع الاكتفاء بكِ! ربما لو ظللتُ هناك برفقة حوائي الوحيدة؛ لو لم أرتكب أولى معصياتي بقضم الثمرة الملعونة؛ جعلتني مطرودًا يا منتهى، ملعونًا بالتيه! بعثرتني لملايين الرجال وبعثرتها لملايين النساء ـ عاود جذبها بين ذراعيه ـ وها أنا ما زلت ألملم روح حوائي المبعثرة في تلك الملايين علّي ألملم بعثرتي؛ (وأفنيت عمري بانتظاري وعدها.. وأبليت فيها الدهر وهو جديد)، خبريني سر قبلاتك التوتية يا غازية؟

قالت دون أن تعبأ بمحاولة فك طلاسم حديثه المعقد: كلما وقعت عيناك على التوت ستتذكر قبلاتي، ستشتاق، فتعود.

أمسك ذقنها مداعبًا وشمها الأخضر: وها أنا هنا.

ـ وهذا يكفيني.

ـ إذن هبيني بعضًا من قطاف التوت فوق شفتيكِ، واسمحي لجسدي المرهق الرسو بمرفأ خصرك اللدن.

سألته وهي تميل بدلال على صدره بعد انتهائه من مطارحتها الغرام: كيف لحامل كتاب الله مثلك القيام بهذه الأفعال يا سي عبده؟ لمَ تعجز عن مقاومتي؟ ما أكبر من كلام الله والإنشاد ليعينك على من هن مثلي؟!

نفث دخان سيجارته: بل ما أضعف قلب كقلبي يا غازية! قلب من فخار؛ أقل ضربة فِتنة تصدعه، ادعي لي، عل ربك يستجيب ويهديني.

ـ أنا! وهل تنتظر دعاء خاطئة مثلي؟

ـ أصارع طوال الوقت شيطاني، أهزمه ويهزمني، ودعاء ضعيفة مثلك مغلوبة على أمرها ربما طوق نجاة، ادعي لي.

نهضت تتسع عيناها: أتعني أنه يمكن أن يكون لي نصيب في جنته؟ ولو حتى في أطرافها البعيدة للمنبوذين مثلي؟!

أفلتت ضحكة من بين شفتيه: دخلت امرأة النار في قطة حبستها، فما بالك بأخرى أطعمتها وسقتها، آوتها وداوتها؟ نحن البشر غريبو الأطوار؛ نقسو على أنفسنا ونضيق الخناق على أرواحنا، فنقنط من رحمته بلا وعي

ونحرمها على أنفسنا وغيرنا، متى ملكنا مفاتيح رضاه وسخطه؟! وهو الملك والقاضي، الوحيد من له الحق في المنع والمنح، أطمعي كيفما شئتِ في جنة بعرض السماوات والأرض، تكفي الجميع وزيادة.

قالت محتضنة كفه: إن كان ثمة طريق لرحمته كما تقول ولم يفت الأوان بعد؛ سأكون لك زوجة وإن لم تهتم؛ لا نصيب لهم في جسدي بعد الآن.

ـ والرقص؟

أرخت ناظريها خجلاً: سامحني، لا أستطيع تركه؛ مصدر رزقي الوحيد وأنت دائم الغياب.

قال باسمًا بإشفاق: لم أطالبك بشيء يا منتهى.

* * *

(١٥)

لم يمضِ على وصوله الكثير حتى تسلم دعوة أنيقة من السفارة المصرية، لحضور احتفال رسمي بزيارة الرئيس (مرسي) الأولى لبريطانيا، تلاها اتصال هاتفي يؤكد الدعوة من الدكتور وسام القطان؛ أحد كبار قادة الحزب الحاكم الجديد. دلف راغب القاعة في حلة سهرة سوداء، حريصًا على الظهور بمظهر واثق مسترخ؛ فاستقبله وسام بنفسه مشيرًا لمقعدين وثيرين في دعوة صريحة للانفراد به، أذعن لرغبته وجلس معه في الركن المضاء بمصباح أنيق وضع فوق طاولة مذهبة تفصل بين المقعدين.

«فور اتخاذ خيال المآتة موقعه بحقل الرئاسة، انتشرتم كالنمل الأبيض في مفاصل الدولة، حتى السفارات بالخارج لم تسلم من دبيبكم!»

انتبه من أفكاره على عرض الدكتور وسام عليه علبة سجائره؛ رفع في وجهه سيجاره البني الضخم، ليمد الرجل يده بقداحة خمن أنها من الذهب الخالص، نظرًا لاسم الماركة الشهير المحفور على قاعدتها؛ فانحنى متيحًا للهب القداحة إشعال سيجاره.

قال وسام محركًا حبات مسباح من الفضة برتابة: كنا بانتظارك!

رفع راغب حاجبيه: هل لي أن أعرف ما تعنيه بكنا؟

نفث دخانه واضعًا ساقًا فوق الأخرى: نعلم أنك ستفكر قريبًا في خطوتك القادمة.

ـ وتعلمون بما سأفكر فيه! ماذا أطلق على هذا؟ فراسة أم رجمًا بالغيب؟

مط وسام شفتيه: أنت رجل أعمال، ورجل الأعمال لن يبقى طويلاً بلا أعمال، خاصة أن مصر قد أغلقت أبوابها في وجوهكم إلى أجل غير مسمى. نحن طوق النجاة الذي تحتاج، سنساعدك على مباشرة أعمالك كأن شيئًا لم يكن، بل وربما نخفف عبء القضايا عن كاهل والدك مقابل تبرع صغير، لنقل.. خمسين في المئة من أموالك المهربة.

وضع راغب بدوره ساقًا فوق الأخرى: ألا يكفيكم التمويلات المهولة التي تحصلون عليها غربًا وشرقًا يا دكتور؟!

ـ هي خطوة لمد حبال الود وتأكيد حسن النوايا، خدمة منا على طبق ذهبي لتطهير مالك؛ نحن القادم.. وماضيكم ولّى بلا رجعة.

ـ وإذا رفضت؟

ـ مع كل حجر عثرة سيلقى في طريقك هنا وطريق والدك هناك؛ ستتذكرنا.

ظهر رجل بدا في أواخر الخمسينات بنظارة طبية، بشوش الوجه، يرتدي بنطالاً وقميصًا أنيقًا بلا تكلف.

ـ مساء الخير يا دكتور وسام.

قال وسام في محاولة لتذكره: الأستاذ سعد العـــ... العدوي.

ـ بل الدكتور سعد العميري، التقينا قبل أيام في مؤتمر الاقتصاد بهامبورج في زيارتك الأخيرة لألمانيا.

زفر راغب قائلاً: ألمانيا! لا تضيع ثانية من وقتك يا دكتور وسام.

قال العميري: يحزنني انحصار اهتماماتنا في الحوارات السياسية يا راغب بيه.

نهض راغب يصافحه: لا أظننا التقينا من قبل.

ـ لكني أعرفك جيدًا، ورغم الظروف والملابسات فإنني معجب بنشاطك السابق في مجال السياحة؛ استطعت إحياء الكثير من الأماكن المنسية في مصر بتعاقداتك.

قال وسام: لن ننسى بركات السيد الوالد!

طالعه الدكتور سعد بابتسامة باهتة؛ في كل مرة يسعى لمد يد المساعدة تطيح به رياح العبث واللامبالاة، رافعين أمام وجهه المثل اللزج (ودن من طين وودن من عجين)، ورغم هذا لم يفقد الأمل. رحل عن مصر في عمر الثانية والعشرين بعد حصوله على ليسانس الحقوق بتقدير امتياز؛ حاملاً معين غضب قادرًا على إحراق الأخضر واليابس، في أوج غليان الطموح والبحث عن درب لأحلامه، حتى عثر عليه في غربته؛ أسس بمرور السنوات والحنكة عدة شركات تعددت نشاطاتها بين صناعة الملابس والغذاء، نجحت نجاحًا باهرًا لدرجة حصوله على جائزة غرفة الصناعة والتجارة الألمانية كصاحب أفضل شركة للعام من بين ثلاثين ألف شركة! تسلم الجائزة في احتفال ضخم، تجول أنظاره بين الحضور في حسرة؛ مصر ندبة في وجدانه تعجزه عن تذوق النجاح، يؤمن بأن اللوحة لن تكتمل سوى برتوش يضعها وطنه فوق ملامح إنجازاته. يا لها من خسارة حين ينهل العالم بنهم من علمه وفكره، بينما وطنه يرفل في ظلام جهل وخسارات متوالية! يستمعون إليه لحظات بنصف عقل، ثم يتناسون كل شيء بشأنه، ليته قادر على النسيان مثلهم! لما عاش ممزعًا بين ضمير يقظ وحلم بأرض لا تكترث له، مكتفية بشعاراتها الجوفاء.

ـ بصرف النظر يا دكتور وسام، البلد بحاجة للعمل، للحراك الذي سيمكنها من تخطي عقبات ستؤدى للانهيار.

ارتفعت زاوية فم وسام: أجل، تذكرت لقاءنا القصير يا أستاذ سعد، أظنك أردت الحديث عن مشروع يخص زراعة حديقة تقريبًا؟

ـ بل الزهور يا دكتور وسام، بالمناسبة أنا حاصل على دكتوراه في

الديون الخارجية لدول العالم الثالث، كما أنني مؤسس الجالية المصرية في هامبورج، ورئيس جمعية رجال الأعمال المصريين في ألمانيا.

قال راغب: تقول بأنك حزين لصب الاهتمام على الحوارات السياسية.

ـ نملك من الإمكانيات والموقع ما يجعلنا دولة متقدمة ومنتجة، في رأيي هم يتجهون لطريق خاطئ ـ التفت موجهًا حديثه لوسام ـ الاستقرار الذي تتشدقون به لن يتحقق إلا بالنهوض اقتصاديًا، لماذا لا نمتلك حوارات اقتصادية كما نمتلك هذا الكم من الحوارات السياسية المترهلة؟ كان النظام القديم مستمعًا جيدًا لاقتراحاتي ومشروعاتي لكن بلا جدية في التنفيذ، فلا تكونوا مثلهم.

ـ أرى حديثك مليئًا بالمرارة يا دكتور سعد.

ـ سئمت عدم اكتراثهم يا راغب بيه؛ خذ مثالاً، المشروع الذي أسعى جاهدًا لتنفيذه منذ سنوات؛ مئتا ألف فدان غرب المنيا، موقع رائع والمياه الجوفية قريبة وممتازة لإقامة مزرعة زهور زينة، تقام على صداها معارض دولية ومهرجانات كل عام لإنتاجنا تنعش السياحة، مناحل عسل ومصانع لتصنيع العطور والزهور المجففة، نطبع فوق عبواتها صورة لسيدة فرعونية؛ هذه الصورة موضوعة في الخارج على مداخل أكبر مصانع العطور وأدوات التجميل! نحن الأصل يا سادة.

قال راغب باستحسان: تبدو رؤيتك جيدة جدًا! ولا أدري حقـــ...

قاطعه وسام بنفاد صبر: أعتقد يا دكتور عميري أن الوقت غير ملائم لطرح أفكارك، أعدك بأن يكون لنا حديث آخر أكثر استفاضة.

زفر سعد بسخرية: بالطبع، لا مشكلة يا دكتور وسام ـ أخرج إحدى بطاقاته ـ سأنتظر اتصالك قبل عودتك للقاهرة لنتباحث، وسأعطيك كامل الملفات الخاصة بالمشروع لتوصيلها للمستشار الاقتصادي.

رد وسام بابتسامة صفراء: أعدك يا دكتور، والآن، استمتع بالحفل وانس العمل قليلاً، ساعة لقلبك وساعة لربك يا أخي!

ألقى وسام البطاقة فوق الطاولة الصغيرة بين المقعدين فور مغادرة سعد العميري، والتفت لراغب: أين كنا يا راغب بيه؟ أجل تذكرت. كنت بانتظار ردك الأخير.

ـ لا أظن أن العرض يروقني يا دكتور، لكن أعدك أن أقتله تفكيرًا.

ـ إذن انتبه، فكل دقيقة تأخير ستُتَرجم لسوء النوايا. بإذنك.

تناول راغب بطاقة الدكتور سعد العميري بعد مغادرة وسام ووضعها في حافظته، فيما جذب ناظريه دخول دياب القاعة؛ حفلات السفارة تجمع معظم الأطياف السياسية في المنطقة، فها هم أعضاء حزب العدالة منهمكين في حوارات طويلة مع إنجليزيين وأمريكيين وعرب، يسعون لبناء علاقات قوية مع جيرانهم في الشرق وحلفائهم في الغرب. لمح دياب بعد قليل يقف قرب حسناء سمراء التقاها عدة مرات في حفلات قبل سنوات تدعى ماليكا؛ كانت إحدى موظفات السفارة المغربية وواحدة من أعضاء رابطة يهود المهجر، انحنى دياب يهمس في أذنها بشيء ما، واضعًا يده خلف ظهرها فيما تتسلل أصابعه أسفل خط ثوبها العاري؛ فاستنتج راغب أن ما بينهما من حميمية تسمح له بحركة جريئة كهذه وسط الجمع. يبدو أن صلات زوج شقيقته أصبحت متشعبة كالشرايين في جسد لندن، خاصة أن خطواته الغامضة باتت مثار حديث الكثيرين.

سألها دياب محدقًا بالجعران المتدلي من سلسلة فضية بين خط نهديها: لماذا ترفضين بيعي الجعران يا كوكو؟

ضحكت مختطفة كأس شراب فوار من فوق صينية أنيقة يدور بها أحد الندل: أخبرتك أنها لك بشرط تسليمها في مصر، سأعلقها حول رقبتك عند سفح الهرم.

ـ من الواضح أنها ثمينة، أهي أصلية؟

ـ نصيحة مني انفض القلادة عن أفكارك؛ فلا قدرة لك على مجابهة سلاطينها يا مسكين! سيلتهمون روحك حيًا، وابتعد عني قليلاً، لا نريد لفت الأنظار.

ـ وأنتِ تملكين قدرة على المجابهة؟

حركت أصابعها بسخرية، قائلة: أنا مشعوذة!

أشار له أحد الرجال الملتحين في ركن القاعة، فاستأذنها: الـعمل ينادي.

لوح الرجل مرحبًا: تعالَ يا دياب، الشيخ شعبان يسأل عنك، حدثته كثيرًا عن قدراتك الرائعة في تصريف الأمور.

ـ أنا تحت أمر الشيخ وكل شيوخنا الأجلاء، فلتأمرني.

صافحه المدعو شعبان بحرارة: الأمر لله، بلغني أنك قادر على نقل الـ... ـ تلفت حوله ـ المساخيط الجديدة من قريتنا إلى لندن، لن أسألك عن التفاصيل، لكن ما يخصني هو معرفة الوقت والأتعاب.

كان يُسعِد دياب دومًا تساقط جلودهم الكالحة أمام عينيه، لتتجلى عقولهم المعتقة في ظلام الغباء والجهل؛ لا وجود له إلا بهم! يسمونها مساخيط، ثم يفتون بأن من الواجب شرعًا تحطيمها، ويعدِّل أحد جهابذتهم الفتوى بأن البيع أيضا حلال؛ فيثبتون أنه الوحيد المحق؛ الجحيم يوم القيامة، وجحيم الأرض نصنعه بأيدينا متى تتحكم فينا شهواتنا ورغباتنا أسفل وطأة نفسونا الواهنة! هو أفضل منهم جميعًا، يتصالح مع نفسه كفاية ليعترف بقذارته، على عكسهم، يعشقون تلوين سوادهم مرة بالدين وأخرى بارتداء ثوب من المبادئ الوهمية، ليظل الجميع عرايا أمام عينيه مستمتعًا بتفرس عوراتهم القبيحة، ثم الانفجار في الضحك عليها حتى يقع على قفاه.

قال دياب: لن نختلف يا شيخ؛ اطمئن.

ـ لولا أن الدولة لا تقر بأنها حق لمن يعثر عليها ما اضطررنا لهذه الأساليب الملتوية ـ رفع كفه ـ هي رزق حلال من عند الله يصطفي من عباده من يشاء ليمنحها له، بالطبع كنت أفضل إذابتها وتحويلها لكتل من الذهب لولا أن قيمتها ستقل، ويعلم الله مدى ضيقي من الأمر لكن ما باليد حيلة.

قال دياب باسمًا: اللهم قوِّ إيمانك يا شيخ.

لمح راغب من بعيد يقف مع ماليكا؛ فرفع كأسه له بالتحية.

قالت ماليكا: لم ينقص السجن من طولك الفارع شيئًا! ما زلتَ وسيمًا كالشيطان يا راغب؛ هل تواكب الموجة باللحية والشارب؟

ـ يبدو أنك نسيتِ أن الموج من يواكبني على الدوام وليس العكس.

ـ لم تتغير! ربما أكسبك طعام الفنادق وقلة الحركة بعض الوزن؛ صدمت لسجنك.

ـ الجميع مصدوم داخل الأسوار وخارجها.

رفعت حاجبيها دهشة: داخل الأسوار؟ ألم يتوقعوا أمرًا كهذا؟!

قال بسخرية: الاعتياد أمر خطير يا عزيزتي؛ يُكسِبك حالة من الأحقية واليقين، اعتادوا على النهل (مُولد وصاحبه غائب)؛ وحراسه لاهون في التقاط الثمار. تنتزعين منهم ذاك الاعتياد، إذن هو حقهم المسلوب! كيف تجرئين؟ أتعلمين ما يشبه الجلوس للمرة الأولى على مقعد سلطوي؟ هو كالشمة الأولى من الهيروين؛ تنعش خلايا المخ بانتشاء يقظ لكل نبضة متعة. دفقات من سعادة مع كل أمر ينفذ على أكمل وجه، شعور لذيذ، وتتوالى المرات فيتوغل هيروين السلطة في العروق مستوطنًا الخلايا، امنعي الجرعة؛ يجن الجسد مطالبًا بحقه في الانتشاء واللذة.

ـ معك حق؛ انظر حولنا لتعرف آثار الشمة الأولى على الوجوه، الانتشاء يسري في عروقهم كالسحر! مأساة بلادنا العربية رخاوة القوانين ـ أردفت ساخرة ـ يقولون إن دولة الظلم ساعة ودولة الحق كل ساعة.

ـ حمقى يا عزيزتي. دولة الحق بحاجة للقوة والحكمة؛ وكما يقال، عبثًا يحاولون القضاء على الناموس دون تجفيف للمستنقعات، لا يدركون أن الناموس ليس فصيلاً واحدًا، مئات الأنواع ستعيش على ذات المستنقع.

ـ وأيهما أنت يا راغب؟ الناموس أم المستنقع!

ـ أنا طرف رابع، دائم الحوم والتلون تبعًا لمصالحي؛ ولا استغناء عني.

ضحكت قائلة: ومن الثالث يا ترى؟

ـ القابع دومًا في الظل؛ يظهر فقط في الوقت الذي يناسبه.

ـ تدهشني صراحتك!

ـ صراحتي ووقاحتي ألذ صفاتي، تعلمين هذا، أم أن دياب أنساكِ؟

ـ لا أحد يجرؤ على العبث بذاكرتي.

مرر طرف سبابته على ذراعها بكسل: وإن جرؤ! من المستحيل العبث بركني الخاص فيها يا حلوة، وبالأخص أسفل لافتتي المنتصبة بجملة (مر من هنا).

* * *

(١٦)

كم طال النهار على صالح كألف عام مما يعدون. قبلاً لم يكن ليهتم، لا فرق بين ليل ونهار، لكنها أتت! أبية أتت ممتطية الصعاب، ضمرت ملامح جسدها زهدًا في الطعام، وقد تخلت عن تاج رأسها وأنوثتها الغضة لأجله؛ فبات اختلاس النظرات إليها كل حين متعة وسط القحط، كشربة ماء بارد بفم العطش.

جلس حماد ومهدي ليلاً غير بعيدين كعين حارسة بعد اطلاعهما على السر ومعاونة صالح على وضع حاجز قماشي داخل الخيمة بينهما، وقد ساعداه في صنع حفرة عميقة بعيدًا عن الأعين تستخدمها أبية لقضاء حاجتها في الليل. طمأنهما حماد بقربه لحمايتهما إن لزم الأمر، وحثهما مهدي على ألا يقلقا كثيرًا لافتضاح أمرهما؛ عمال الحفر بالآلاف كجحافل النمل؛ ولن ينتبه الملاحظون لنملة بينهم تدعى (أُبَي) يعاني بعضًا من غرابة الأطوار.

لامس صالح ندبة ذقنها الغائرة هامسًا في جوف صحرائهم المعتمة مترامية الأطراف: أحرقتِ وجهك! كيف تقومين بذلك الفعل الجنوني وتأتين إلى هذا المرار الطافح؟!

ـ يهون كلي لأجل قربك يا نضري.

ـ طحنتني الأيام ولم يبقَ مني سوى قشر يابس يذروه اليأس.. لن تحتملي!

ـ أنا باقية منك يا حبيب فلا تحزن وقر عينًا، لا تسمح للريح بإحناء ظهرك ـ تطلعت نحو شاهد القبر ـ أترقدون هنا قرب اللحود؟

ـ فقط مصيلحي لئلا يشعر بالوحدة. لكن كيف علمتِ بمكاني وسط جهنم هذه؟

ـ طالبت رئيس القافلة بالتحري عن اسمك ومكان عملك قبل مجيئي، منحته خلخالي البندقي فكفاه لينفذ كل ما أطلبه، وحين علم بمكانك أحضرني إليك. هي المرة الأولى التي يتم فيها تحميل الجرار في هذا الموقع، حتى إنه كان متوجسًا من الأمر في البداية لكني أصررت فأذعن. طالبته أيضا أن يدعي خرسي لئلا يكلمني مخلوق ـ أخرجت من حزام عريض أسفل ملابسها حبتي ثوم مقشر ووضعتهما في فمه ـ من الآن فصاعدًا علينا تناول الثوم كل صباح. أتيت بما يكفينا؛ واتتنا الأخبار بشأن العلل هنا فسألت أمي المشورة وعطار القرية؛ أخبراني أن الثوم الوسيلة الوحيدة لدرء المرض ـ تلفتت حولها بريبة ثم أخرجت قربة صغيرة من جلبابها الداخلي ـ أحضرت أيضا بعض العسل؛ أشارت عليّ به المرأة في أحلامي، ربما لن تصدقني لكنها فعلت! قالت سيطفئ النار.

ـ الحمل ثقيل عليكِ.

لم يستنكر تصريحها الأحمق بشأن أحلامها، لكن من كان ليصدق جنونها بلا جدال سواه؟ رجل ترحل خلفه حتى حدود الشمس بلا تفكير، يتممها حضوره بدرًا مضيئًا بالحياة، وينقصها غيابه مستحيلة لمحاق يوشك على التلاشي. تطلعت لعينيه اللتين أرهقهما الفراق بحنان جارف لم تجرؤ معه على إضافة ثقل فوق عاتقه بإخباره ما جرى من العمدة بعد رحيله؛ انتزع (الضلالي) الأرض بعدما شبت الأشجار واستوت الثمار مثقلة بالشهد فوق الفروع، لم تملك وعائلتها من أمرهم شيئًا أمام جبروته، كانت الخطة شديدة الإحكام؛ يتخلص من صالح بلا رجعة؛ عقبته الوحيدة، فيخلو له

وجه الأرض، وقد فرغت بندقية والدها سريعًا من الرصاصتين اليتيمتين بعد تلاشي دويهما أمام زخات بنادق الغفر وعساكر الدرك زائري الليل، مستقرة إحداها في قلب والدته المسكينة! كان من المستحيل أن تسمح بوصول خبر وفاتها إليه هنا وحيدًا، لكنها اضطرت مجددًا للصمت والكتمان، لا تملك القوة بعد على إخباره. ابتسمت رغم الهم باسطة كفيها:

ـ ومن تظنه راعى الأرض وأشجار المانجو في غيابك يا نضري؟ يدان حرثتا وبذرتا وروتا؛ قادرتان على تحريك الجبال. وكما استطعت وحدك الصمود هنا، وكما صمدت أنا هناك، سننجح معًا في عبور سواد الأيام. الله معنا.

ربما لم يمكنها فعل الكثير، لكن وجودها كان كافيًا لدفع دفقات التشبث بالحياة في عروقه الموشكة على الاستسلام، ورغم عجزه عن حمايتها عدة مرات جففت دماءهما في العروق، حمد الله على سترهما.

صرخ عزب مستنكرًا الجعران الذي لاح من فتحة جلبابها، ومد يده ممزعًا السلسلة ليستقر في قبضته، وتنكمش أبية تلملم أطراف الجلباب.

ـ تتشبه بالنسوة؟ الأرض هنا للرجال لا المخنثين.

هم صالح بمهاجمته فأمسك مهدي ذراعه مطلقًا ضحكة مرتبكة: رويدك يا حضرة الباشجاويش، (الواد غلبان) تعلم أنه أخرس.

تطلع عزب نحو صالح بازدراء: لهذا الأخرس حال غريبة! أراه دائم الالتصاق بك ـ زفر بسخرية ـ ماذا؟ هل تفضل الغلمان؟

انطلق يقهقه بفجور ووضع الحجر في جيب سترته، فسارع حماد هاتفًا قبل أن ينقض عليه صالح ممزقًا قصبته الهوائية: هل أجد معك ورقة بفرة يا حضرة الباشجاويش؟

ـ وهل تملك تبغًا يا تعيس؟

ـ سأقترض بعضه منك.

فرقع سوطه في الهواء: كفى (مرقعة) وليعد كل منكم لعمله. هيا.

دفعه مهدي قائلاً: هدئ من روعك يا أخوي، احمد الله على أن الأمر وقف عند هذا ولم يكتشف السر.

تنفست أبية الصعداء، تومئ برأسها تطمئنه، وعاودت الإمساك بفأسها.

ـ لم أعد أحتمل يا مهدي، وددت لو أمزقه إربًا بأسناني.

ـ لا تنسَ يا صاحبي أن سلامتها من سلامتك فإصبـــ...

زلزلت الأرض تحت أقدامهم بغتة بانهيار أرضي، فجذبه مهدي بعيدًا، بينما همت أبية بالركض نحوه إلا أنها عدلت عن تهور سيثير القيل والقال، تتلوى أصابع قدميها غرزًا في الرمال، مخرسة صرخاتها الملتاعه بكفها الخشنة فيما تبتلع الرمال حماد! غاب غارقًا في صمته، لم يصرخ مطالبًا بإنقاذه، لم يناد صالح أو أيا من رفاقه، استسلم لقدر رفض قبلاً معاندته، ابتلعته الرمال ليلحق بالغائبين من ملح الأرض، لكنها لم تكن الصدمة الأخيرة في واقعهم المزري، وقد ظهر وحش جديد بعدها بأيام مفترسًا المزيد؛ كان صالح ومهدي حينها يجرفان طبقة جديدة من الأرض، وإلى جانبهما تقف أبية، تحمل الرمل في قُفة لتنقله على ظهر حمار إلى مكانه المخصص، حين صرخ مهدي بلوعة صرخة شجت عنان السماء، ممسكًا برأسه كأن تنينًا نفخ ناره في وجهه، جذبت أبية صالح بعيدًا فورما لمحت ما جرى لمهدي، ومثلما فعلت فعل الكثيرون؛ اعتادوا الركض كلما سمعوا صرخة مستغيث من كارثة، مبتعدين قدر استطاعتهم تفاديًا للإصابات؛ كان الهروب وسيلتهم الوحيدة للنجاة. صرخ صالح كالنسوة باكيًا رفيقًا كبل معه بالحبال وتقاسما الرشفات الأخيرة من القلة.

ـ مهدي! لا تبتلعيه يا أرض الشياطين، يا رب، أين أنت؟ لمَ تركتنا؟

أمسكت أبية بذراعيه تمنعه من الاقتراب خوفًا عليه، ونزولاً على أوامر الملاحظين ورؤساء العمال. انفتحت فجوة من جهنم، لم تبلع الأرض هذه المرة، بل أحرقت! كانت ملامح المسكين وغيره تذوب أمام أعينهم الذاهلة؛ ارتعدت فرائصها تطالع من حولهم يتلوون كمن مسهم طائف من الشيطان؛ هي النار التي خبرتها بها عرافة الحلم! لحظة لم تتعدَ بضع

ثوان طفحت فيها الأرض لهيبًا مُصيبة الآلاف، وكما قال حماد يومًا: تعددت السبل والموت واحد! كانت المادة البيضاء برائحة الثوم كامنة بطين الأرض كالعقارب بالثقوب، وحين تقلبت التربة أسفل المعاول خرجت للهواء ملهبة أجسادهم، هيجت شعبهم الهوائية بسعال اهترأت له رئاتهم الواهنة، تلتهم لحومهم حتى العظام، وتقطع أفواههم بجروح عميقة مكسرة فكاكهم، ترسل صرخاتهم المعذبة في فضاء الصحراء، ومع قلة الإمكانيات وانعدام الإسعافات اللازمة، سقط المزيد منهم بلا ثمن!

حين هبط ليل الأرض جاثمًا فوق النفوس، امتزجت آهات الغلابة المكلومين في أجسادهم وعواء الذئاب، كانت الأمراض قبلاً تُذهِب وعيهم بالحمى فتعفيهم الأوجاع، لكن هذه المرة كان وعيهم متيقظا، مدركين كل لحظة يمرون بها من عذاب، فيما جلس صالح قرب رأس مهدي الذي تنازعته الآلام وقد قاربت ملامحه على التلاشي.

ـ أفق يا مهدي، لا تتركنا وحدنا يا صاحبي.

بللت أبية خرقة قطعتها من طرف جلباب صالح ببعض قطرات الماء، تمسح جبهة مهدي ودموعها تنساب في صمت، ومهدي يغمغم بالنوبية: امبيس اتا كنـ..كنـارة، امبيـ... امبيس اتـــ

هتف صالح بلوعة: لست بفاهم يا مهدي، لست بفاهم.

أشار مهدي صوب كنارته، فأتاه بها: خذها يا أخي، علـــ.. علمتك كيف تداعـــ...تداعبها، كن.. كن حريصًا عليها يا أخي فهى غالية.

ـ توقف عن الحديث لترتاح.

ـ لا، سأخبره بما فعلوه بنا ـ قطع حديثه متأوهًا ـ يا رب، يـــ.. رب.

صرخ صالح بلوعة: لكنه يرانا ويعرف كل شيء، يرانا يا مهدي! كنا أكثر منهم عددًا وصمتنا، لم نسحقهم بمعاولنا الصدئة كنفوسهم، تركنا لأننا تركنا أنفسنا يا أخوي، تركنا أنفسنا يا مهدي.

جلست أبية عند قدمي صالح منتحبة، تساقط فوق جروح قدمه ووجهه

المحترق جراء تطاير الطين اللاهب قطيرات عسل، تهتف من بين نشيجها البائس: هون عليك يا صالح، يا رب لا تكلنا لغيرك وأنت العليم.

أطبق مهدي بجلد يده المهترئ فوق الكنارة: لا تتـــــ.. لا تتوقف عن الغناء، املأ بيتك به، لا يزور الحزن بيـــ... بيتًا.. يغني.

أسلم مهدي الروح بين يديه لتصعد برفقة الكثيرين تلك الليلة، مشيعًا مظلمته للملأ الأعلى كما وعد، لكن العدل لا يتأتى بمظلمة، العدل يُنتَزع من براثن الظالمين انتزاعا، وفيما لم يملكوا قوة تعينهم على نزعه، سارت بهم الأيام على منوالها حتى اليوم الأخير؛ حين غمرت المياه الأخدود الطويل قبل حفل الافتتاح، حاقنة شريان الأرض أخيرا بالحياة.

وقف صالح على الشاطئ الوليد، تمر أمام ناظريه وأبية زوارق تحمل رجالاً يحدوهم الأمل في غد جديد، اختفت أدوات الحفر والحبال والقفف؛ بسطت الأرض ومهدت محتضنة رفات حافريها، علقت زينات وإعلام ملونة مبهجة للناظرين، كما أقيمت مقصورة ضخمة قيل إنها ستحمل ملوكًا ورؤساء قادمين من بلاد بعيدة لحضور الحفل المرتقب.

أمسكت أبية بذراع صالح وعيناها تجوبان أنحاء المكان الفسيح: لم لا نزال هنا ولم نرحل مع الفوج الأخير الذين عادوا لديارهم؟

استنشق الهواء المالح بعمق: لن نعود يا أبية، هنا موطننا الجديد.

ـ ولكن.. ماذا بشأن جبل الطير وأهلنا هناك؟!

ـ هذه الأرض سفحت دموعنا ودماءنا، احتضنت رفات أصحابي وابتلعت عظامهم؛ من أعانونا وحفظوا سرنا.. لن أتركهم وحدهم في الغربة. أكاد أرى وجه حماد الباسم فوق تلك الموجة هناك، وأسمع صوت مهدي وكنارته يعلو فوق صوت المدافع الاحتفالية التي يطلقونها كل حين. نسيانهم محال، هو القدر! ستضرب جذورنا في أرض جديدة، وينبت سلسالنا على شاطئ القناة، لن أترك صحبتي.

أدركت أبية رغم كل شيء أنها لن تحتمل المزيد من الصراع؛ بذلا هنا

كل ما يملكان من قدرة على الصمود، وقد عاشا مئات الليالي المرعبة خشية افتضاح حقيقتها. كم كانت معاناة البقاء هنا قاسية! وعودتهما ستكون بمثابة إشعال حرب جديدة تحتمل خسارات فادحة. البقاء أكثر أمانًا، والأرض الجديدة تحمل وعودًا ومستقبلاً، لذا تشجيعه على مخططه أسلم.

اقترب أبحمد يسير الهوينى عاقدًا ذراعيه خلف ظهره باسمًا، يرقب مظاهر الاستعداد للاحتفال بقسمات مسترخية كمن استبدل وجهه.

ـ ساعات وتنتهي غربتي وينقطع كابوسي.

ـ أريد منك خدمة يا حضرة الأونباشى.

ـ اؤمر يا صالح، أنا اليوم على استعداد لتلبية رغبات الجميع.

ـ أريد عشرين بذرة مانجو.

ـ تريد البذور لا الفاكهة!

ـ أجل، سنزرع هنا أشجارها لتظلل أرواح الأصدقاء والصحبة الطيبة، جئنا لنبقى.. هنا موطننا الجديد!

دُهشَ أبحمد موجهًا حديثه لأبية: أتبقين بعد كل ما لاقيتِه من عذاب؟ وأنتِ صاحبة أعجب حكاية رأيتها في حياتي!

تشبثت بذراع زوجها حين رأت عزب يمتطي حمارًا يحمله صوب محطة عودته للمدينة، يحدجهم بسخرية ملوحًا بالجعران، فيما عض صالح على أسنانه وكور قبضتيه، لتربت أبية فوق زنده، قائلة: لا أبارح تراب قدمي صالح وإن مُنحت ملء الأرض ذهبًا ـ طالعته بحنان ـ أجل يا نضري، هنا موطننا الجديد.

* * *

(١٧)

ـ باقة الليلة.

قالها ماكلين حارس المسرح بحماس، فأمسكت زاد برأسها منتحبة؛ لأسبوعين يرسل باقاته! امتلأ صندوق القمامة خلف المسرح بالورود الذابلة، تشفق عليها لكن ماذا تفعل؟ لو احتفظت بجميعها لاختنقوا من نقص الأكسجين. عساها تحظى بمتنفس للسلام في إجازتها المنتظرة لثلاثة أسابيع! لكن أي سلام وهي لا تملك ضمانات للبقاء؟

«على مذبحة الزهور هذه أن تنتهي»

لم تكن يومًا ممن يفضلون باقات الزهر، تبدو لها كالجثث المتراصة، سويعات وتذبل فاقدة بهجتها، مستسلمة للموت عنوة. طالعت بطاقاته الأنيقة التي تعلنها صراحة (ما زلت بالانتظار.. ما زلت بالانتظار)! لا يملك في قاموسه كلمة ملل، ألا تؤلمه محفظته لفرط إسرافه ومصير نقوده المحتوم إلى صندوق القمامة؟ ألا ييأس؟ ماذا تفعل أكثر مما فعلت؟ تتنكر كل ليلة في معطف والدها، تواري معالم جسدها، مخفية وجهها بوشاح كاللصوص. ومع كل رسالة شفهية يرسلها بواسطة ماكلين الذي بات

حارس رغباته الأمين؛ إعلان أشد إصرارًا مما قبله! يسرق أمانها وهدأة نفسها الشحيحة، فتوشك على البكاء توسلاً كي يعتقها من هوسه. تعترف أنه وسيم وجذاب، لكن ليس لها، وبالأخص ليس الآن، ربما لو ظهر في وقت آخر لاختلفت الحال!

انفتح باب غرفتها بغتة وظهر شبح أفكارها المخيف، يسير بخيلاء واضعًا إحدى يديه خلف ظهره: منحتك وقتًا كافيًا ميليت!

ـ إنـــ.. ـ أوشكت على التفوه بالعربية وسرعان ما استدركت خطأها بأول كلمة خطرت لها ـ engagement..en!

ـ الوقت ما زال مبكرا على الخطبة! بحق الله يا فتاة لم أحصل حتى على قبلة.

ـ يا لك من وقح! كيف تجرؤ على الدخول كالإعصار بلا استئذان، عنيت بأني مخطوبة سيد راجيب.. مخطوبة، اقبل الرفض من فضلك وأعفني هوسك وإلا أبلغت الشرطة، سأخبرهم أنك من المتربصين.

ـ أولا: تجمع الفاتنات على أن وقاحتي ألذ صفاتي، ثانيًا: أبلغي من تشائين، أحمل الجنسية البريطانية؛ وستكون كلمتي مقابل كلمتك، ثالثًا: أنتِ كاذبة، معلوماتي أنكِ لا تملكين حتى صديقًا!

لانت ملامحها المتشنجة: سيد راجيب، أنت جينتلمان، ليس من التهذيب مطاردتك امرأة ترفضك، ولستُ امرأة تؤثر فيها باقات الزهـــ

ـ انظري ماذا أحضرت لكِ؟

أخرج يده من وراء ظهره تُمسِك بشيء غُلِف بقطعة من الساتان الذهبي: لاحظت بالفعل أن الزهور لا تستهويكِ رغم تحفظي؛ فلا أرق ولا أجمل منها. على أي حال، أظنني أملك شيئًا يخصك.

انتابها فضول دفنته أسفل السخرية: وما الذي كنت أملكه بهذا الحجـ..

قطعت حديثها حين حل الرباط مخرجًا كرة بلورية، هزها بلطف فسبحت داخلها ذرات فضية وبيضاء كثلوج متساقطة. لم يكن هذا ما أدهشها، بل

ريشة وضعت فوق قاعدة ذهبية في المنتصف داخل فقاعة زجاجية.

قال بابتسامة ماكرة: حرصت على أن تستعيدي ريشتك؛ طيرتِها فوق بنطالي ليلة العرض قبل أسابيع. كيف ستعاودين الطيران بريشة ناقصة؟

أربكها تصرفه رغم جهله بالحقيقة؛ ريش العالم كله لن يفلح في استعادتها القدرة على الطيران!

ـ أنت! اســ.. اسمع يا سيد راجيب..

لم يشأ إفلات فرصة انهيار جزء من ثباتها فسارع بالهجوم: بل اسمعي أنتِ، لا تفوتي على نفسك وعليّ الأمر ميلي! لا تعلمين ما يمكنني فعله لإسعادك، كل ما أريده فرصة فامنحيني إياها.

لا يدري لم بدا صدى الجملة مألوفًا لأذنيه، تساءل لجزء من الثانية أين سمعها من قبل؟ أو بالأحرى متى تفوه بها؟ ربما سر انجذابه الغريب لميليت أنها تذكره قليلاً بالحالة التي مر بها من قبل مع قسمت ذو الفقار! الوحيدة التي اختبر معها السعي بكل جوارحه للحصول على امرأة كهاجس مُلِح. لا يرى نفسه هبة الله للنساء رغم استشعاره مبكرًا لوسامته التي رأى تأثيرها في أعين النساء وتقطيبات الرجال، لكن غبي من يظن أن الوسامة هي مفتاح اللغز، البراعة الحقيقية هي براعة اللغة المستخدمة في التعامل، المهارة في العثور على نقطة ضعف ينهار أمامها الحصن ليأتي كل شيء بعدها سهلاً. ما بال قسمت تقفز أمام عينيه كثيرًا هذه الأيام؟ لن يكذب على نفسه، لم ينسها ليتذكرها! عاشر بعد انفصالهما النساء بهستيرية كرسام يلطخ لوحته بكل ألوان الطلاء تخلصًا من خطوط قديمة، ربما من الحماقة البحث عن السلوى في أخريات، لكنه الاحتياج اللعين!

فتحت باب الغرفة بعجرفة: لا أسمح برفع الكلفة بيننا، كما أني في غنى عن أي علاقة تربطني بك.. وداعًا!

تمتم بالعربية: أعشق الطرق الوعرة ـ تابع بالإنجليزية وبنبرة مسرحية ساخرة ـ إذن هي الحرب بيننا وكل شيء فيها متاح.. تمامًا كالحب!

أشاحت بارتباك عاجزة عن مواراة انفعالاتها أو نزع عينيها عن الكرة البلورية على طاولة الزينة. ضربتها هديته في الصميم! تنعزل الريشة في قوقعة وحدتها بعيدًا عن صخب الحياة والحاجز غير مرئي. انتزعها دخول دايفيد من الباب الذي تركه راغب مواربًا: ما رأيك في دعوة على العشاء؟

ردت بنبرة ضجرة صارمة: تعلم موقفي إزاء الدعوات دايف!

ـ تعلمين مدى إعجابي بكِ.

ـ تمامًا كما أعلم مدى إعجابك بكل soloist مرت على الفرقة.

ـ أرى أن العربي الهمجي عثر على ثغرة للمرور ميليت!

ـ دايف يا عزيزي، كم من همج عجزت ملكة إبداعهم عن تهذيب أرواحهم!

تجاهلته ممسكة بالكرة البلورية ترجها في شرود، تتابع ذرات الثلج السابحة حول الريشة تعكس الضوء كغبار جنية. ألقت نظرة على المرآة فلمحت جذور شعرها الأسود؛ سيتعين عليها خلال أيام زيارة صالون التجميل للمرة الألف كي تخفي هويته، لا تدري لأي مدى سيحتمل رأسها تلك المواد الكيميائية قبل أن ينهار! تلفتت من حولها لتفاجأ بالغرفة خالية؛ غادر دايفيد ملقيًا باقة الزهر الجديدة على الأرض فأعادتها لموضعها. أزالت الأصباغ عن وجهها، ووضعت الكرة في حقيبة كتفها، ثم لفت الوشاح حول رقبتها، وارتدت القبعة الفرنسية مُغادِرة.

أحكمت المعطف حول جسدها المرتجف؛ قارب الموسم الذي يدعونه الخريف على الانتهاء، رغم ما يحمله من ملامح شتاء متوعد لا يتوانى عن الإفصاح عن نفسه بسفور! رافقها القلق ورياح مثلجة تدفعها على مهل عكس وجهتها. تذكرت سؤال كلوديا إن كانت تنوي الاشتراك في المسابقة التي أعلنتها فرقة لندن الملكية للبالية، لاختيار واحدة من العرائس في عرض كسارة البندق؛ فرصة انتظرتها طويلاً، حلم العمل مع فرقة محترفة لها اسم معروف على مستوى العالم، خاصة أنها موقنة

باستحقاقها. لم يبقَ على موعد انتهاء البعثة سوى أسبوع وعليها أن تحسم أمرها. الكثير من الأمور على المحك! بات الحصول على الجنسية أمرًا بالغ الصعوبة لتكرار عمليات الهجرة غير الشرعية، والزيجات الوهمية بين الساعين للحصول عليها والبريطانيات، والأنكى تلك التفجيرات في الدول المجاورة التي تشير لعاصفة إرهابية تلوح في الأفق. كم مؤلم الهروب من دنياك كالمطارد من الأشباح! فلا الأشباح تختفي ولا أنت تنجح في الهروب!

استوقفت أنظارها رسوم جديدة فوق الجدار الممتد لنهاية الشارع؛ تظهر فيها وجوه لرموز الفن في عصر النهضة؛ كالإيطاليين ليوناردو دافينشي وتيتيان والفرنسي جان أونريه والإسباني الشهير فرانشيسكو ديجويا، وضع الرسام فوق أعينهم عصابات حمراء تطل من خلفها نظرات باردة بلمعة زجاجية، تحمل ملامحهم تعبيرات خاملة غير مكترثة، كتب فوقهم بخط عريض (fuck off). هنا بلندن فن الرسم على الجدران أو (الجرافيتي) فن شهير، رغم تجريمه في عدة أماكن من العالم واعتباره نوعًا من التخريب، يستمتع السكان كثيرًا بمتابعته، وقد اختبرت بنفسها لحظة إزاحة ستار حريري عن رسم مخبأ انتهى صاحبه منه في احتفالية لطيفة، حبست أنفاسها معهم وشعرت بحماسة الأدرينالين في عروقها لحظة الكشف. لطالما نظرت للفن كأعظم ما وضعه الله في البشر، أوليس لله السبق الأبدي في عبقرية الإبداع؟ وبوضعه نفحة من تلك العبقرية في الأنفس فهو يجلها ويكرمها، كيف لا يدرك البعض هذه الحقيقة؟ كيف يصمون تلك النفحة بالكفر! هي أيضا شغفت بهذا النوع من الفن؛ لم تكن تنتبه إليه كثيرًا فيما مضى حتى اندلعت الثورة.. الثورة! لا يزال لرنين الكلمة وقع خاص على أسماعها وإن نطقتها بينها وبين نفسها، أكبر حدث جلل في حياتها وحياة من هم في مثل عمرها؛ أتت بالكثير من العواصف والكثير من الأمنيات والتطلعات التي استحالت مع الوقت لأوهام. (ممكن) الكلمة الصديقة لكلمة ثورة. كانت من ضمن مجموعة حمقى لم يدركوا أنها كصيحة الجرافيتي الجديدة

فوق الجدران؛ رغم جموح خطوطه وسخونة ألوانه يَسهُل إزالته بخرقة مغمسة بالبنزين! يجلون الجرافيتي هنا كثيرًا لدرجة تخصيص شركات الدهانات ذات الماركات العالمية بعض خطوط تصنيعها لإنتاج ألوانه، هنا لأبسط أنواع الفنون أهمية، وللعقول والأرواح متسع للتحليق. تعلم أنها رغم إدمانها التسكع في الشوارع، لن تصبح يومًا مدينتها، ولن تنتمي لها مهما استماتت في الانعصار بنواصيها وحواريها!

«ستبقين غريبة أبد الدهر يا زاد.. غريبة هنا.. وغريبة هناك»

لم تنتبه لما مر من الوقت وهي سائرة تثقل رأسها حيرة الأفكار بحثًا عن منفذ لمشكلاتها المتراكمة، حتى أوشكت على الانعطاف إلى الشارع المؤدي لحانوت والدها؛ فانشقت عنه الأرض!

ـ بانتظارك منذ وقت طويل.

ـ مستر راجيب!

ـ أتظنين حقًا أن ينتهى الأمر هكذا وبسلام؟

تلفتت حولها بقلق: الوقت متأخر، ربما نكمل حديثنا في وقـ..

همت بالذهاب فقطع طريقها: انتظري.

ازداد اقترابًا فاضطرت للعودة إلى الوراء حتى اعترضها حائط الرسم، مُحاصَرة بتيتيان وجان أونريه وراغب الساعي! أطبق على حزام حقيبتها الجلدية، تزحف يده فوقه بتمهل حتى وصلت للحقيبة، تحسسها ثم ابتسم: لو لم أعثر على ضالتي هنا لذهبت الآن وتركتك في سلام! حقًا كنت لأفعلها، وربما لم أكن لأزعجك ثانية بظهوري؛ لكن هديتي الأخيرة لم تلقَ مصير سابقاتها في مقلب القمامة يا ميلي، وها هي تقبع في أمان حقيبتك الصغيرة.

ـ إذن تعلم أن وجودك مزعج! كل ما في الأمر أني خشيت أن تُسرق أو يقع لها مكروه قبل إعادتها إليك.

عض على شفته محدقًا بشفتيها المرتعشتين: ميلي، تقاومين أكثر مما يحتمله الأمر.

ـ أنت عنيد لفشلك معي، لعجزك عن الاستحواذ على هوسك.

لفحتها أنفاسه الحارة: تجدينني جذابًا وأجدك ساحرة، ما الحائل بيننا؟ الهدايا؟ المال؟ أي شيء هو ملكك. فقط احلمي!

صوته الرازح أسفل وطأة انفعالاته أصابها بالقشعريرة، أزواج الأعين تحدق بها من فوق الجدار، تحمل شفاهم ابتسامات دبقة ساخرة، يسددون نحوها نظراتهم الباردة من خلف العصابات الحمراء في كل اتجاه، لم لا يتركونها بسلام؟ يعاودون المجيء مرة بعد مرة، ألم تتركهم هناك في أقصى الأرض وتهرع إلى هنا عل الضباب اللندني الكثيف يخفيها؟ أخذتها الحماسة في لحظة سذاجة ظانة أن بإمكان صوتها تغيير الظلم! خرجت ورفاقها حاملين رغبة الحرية رافضين وطأة التخلف والجمود في محاولة لاستعادة وطن يوشك على الغياب، وقد أحالت الحكومة الإخوانية رئيسة المعهد للتقاعد كخطة لإغلاق أبوابه فيما بعد، ظنت أن الحشود ستحميها، ستكون أمانها، لكن العقبان تحوم حول رحى الحرب، تنتظر بلهفة لحظة الانقضاض! لا تدري كيف وُجِدَتْ تلك المخلوقات لينبثق كل ذاك الشرور المعتق في زجاجات الكبت واللامصير؟ يبيعون غضبهم لمن يدفع! نوع مستحدث أكثر بشاعة وقسوة من مرتزقة الحروب، تكالبوا عليهم في لحظة زاغت فيها الأبصار للزحام الشديد فأصبحوا في لحظة جزءًا منه، لا يعي من حولهم إن كانوا ساعين للحماية أو النهش!

كل شيء يذوي في النهاية حتى الشغف! هذا ناموس الكون. إلا ذعرها، يظل دومًا فتيًا كابن اللحظة، مُعجِزًا الزمن عن إصابته بالضمور، يعيده راغب إليها حين يقترب من سورها الشائك غير عابئ بتحذيراتها، تعلو صرخاتها الداخليه بلا صوت، تعلو وتعلو، حتى انصاعت شفتاها أخيرا لحاجتها:

ـ ابتعد.

تجاهل اعتراضها، ممرغًا قسماته بتجويف عنقها: احلمي؛ آتيكِ بالحلم.

وكأن الحلم أمر هين! أنى لها الأحلام بعد احتلال الكوابيس كل شبر في حياتها؟ أشاحت وجهها قدر استطاعتها بعيدًا عن أطراف شعره ولحيته،

فابتعد قليلاً، يتكئ بيديه إلى جانبيها فوق الجدار: تنكمشين وتتصلبين فلا تشبهين أيًا من ملامح من تقف أسفل بقعة الضوء؛ تلك التي تشعرني أنها تملك العالم ويستحيل على مخلوق امتلاكها.. من أنتِ؟ براءة سندريلا أم جموح كارمن أم.. ضعف أوديت!

قالت بصوت مختنق: أنا الكثير، أحتاج لأكون الكثير؛ إن ركزت مع نفسي فقط سأفقد الصواب، كما أنه محال امتلاك الوهم.

دفعته بكلتا يديها لكن سرعان ما عاود أسرها بين ذراعيه: بكِ شيء غريب يجذبني ونفورك لا ينطلي عليّ، إلام ترمين بهذا التمثيل؟!

ـ أتوقف عن التمثيل حين تُطفأ الأنوار، أنت من يتصنع الغباء.

ـ أتعلمين ما يعنيه لفظ (ميلي) بالعربية؟ (tend)، أي اقتربي.. اقتربي كثيرًا كأغصان الزهر عند زيارات الريح.

تسارعت أنفاسها صانعة غيمة بخار أمام شفتيها، تعلن عن ضعفها.

ـ لن أنحني للريح.

ـ إذن سترهقين كلينا، غريب أن ترفضني امرأة لكن رفض الرفض لذيذ!

ـ بل هو غباء كما أخبرتك، الجميع يعرف عني نفوري.

ـ لا تظنينني غافلاً عن اختلاسك النظر إليّ من خلف الستار.

ـ لا تمنح نفسك الأهمية، هي عادتي قبل صعودي على المسرح.

ـ تعنين أني واهم؟ حسنًا، لديّ حل سيكشف لكلينا صواب حدسه.

توقعت عرضًا لدعوة عشاء جديدة أو موعدًا رومانسيًا، لكن ما لم تتوقعه هو هجومه المباغت بقبلة محمومة انتهكت عذرية شفتيها. الغريب أنه لم يكن ثمة طعم للقذارة المعتادة، حل بدلاً منه مذاق غريب يشبه الدخان! تجمدت بين يديه، توشك أعصابها على خيانتها، تكاد تصرخ هلعًا وتسبه بالعربية، لولا انتباهها في اللحظة الأخيرة! جاهدت للإفلات من قبضته، وكلما حاولت استمات في الإبقاء عليها. رغم معيشتها ببلاد متحررة، لم

تستسغ يومًا الإعلان عن اللفتات الحميمة جهارًا نهارًا، احترم الجميع طبيعتها الحذرة إلاه، تذرعت لحماقته طويلاً بجهله حقيقتها، لكن فعلته قصمت ظهر البعير. همت باتخاذ الخطوة التي حاولت تجنبها قدر استطاعتها، لولا ظهور سيارة شرطة تجوب في جولة معتادة لتفقد الأمن، حانت من الشرطي نظرة متفحصة نحوهما، فأرخت جسدها المتشنج ورفعت يديها مرغمة ولفتهما حول عنقه؛ لا يجب أن يستشعر من بالسيارة أن ثمة شيئًا غير طبيعي، وإلا وقعت تحت طائلة قانون لن يرحم حقيقة انتهاء فترة إقامتها بعد أسبوع!

ـ أجل ميلي، هكذا عليكِ الانصياع لمشاعرك، لا تنكريها يا حلـ...

غابت السيارة أخيرا عن أنظارها؛ لتنفلت صرخة مكتومة من حنجرته، قاطعة لحظة سعادته باستسلامها، حين سرى بجسده تيار كهربي من إحدى أدوات الدفاع عن النفس، شالاً حركته. عانى آلامًا مبرحة في كتفه، واعتلت صفحة وجهه نظرة ذاهلة بلهاء، وقع بعدها على الأرض الرطبة ممسكًا بذراعه المشبوبة بحريق مستعر، فأخرجت زجاجة ماء صغيرة من حقيبتها ارتشفت منها رشفتين وتمضمضت باصقة الماء، ثم أطلقت ساقيها للريح فَزِعة لزلة لسانها بالعربية!

ـ تعلَّم أن تقبل الرفض أيها الغبي.

* * *

(١٨)

تعالى رنين هاتفه ليوقظه من نومه، ألقى نظرة على اسم المتصل، وهم بالنهوض من الفراش بحذر، فأمسكت بذراعه: ما الأمر؟

ـ موردة الأسماك يا وفاء، سأتلقى المحادثة بالخارج كي لا أزعج نومك.

غطت سريعًا في نوم عميق، دون أن تتسائل عن سر المكالمة وقد تعدت الساعة الواحدة صباحًا! عدل الغطاء فوقها ودس يديها أسفله، مغادرًا الغرفة نحو الصالة، يتطلع من خلف زجاج نافذتها. رغم صغر الشقة والبناية العتيقة؛ دفع لقاءها ثروة صغيرة نظرًا لموقعها المميز بالطابق الثاني للمطعم! تتكون من صالة واحدة واسعة وغرفة نوم بالكاد تتسع لسرير ومرآة وخزانة قزمة. تمنت وفاء السكن قرب البحر، لا تزال تحلم ببيت يطل عليه، تنظر من شرفته صوب الموج مباشرة بلا حائل. أقسم بينه وبين نفسه إنه سيحقق لها أمنيتها يومًا ما؛ كم يؤلمه بعد كل سنوات الكفاح تلك عجزه عن تحقيق حلمها الوحيد! أجفله معاودة الهاتف الرنين فأجاب سريعًا لئلا تستيقظ: مرحبا كارولين. أجل، أتى ويليام إلى المطعم رغم تحذيري! لا، لا استطيع التنازل مرة لأنها ستجر أخرى، لن أجرح وفاء، أجل، أنتِ

السبب. ألستِ من أخبره أني والده؟ لم يكن هذا اتفاقنا! طالبتك بالتخلص من الحمل فأصررتِ عليه ووعدتِ ألا تكون لي أي صلة به، زواجنا من البداية محض صفقة، بلا مغالطات أرجوكِ! فارق العمر بيننا أكبر دليل، أجل، كنتِ كريمة معي لكن أن يتطور الأمر وتخبريه بالحقيقة فيطالبني بالاعتراف به؟ مستحيل! لأجلها فعلت كل هذا؛ خنت وتزوجتك؛ لا، لست قاسيًا، أنتِ منحتني حبًا لم أطلبه وطفلاً لا أريده.. أخللتِ بالاتفاق.

أنهى المحادثة متطلعًا لانعكاس صورته على الزجاج؛ جحافل الشيب تزحف فوق رأسه، والتجاعيد تستوطن وجهه؛ الباقي ليس بقدر ما فات! لكل إنسان كوابيسه المخبأة أسفل جلده، وكابوسه الأبشع هو فقدانها. لا تزال تمارس أمومتها المفتقدة على كل مخلوق حولها، عاطفة بقيت يتيمة الابن عمرًا، تبزغ رغمًا عنها كوهج شمس مدفئة الجميع عداها، كيف يجرؤ بعد التضحيات التي قامت بها لأجله أن يخون احتياجها وهو السبب؟! لولا إصراره على الرحيل ما فقدت الأمل في الإنجاب؛ الشاحنة التي انقلبت بهما في إحدى محطات رحلة التسلل الطويلة للندن؛ أصابتها بتهتك في الرحم أدى لاستئصاله. وإن تاقت نفسه لابن من صلبه يرث ثروة تافهة كافح من أجلها، ابن يحتويه بين ذراعيه في لحظة يموت شوقًا لها، وإن وُجِدَ وكان نسخة منه كمن ينظر في مرآته، وليس في العمر بقية ولا أمل في الحصول على سواه! ماذا بشأنها؟ فلتذهب الأبوة إلى الجحيم إن كانت ستكسر قلبها. هي جبيرة النفس المرسلة من الله في كل أوقات التحطم والانكسار.

عاد للغرفة يتاملها نائمة في وداعة حمامتي سطحهم القديم، يتساءل: متى استسلم لها الاستسلام الأخير؟ رافعًا راية هزيمة مكابرته وإنكاره مشاعره! لم يكن الأمر سهلاً، قاومها طويلاً في حرب شعواء لا هوادة فيها، فكانت دائمة التهيؤ بالعدة والعتاد لمحاصرته؛ تلك اللحظة موشومة بها ذاكرته، يوم أوشكت على رؤيته عاريًا يتفصد الدم من جروحه التي حفرتها خيزرانة سيد. كان طفلاً ذكيًا ولماحًا يعشق دراسته، يحلم بمستقبل

أفضل له ولوالدته يخلو من والده وظلمه. حين رفض الأخير أن يكون له دخل في إلحاقه بالمدرسة الإعدادية، وتعلل بأهمية أن يعمل كي يساعده في أعباء الحياة، وكفاه الشهادة الابتدائية التي كبدته ثروة؛ وقف في وجهه جده حسن، أخبره أنه على استعداد لأن يعطيه كل شهر المبلغ الذي يتوقع أن يأتي به من عمله ليتركه يلتحق بالمدرسة، وافق حينها سيد على مضض، معلنًا أنه لن يساهم بمثقال حبة خردل في مصاريف دراسته. ربما كانت نوايا جده طيبة، لكنه ارتكب خطأ فادحًا دون أن يدري؛ توسط لدى أحد القباطين القدامى من معارفه ليساعده في الدخول لمدرسة في بورفؤاد كيلا تطاله يد سيد، لكنه توفي في السنة الأولى غير عالم بالمستوى الذي يرفل فيه تلامذة تلك المدرسة، كان جل همه الاطمئنان لقيد اسمه في سجلاتها، ليتضح لرؤوف أنها عالم لا يخص سوى أبناء القباطين والتجار وأثرياء المدينة، أمضى ثلاث سنوات من عذاب ولم ييأس؛ عافر طويلاً معتمدًا على نفسه كي يثبت تفوقه وأن جده لم يكن مخطئًا في إصراره، عوض ملابسه الرثة ودفاتره المهترئة وأقلامه المقصوفة بتفوق في اللغة والرياضة أذهل معلميه، وحظي باستحسانهم بقدرته على الرسم وإلقاء الشعر، كان يحفر في الصخر ليشغل الأعين عن حالته البائسة، ولكن إن لوَّن الغراب ريشه أول قطرة مطر ستفضح سواده! ففي حفلة تكريم أقيمت من أجل المتفوقين الذين كان من ضمنهم، هبط على رأسه سؤال أحد المعلمين كالصاعقة محرقًا روحه التي رقصت سعادة قبل وهلة، يتطلع للحظة تشعره بإنسانيته وبأنه مرغوب ومقدر لمرة!

«ألا يوجد قربكم مكوجي يقرضك سترة محترمة؟»

طعنه السؤال للعمق وأطفأ الحماسة في عروقه، داهسًا طموحه، كان من الممكن أن يلتحق بعدها بالمدرسة الثانوية، لكنه فضل مدرسة الصنايع ليقصر المسافات، تعب ومل وقرف، أراد الانضمام لمن هم على شاكلته، لمن يملكون سواد واقعه وجفاف بئره، ذات عطشه وقرصة حاجته. كثيرًا ما سعى لمسامحة والده، حقًا حاول وبكل صدق، لكن كلما صفت نفسه

عاد سيد بهبة ظلم جديدة تظلم سماءه، ولم يتوقف عن محاولة الغفران! فتلك المشاعر السلبية تثقل على عاتقه، ترهق روحه التواقة للحب رغم الإنكار. تمنى لو كان إنسانًا طبيعيًا يملك أسرة محبة، يحظى بالحماية من والده لا التهديد. حتى تلك الليلة المشؤومة التي غيرت وجه حياته كلها! المدرسة الصناعية أتاحت له الوقت للعمل كما أراد، أصبح يساهم بنقود عمله في مصروف البيت، خاصة وقد ازدادت حالة والده سوءًا برفضه الدائم للعمل رغم محاولات أصدقائه المستمرة في البحث له عن وظائف. كان يرفض رفضًا باتًا متذرعًا بحجج واهية، أو يوافق على مضض وبعد فترة يسعى لمضايقة من يعمل لديهم فيطردوه. لذا اعتادت يسر مع اقتراب شهر رمضان على تربية إوزة تشتريها فرخًا صغيرًا، تزغطها بيديها لتسمن حتى يحين أول يوم في الشهر الكريم فتذبحها؛ رغبة في جعل اليوم مميزًا توسِع فيه على أسرتها؛ فاستلب سيد الإوزة من البيت عنوة، واتجه لعشة عشيقته برديس، هاتفًا:

ـ خسارة في (جتتكم)، سآخذها لمن تعرف قيمتي.

كانت يسر حاملاً بعد سنوات فقد فيها رؤوف الأمل في أن يكون له أشقاء. دفعها سيد لتقع على الأرض بغل عندما حاولت منعه، يتعالى نداؤها المبتئس تتوسل له أن يتركها، حاول رؤوف إثناءه بدوره فصرخ سيد:

ـ إياك أن تلمسها يا بن الشيطان، هل ظننت أنك ستتحكم بي بإلقائك لي قروشك الوسخة كل يومين؟ ابتعد عن طريقي وإلا ذبحتك بدلاً منها وتخلصت من وجهك العكر.

لم يستطع روؤف رؤية حسرتها مكتوف اليدين، كانت أنظارها متعلقة بها كأمل أخير لغريق توسم الحياة! أدرك أن الإوزة لم تكن ما يؤلمها بقدر ما آلمها انتزاع الفرحة الوحيدة التي كانت تعد لها من الموسم للموسم، متأملة رؤية ملامح السعادة فوق وجهيهما! أجل! كانت تنتظر رؤية ابتسامة زوجها أيضا حين يقضم لحمها بعد صوم اليوم الطويل وإن لم يصم! قرر أنه سيفعل المستحيل ليجعل أول يوم في رمضان مميزًا لأجلها. احتاج

للمال لكي تنجح خطته، فلم تكن خطة قصيرة الأجل تسعدها لمرة، بل أراد إسعادها للأبد؛ حصل على عمل ثان خلال الليل مع الصيادين، يذهب للبحر معهم ليلاً ويعود عند الفجر، مدخرًا النقود القليلة في (غية) الحمام فوق السطح؛ لم تكن غية بالمعنى المفهوم، كانتا مجرد حمامتين يتميتين سقطتا من عشهما فورما فقس البيض وتاهت الأم عنهما، فتولى رعايتهما وصنع لهما بيتًا صغيرًا من الخوص. حرص كل يوم على وضع النصف جنيه في الغية لعشرين يومًا، حتى تجمع لديه المبلغ المطلوب وكاد يطير من السعادة؛ عشرة جنيهات بالتمام والكمال. هبط مسرعًا للأسفل يقبض على الورقة التي وضع داخلها المال، فلمح سيد يصعد الدرج، لم تكن خيوط الشمس قد زارت المكان بعد، لكن عينيه في تلك اللحظة كانتا تومضان بشكل مخيف، فألقى سريعًا الورقة فوق كومة الغزل ببئر السلم.

ـ أذنَّ الفجر! أين كنت حتى هذه الساعة؟

ـ كنت مع أصدقائى يا أبي، إجازة الصيف بدأت وأشعر بالضجر.

ـ طوال الأيام الماضية؟ أنت تكذب، رآك البعض بصحبة قوارب الصيد، ماذا كنت تفعل؟ أين النقود التي حصلت عليها؟

ـ لم أحصل على نقود، إنهم كاذبون، كنت في المقهى ألعب الورق.

ـ ومن أين لك بالنقود يا (وسخ)؟ كاذب. أين النقود التي ادخرتها؟

ـ لا أملك نقودًا ولم أكن أعمل. ليس معي، صدقني.

أمسك سيد بتلابيبه يهزه كمن يقتلع نبتة من جذورها مهددًا إياه بالضرب، وجعل يبحث في جيوبه وأسفل ملابسه باستماتة، ثم دفعه إلى الخلف معلنًا بغضب أنه أخفاها عند فرخي الحمام، أقسم أن يذبحه إن عثر عليها هناك. صعد للأعلى يفتش داخل العشة بهستيرية، وقد استبد به غضب جعله يمسك أحد القضبان الحديدية الملقاة فوق السطح محطمًا العشة؛ فطارت الحمامتان.

ـ أين هي يا بن الشيطان؟ سأقتلك.

كان كلاهما بنفس الحجم، ورث عنه رؤوف المنكبين العريضين، والطول الفارع، وعلى الرغم من أن رؤوف كان الأقوى؛ حين بدأ سيد في جره من ملابسه نحو الأسفل مكيلاً لوجهه الضربات، لم يقاوم أو يحاول دفعه! يعرف أن الأخير إن لم يفرغ فيه شحنة غضبه سيحيل الدفة صوب يسر، ولن تتحمل المسكينة. استسلم تمامًا ليدي سيد متيحًا له المجال ليفعل به ما يشاء، وطوال الطريق من السطح حتى الطابق الأول الذي سقط فوق سلالمه عدة مرات، كان يستمع للسباب الفاحش الذي أغرق به أسماعه، صابرًا على اللكمات التي هبطت فوق وجهه كالسيل حتى وصلا للشقة، وفورما دلف دفع يسر لغرفتها وأغلق بابها بالمفتاح غير عابئ بصراخها الفزع وتوسلاتها، أقسم إنه سيقتله إن سمع لها صوتًا. أمسك بخرطوم المياه وانهال على جسد رؤوف بضربات كالسياط، أتت الأولى قرب عينه، وهبطت الثانية فوق كتفه وأخرى على خصره. كل ما أمكنه حينها أن يرفع كفيه أمام وجهه في محاولة لاتقاء الألم، ظل منتصبًا لفترة لا بأس بها، يرتعش رغمًا عن محاولاته المستميتة في الثبات، فهوت ركبتاه بغتة وسقط على الأرض بين صحو وغياب، يقطع الوجع أوصاله بنبضات كالكهرباء دون أن يبدو على قسماته انفعال. بعدما تأكد سيد من أنه أجهز عليه نزع عنه ملابسه وجره عاريًا، يتشبث رؤوف بقدميه متوسلاً ألا يتركه على قارعة الباب.

ـ لمَ تفعل بي هذا يا أبي؟ أنا ابنك! أنا ابنك!

سدد له صفعة أقرعت الطبول فوق صدغيه قائلاً بنبرة ملؤها الحقد: لستَ ابني بل ابن الشيطان، أنت ابن الشيطان.

تركه متكومًا على نفسه كحيوان جريح، وأغلق الباب، ويسر بالداخل تصيح: أكرهك يا سيد.. أكرهك وبالكاد أقوى على التنفس قربك.

حين اطمأن رؤوف لأنه لم يضربها وأن لا أحد سمع المشادة من الجيران، حمل نفسه على النهوض والتشبث بدرابزين الدرج، وجعل يصعد بخطوات متثاقلة نحو السطح؛ المكان الوحيد الذي يمكن أن يستر

فيه نفسه عن الأعين. لكنه لم يعرف حينها أن وفاء سمعت، أو بالأحرى شعرت. انقبض قلبها بعد سماع طرقة الباب خارج شقتهم، وقد اعتادت السهر انتظارًا لعودته طوال الأيام الخمس المنصرمة؛ كانت تخشى عليه البحر؛ فأيادي الموج الناعمة التي تربت على شاطئ سفعته الشمس لا يُؤمَن شرها، كوجهي عملة؛ تحمل الخير والخطر في آن واحد. هرعت تفتح الباب مختلسة نظرة للخارج، فرأت يده من بعيد تتكئ على سور الدرج، ظنت لوهلة أن نصفه الأعلى عارٍ لكن سرعان ما طردت الفكرة الحمقاء وذهبت لتبدل ملابسها وتصعد إليه، تحمل كوبًا من عصير الفراولة، وشطيرة قنبيط مقلي تعلم كم يحبه، ادخرتها خصيصًا من غدائها لأجله؛ حريصة ألا يراها أحد الجيران، مطمئنة قبل صعودها أن والديها يغطان في نوم عميق؛ لكن حين دفعت باب السطح سمعت صوته المتهدج يحذرها:

ـ لا تقتربي يا وفاء، أتوسل إليكِ، أنا عارٍ!

* * *

(١٩)

«والرب لإنتا شيطان!»

هتفت ماليكا بينما تتكئ على مرفقيها، يتأرجح الجعران بين نهديها العاريين، لا تزال أنفاسها في سباق جنوني وفوق شفتيها ابتسامة متكاسلة.

قال دياب ساخرًا: ها قد نطقتِ بالمغربية حفيدة (مقنين)!

حدجته بسخرية، ثم عدلت الملاءة حول جسدها العاري معاودة الاسترخاء فوق الوسادة، تمسح عرق جبهتها بظاهر يدها. تناولت سيجارة وردية من علبة كتب فوقها بخط أنيق «vogue».

ـ ما تمنحني من نشوة يا عزيزي يفقدني السيطرة على لساني، أنت بالفعل شيطان!

ـ سجائر جديدة؟

عاودت ارتداء خاتمها الفيروزي وسوارها المنقوش برسوم فرعونية، نافثة الدخان العابق برائحة الشوكولا: أجل حبي. أحرق الضباب في مدينة الضباب ـ أطلقت بقايا دخانها في وجهه ـ ألا تحب رائحتها؟

ـ ما يزعجني هو عدم استقرارك على نوع واحد في كل شيء!

ـ لا يناسبني الاستقرار، لا يشبهني أو.. ربما لم أعثر عليه بعد، ثمة شيء مفقود حتى في لحظات الحب المحمومة معك ـ زفرت بسخرية ـ عليّ أن أكون عجوزًا شمطاء لأحصل على كلك لا بعضك؟ لستَ بحاجة إليهن وأنا طوع بنانك؛ تشهد تأوهاتي وتوسلاتي بين ذراعيك، لكنه ضعفي الذي تنشده بغيري!

ابتسم بسخرية وجذب سيجارتها ساحبًا نفسًا منها: نظرتك المسيطرة وابتسامة الظفر لحظة نشوتك دليل دامغ على قوتك، ليس بخطئك، المشكلة بي أنا، وليس عدلاً أن أكون عاريًا أمامك من كل شيء؛ تحتفظين بالكثير من الزوايا المعتمة، أخبريني بما يوازن المعادلة اللعينة بيننا.

أطلقت ضحكة غنجة: فقط لأجل المتعة المذهلة.. والمنقوصة التي منحتني إياها؛ سأضيء لأجلك إحدى الزوايا، لكن لا تعتد الأمر.

أشعل سيجارة من علبته ومنحها شرف النفثة الأولى. نهضت من الفراش غير عابئة بعريها، وجلست على مقعد وثير في زاوية الغرفة واضعة ساقًا فوق الأخرى. التقطت قطعة جمبري من الطبق وغمستها في صلصة حمراء ملقية بها في فمها، ليسألها دياب: أليست القشريات من المحرمات؟!

ـ ارتكاب المحرمات له متعته؛ وإلا ما كان تركها جهادًا.

قبلها بنهم متذوقًا الصلصة الحاره فوق شفتيها، فران صمت قصير قطعته بسحبها نفسًا جديدًا من سيجارتها.

ـ نحن متشابهان، ربما هذا ما جذبني إليك، كلانا يعشق الخطأ وتخطي المحظورات؛ تغوينا القوانين لنكسرها.

أمسك بالجعران يقلبه بين أصابعه: أراهن أنه أصلي.

ـ من مادة الفاينس السيراميكية الأصلية.

ـ لا داعي للمراوغة، تعين جيدًا ما أعني. أثري، أليس كذلك؟ على الأقل أخبريني من أين لكِ هذا؟

ـ كان ملك ليليان عشيقة جدي ستيفان؛ سافر خلفها من مصر للندن خصيصًا ليهديها إياه. ارتدته لآخر يوم في حياتها وأوصت أن يعود إليه بعد مماتها. كانت ممثلة يهودية شهيرة في الأفلام المصرية القديمة، سافرت للعمل كمترجمة في هيئة الأمم المتحدة، ثم تزوجت وانتقلت إلى لندن. أتعلم أنها قالت لجدي إن لندن بكل ما فيها من عظمة وثراء لم تنجح في نزع حنينها المخيف لمصر؟ حنين لغبارها وشوارعها الحافلة بالمطبات، للسينما وأصدقائها، وكانت أكبر وحشة عصفت بها وحشتها لرغيف العيش المصري المخلوط؛ ممنية نفسها بأن يكون أول ما تتذوقه إن كتب لها القدر العودة إلى هناك؛ العيش المصري (يكيفها)! وتستنشق فيه عبق الأرض؛ ألم أقل لك؟ لمصر سحر مهيمن.

أمسك بالجعران يفركه بقسوة كمن يود تفتيته: كلما خنقتهم مشانق الفقر والمرض والجهل هناك، تمنوا محوها من على وجه البسيطة، لكن يظلون هائمين في عشق أصغر ذرات ترابها كالعبيد، الأغبياء!

ـ ربما أنت محق؛ أُشيع عن ليليان مساعدتها في اغتيال أحد علماء الذرة المصريين لأنه رفض الجنسية الأمريكية والإقامة والعمل هناك، أرضكم غريبة حقًا، يمتزج في النفوس عشقها والسخط عليها!

ـ وهل فعلت هذا؟

ـ لم يستطع أحد الجزم بالحقيقة؛ قرأت في تحقيقات بعض الجرائد عنها أنها ظلت أقاويل نفاها البعض من عائلتها وأكدتها حفيدتها؛ أعلنت أنها اعترفت لها قبل وفاتها.

ـ لماذا لم تتزوج ليليان بجدك ما دامت أحبته؟

تطلعت لطرف سيجارتها المحترق: في أحيان كثيرة يعجز الحب عن رأب الصدع ولا يكفي لتبقى العلاقة متماسكة. أتعلم سر حرصي على اشتراء كل تلك المنازل يا دياب؟ لأني شبقة لوطن! محقونة بالحكاية القديمة حتى النخاع، وعلى اليقين أن يملأني بشأن أساطير بلهاء أكرس نفسي لها بكل كياني رغم سخطي عليها ـ مطت شفتيها حنقًا ـ كل تلاعب

باسم الدين، ومقابل كل تائه في شبر من الأرض صنعوا قتيلاً ومنفيًا، لكني عاجزة عن الذهاب والانتماء، يصارعني يقين آخر بأن التيه هو المصير الأبدي مهما فعلنا، مسطور الشتات على جباهنا قبل الزمان بزمان لكنهم يكابرون.. ثرثرتُ! يبدو أني أفرطت في الشراب.

ـ لم نفتح الزجاجة بعد!

اتجهت للبار الصغير حاملة زجاجة فودكا: إذن لنفتحها.

ـ أتطلع لتذوق بعضًا من شراب (الماحيا).

أرخت ناظريها متشاغلة بصب الشراب في كأسين، تلوك شفتها في صمت. تدرك مغزى مجيئه على ذكر جدها (مقنين) وشراب (الماحيا)؛ تعلم من البداية أنه ليس بالند السهل. وظفوها للعمل معه في تسهيل نقل الآثار لاستعادة أكبر كمية ممكنة منها؛ ما زلوا يؤمنون بأنها ملك لهم؛ خاصة وقد تركوا بصمتهم شاهدة على وجودهم في شكل أهرامات ثلاثة وغيرها كما يدعون. هرعت إليه رغم توجسها من فكرة كونه مصريًا؛ ظلال الثأر والماضي ترقد فوق رأسيهما، لكنه مختلف، لديه تلك الحالة الغريبة من الزئبيقة! ليس بخائن لكن الخيانة تجري في دمه، ولا بظالم رغم بشاعة تصرفاته.. مُشتَت مثلها، تدفعه رغباته الملحة بلا اكترث لما يحطمه في سبيلها!

رفضت الاستقرار في إسرائيل مع معظم عائلتها، وكلما زارتها تعجز عن البقاء طويلاً؛ شيء ما يطبق على أنفاسها هناك، كما أن الجعران يصبح أكثر سيطرة على كوابيسها؛ فتقوى سطوة المجنحة اللعينة ميليت على روحها، ويعجز (خديمها) الأحمق عن حمايتها! لا تزال تطالبها بإعادة القلادة، وكأنها تعلم أن بقعة دفينة في نفسها تتمنى لو تفعل! لكنها تجد نفسها تصرخ على الدوام في مواجهتها بأن القلادة ملك لها ولن يجرؤ مخلوق على سلبها إياها، وكعادتها ممزقة بين بين.

ـ لنتزوج يا دياب! معي ما يكفي كلينا، لنعد إلى مصر؛ نشتري فيلا تطل إحدى واجهاتها على سفح الأهرامات، والأخرى ترنو إلى شاطئ

النيل، نسهر ليلاً أسفل قمر الصحراء ثملين بالعشق، وصباحًا توقظنا شمس دافئة لنمارس الحب.

ـ ألا يريد ذلك العفريت المصري أن ينصرف؟ ألقي تعويذة تخلصك منه، لمَ مصر؟ يمكننا الاستقرار في باريس، كندا، أو حتى المغرب.

رشفت من كأس ثم ناولته إياه: إن أقمت هناك سكنت شياطيني وغفت هواجسي، سأتوقف عن الصراع وينساني الشتات؛ فكما حقنتني والدتي بالحكاية القديمة، أغرقني والدي بتفاصيل عشقه وجدي (ستيفان) لمصر، احتفظ الأخير بذكرى وطنه في قلبه، وحملها لأولاده وأحفاده أمانة، عليّ العودة إلى هناك يومًا، سأطالب بأن تكرمه الدولة التي نسيته في غمرة الكراهية وسواد الحروب. ألا تقوى على فراق دميتك الخزفية المملة؟

ـ مها ليست مملة، لكن ربما تكون خزفية بعض الشيء وهو سر جاذبيتها. مسكينة ماليكا! حائرة بين دماء الشرق والغرب في أوردتك!

ـ ما الذي يبقيك معها؟ هي عاجزة عن منحك ما تريد.

ـ وهل تمنحينني ما أريد؟ لا أحد قادر على هذا يا عزيزتي. يا للنساء! لم يلسعك من الحديث سوى شرارات الغيرة. أتبيعينني الجعران؟

اقتربت تخطو بغنج، طابعة قبلة تركت أثرًا باهتا لأسنانها فوق عنقه: لا تقدر على ثمنه الباهظ لا أنت ولا أسلاف أسلافك، كما أن شياطينه ستلاحقك مع كل غفوة ولن ترحمك! ألا تخشى أن ألقي عليك تعويذة تعجزك عن الابتعاد عني قيد أنمـــ...؟

انحنى يقبلها ملتهمًا بقية كلماتها: أولم تفعلي بعد؟

دخل دياب اللعبة بمزاجه الخاص، وافق على الوقوع في الفخ، حريصًا على أن يكون ندًا للمتبارين معه ولو في السر؛ لم يتوانَ عن الحفر خلفها للإحاطة بكل تفاصيل حياتها المعلنة والخفية، ليس بهاوٍ ليدخل اللعبة معصوب العينين، ورغم كل ما عرفه عنها لم يصل للقاع! ماليكا مزراحي، حفيدة ستيفان مزراحي؛ المخرج المصري الشهير ذي الأصول الإيطالية،

انشقت عنها الأرض في ليلة من الليالي؛ كان قد انتهى لتوه من ساعة متعة في إحدى ضواحي لندن، لتفتح باب سيارته وتجلس إلى جانبه مطالبة بدعوتها إلى فنجان قهوة في أي مطعم قريب! أخبرته في البداية أنها معجبة به وبنشاطه في منظمة حقوق الإنسان التي يعمل بفرعها في لندن، لأنها أيضا تعمل في مشروع متصل بها يخص اليهود المغاربة تدعى جمعية (تزيداكاخ)، اسمها مشتق من العبرية ومعناها الإحسان. كان الوصول بها للفراش من السهولة بما جعله يكتشف دوافعها الخفية نحو الشراكة؛ هي وسيط في تجارة الآثار المهربة التي تخفيها أسفل غطاء حانوتها المختص بصنع التعاويذ والتمائم وقراءة الطالع والتاروت؛ أمور لها أسواقها لدى المهاويس بالسحر والقوى الخفية. كعادة الإنسان منذ القدم، كسول لدرجة بحثه الهستيري عن كائنات أخرى تقوم بمهامه تُعبد له الطرق. أكدت له مرارًا قدرتها على مزاولة السحر وأن حانوتها حقيقة، وإن مارست فيه بعض الخدع البريئة أحيانا، لم يصدقها في البداية، لكن بعدما قرأ تاريخ عائلتها تزعزع إيمانه؛ اكتشف أنها مزيج عرقي مخيف، مادة قابلة للاحتراق صانعة متفجرات لا أمان قربها. ولا يدري للآن سر اقترابه؛ أهي تعويذة ألقتها عليه حقًا وهي القادرة على ذلك؟ أم أنه بات من اللامبالاة بالخطر أمام شره طموحه بما يجعله يتلاعب بالنار قرب البنزين!

كما تنحدر ماليكا من عائلة مصرية يهودية، لها أيضا أصول يهودية مغربية؛ جدها الكبير لأمها مايير مقنين، مراكشي أقامت عائلته بالملاح؛ وهو مكان خصص لليهود بعيدًا عن المسلمين محاط بالأسوار. كان ملاح مراكش ثاني أكبر ملاح بعد ملاح فاس، وفي عهد السلطان العلوي محمد بن عبد الله، تم إنشاء مدينة الصويرة واجهة بحرية للمغرب كسياسة للانفتاح على أوروبا، فاختار السلطان عشرًا من الأسر المغربية كي تنتقل هناك وتبدأ الإعمار، ومع تزايد الإقبال من الأسر اليهودية على المدينة الجديدة سطع نجم عائلة مقنين؛ انتقل إليها في نهاية القرن الثامن عشر إبراهام مقنين بصحبة أبنائه الأربعة؛ بعدما تأكد من الفوائد التي ستعود عليه، مستفيدين

من التسهيلات والإعفاءات الضريبية هناك. عملهم بالتجارة في أشهر المرافئ الإفريقية جعلهم مؤثرين في الحياة العامة بالمغرب؛ يسيطرون على تصدير الحبوب لأوروبا. باتوا من أصحاب الثروات وشركاء للبريطانيين، يعيشون بذخ الحياة اللندنية بعد حياة الملاح المدقعة فقرًا، ومع الوقت أصبحت شوكة آل مقنين أقوى؛ يشترون عقارات في مراكش والصويرة، دور عبادة كنصف كنيس يهودي في حي القصبة، عمد بعدها مقنين لتقسيم أبنائه بالتساوي على القارتين، أرسل اثنين منهم للعيش في بريطانيا ليديرا مصنعًا للملابس وآخر للأخشاب.

لكنها الطبيعة الخاصة للابن الرابع (مايير) ما أثارت حفيظة دياب؛ لم يكن مهتمًا بالتجارة كوالده وأشقائه، بل مال لأمور أخرى كتصنيع (الماحيا) ومزاولة السحر! ربما ارتبط الأمران بعض الشيء، فالماحيا شراب روحي خاص من التين المجفف، تحتاج صناعته طقوس دقيقة ضمانًا لنجاحها وإلا تحولت لمادة سامة تصيب بالجنون أو تميت شاربها من فوره. ولأنها استخدمت أيضا في طقوس السحر؛ كان مايير ماهرًا في تصنيعها، وقد عرف عنه أنه أعظم ساحر مغربي في عصره. قيل إنه عقد عهدًا مع أحد كبار ملوك الجان بعد طوافه في الصحراء سنة كاملة، معتزلاً البشر، عاريًا، لا يتناول سوى القليل من الزاد والماء، يتوضأ ببوله موعد كل صلاة، ويعكف على كتابة طلاسم معقدة تعلمها من مجموعة رقائق عتيقة، قيل إنها إرث هاروت وماروت، حتى نظر في مرآة اليوم الأول بعد العام، ليظهر له الجني الذي أصبح (خديمه) ومرافقه لآخر يوم في حياته، ليتحول بعدها مايير لواحد من أعتى الـ(فقها) محترفي السحر الأسود، متمرس في (طي الأرض)؛ ينتقل من مكان لآخر في طرفة عين، ماهرًا في (الإخفاء)؛ يحجب نفسه عن الأنظار وقتما شاء. لكن ما عزز سلطانه وجبروته علاقته القوية بحاكم (تازة)، الطاغية ابن مشعل عاشق الماحيا؛ لا يحلو له تجرعه إلا من يد مايير، ولأن الدفع للإدمان وسيلة للتسلط؛ أصبح للأخير صلة قوية بابن مشعل منحته مكانة عالية ورهبة عظيمة في نفوس

العباد، خاصة أن الحاكم كان متجبرًا متوحشًا في زمن سادت فيه الفوضى والانقسامات، تخضع له المدينة خضوعًا تامًا لما يملكه من ثروة ساعدته على ملء مخازنه بالسلاح، يُنَزِل أقسى ألوان العذاب والإهانة بالمسلمين، ويتحكم بطرق التجارة بين المغرب والجزائر، مشتريًا الضمائر، حتى بلغ به الطغيان لإجبار القبائل المسلمة على إهدائه مئة فتاة عذراء كل عام هدية، مقابل الأمن والأمان.

نقطة ضعف وحيدة هي ما أنهت حياة مايير بصورة غامضة، كانت (زليخا) شقيقة ابن مشعل، فاتنة انتزعت قلبه، وألقته أسفل قدميها ككلب مطيع، تعلمت في المدارس الأوروبية فجمعت بين سحر الوجه واللسان، أجادت معظم اللغات الحية، فعينها شقيقها مترجمة للوفود الأجنبية وذراعه اليمنى التي لا غنى عن مشورتها، أحبها مايير رغم عشرات الجواري ملك يمينه، وزوجة وهبته ابنه الوحيد الذي انحدرت من نسله ماليكا. لكن لم تبادله زليخا الحب، مفضلة عليه خادمًا من المسلمين في القصر. تعجب الكثيرون لعزوف مايير عن استخدام سحره لتطويعها، وهو من يتلاعب بطلاسم (الجلب) و(التهييج) كما تتلاعب الريشات بالوتر! لكنه التزم الصمت رافضًا تبرير عزوفه، حتى أتت ليلة دموية تنكر فيها (المولى رشيد) وجنوده في أزياء العذراوات اللاتي أهدين إلى ابن مشعل، فقاموا عليه قومة رجل واحد وقتلوه. كان المولى يسعى لتأسيس حكمه في مدينة فاس، فخشي أن تطول مطامع ابن مشعل إليها. علمت بعدها زليخا أن عشيقها الخادم هو من كان يبعث بأسرار القصر للمولى وتسبب بمقتل شقيقها، فانتحرت من فورها بقارورة ماحيا خلطتها بسم زعاف. ورغم علم مايير بليلة المذبحة قبل حدوثها لم ينبه ابن مشعل، ظنًا أن بمقتله لن تجد زليخا سواه ملجئًا آمنًا، فأخطأت حساباته للمرة الأولى! اختفى بعدها تمامًا وأشيع أنه عاد للصحراء معاقبًا نفسه بالشتات الأبدي، تتناقل الألسن حكايات عن رياح ساخنة تزور تازة في المواسم، حاملة رمال صحراء وصراخًا ملتاعًا ينادي «زليخا».

* * *

(٢٠)

التفتت وفاء صوب باب المطعم فورما سمعت الأجراس؛ كان ويليام فتى الإزعاج! تلوح للمرة الأولى على قسماته أمارات تردد وارتباك. ألقى تحية الصباح بلطف واتخذ مجلسًا وسط المكان بعيدًا عن الواجهات الزجاجية، فاقتربت بخطى متثاقلة تمد قائمة الطعام، متسائلة عما يمكن أن يكون قد أتى به. الوقت بين موعد الإفطار والغداء. وحين همت بالمغادرة أوقفها: من فضلك، أحتاج للحديث معكِ.

ـ أنا؟! حسنًا كنـ..

ـ لن آخذ الكثير من وقتك، أخلفت لديكِ انطباعًا سيئًا، لكني آتٍ في سلام ولا أضمر إزعاجًا، خاصة وقد غادر رؤوف.

ـ تراقبنا!

ـ بل أتحين الفرصة للقائك، لا يسمح لي رؤوف بالحديث معك.

جلست تطالعه بريبة: وما الأحاديث التي يمكنها أن تجمعنا؟

ـ الكثير.. اسمي ويليام رؤوف الطبالي، على الأقل حين يسمح رؤوف.

تمتمت في ذهول بعربية لم يفقهها رغم انفعال أنبأه بما تعانيه: مستحيل!

تعصف تساؤلات وليدة الصدمة برأسها كداومة بحر هائج، تأخذها قبل الزمان وتعيدها لواقع موجع لا فرار منه. تفرست بملامحه رغمًا عنها.. كان نسخة منه، كأنها تطالع صورة قديمة لزوجها في شبابه، تراهن أنه في الثامنة عشرة؛ هكذا بدا رؤوف في مثل عمره؛ لذا كلما التقيا شعرت بشيء مألوف يجذبها إليه!

ـ ربما يستحيل عليكِ التصديق، وربما لن يسامحني رؤوف يومًا على مجيئي، لكن حين لا نملك ما نخسره نحتمل ما لا يُحتَمل!

ندت عنها ابتسامة مرتعشة: لا تحمل ملامحه فحسب، بل بعضًا من روحه وفلسفته أيضًا! يكفيني النظر في وجهك لأصدقك.

ـ توقعتك امرأة لطيفة، من الصعب أن تكوني عكس هذا مع كل الحب الذي يكنه لكِ لدرجة رفضه الاعتراف بي.

زفرت وفاء بمرارة متسائلة في نفسها عن أي حب يتحدث؟ ولماذا تشعر بغتة أنها وحيدة؟ المرة الأولى التي تدق فيها الغربة باب قلبها وتكتسح برودتها حجراته!

«بعد كل هذا العمر يا رؤوف؟ عمري!»

ـ سعت والدتي طويلاً لكي تخلق تواصلاً بيننا فرفض متعللاً بأنه لن يسمح بأن يكون سببًا في حزنك.

ـ يرفض الاعتراف بك بسببي! ـ أردفت بهدوء رغم ما يعتمل من غليان الخذلان داخل صدرها ـ أخطأ رؤوف لأني كنتُ سأسعد بمعرفتك، بل إني سعيدة بالفعل، ولا أدري كيف استطاع الابتعاد عنك لأجل سبب تافه مثلي.

ـ لستِ سببًا تافهًا وإلا ما فعل معي هذا! أوشك على دخول عامي الأخير في كلية الحقوق وما زلت عاجزًا عن ترك حكاية والدي خلفي، أرفض أن أعاني اليتم وهو حي يرزق، هذا حقي.. أم أني مخطئ؟

ـ أبدًا.. لست مخطئًا أبدًا.

ـ بالمناسبة، الأموال التي أخذتها منه كانت مجرد ذريعة للتقريب بيننا. أمي كانت بحاجة لمن يمنحها عاطفة تفتقدها بعد الكثير من تجارب فاشلة وشباب يوشك على أن يذوي. ورغم فارق العمر بينهما والاتفاق؛ أحبته، واكتفى هو بالحصول على الجنسية، ولا ألومه، فقلوبنا ليست بأيدينا. أملتْ حين قررت الإبقاء على الحمل أن أكون حلقة وصل بينهما، خاصة أنها كانت فرصتها الأخيرة في الحصول على طفل. ربما جيناته ما جعلتني عاطفيًا بسخافة لأصر على البحث عنه!

تطلعت للوحة النوراس في شرود، تسعى عينيها لعبور خط الأفق الأزرق في نهاية البحر؛ كأنه حين طالب الرسام بها كان يخلد واقعهما؛ النوراس الباقية على الدوام في حالة انتظار يقيني، والبحر يخفي بأحشائه أسرار تبدو حينًا قريبة تكاد تلمسها الأنامل وحينًا سراب يستحيل بلوغها.

كان على الحياة أن تكسره أمامها ليقبل بالاستسلام ويعي أنها جزء منه، ولو ظل طوال عمره في سعي للفظه؛ ليلة صعودها خلفه على السطح حين اكتشفت أنه عار! طرده سيد بعد نزعه ملابسه إمعانًا في مذلته، سعى لتهشيم روحه مرة أخيرة وللأبد ليعود له ذليلاً.. حطام رجل؛ كانت تدرك مدى توتر العلاقة بينهما، لكنها وفي أسوأ كوابيسها لم تكن لتتخيل أن يقوم أب بفعلة شنيعة كتلك. هرعت للأسفل في صمت ودلفت خلسة لغرفة شقيقها، سرقت بنطالاً وقميصًا من ملابسه، معاودة الصعود كطلقة رصاصة. ألقت إليه بالملابس وأولته ظهرها، يقطع نياط قلبها نحيبه المكتوم. منحته الفرصة كاملة لارتدائها وتعديل هندامه ثم اقتربت تربت على كتفه بنظرة متسائلة.

كانت الحمامة الرمادية قد عادت للسطح بعد انقشاع عاصفة الشجار، تهدل بين يديه المرتعشتين في استكانة، يضيء بين فينة وأخرى قسمات وجهه المتهدجة نور الفنار الدائر في الأفق؛ حزمة الضوء التي طالما حلم بامتطائها لتحمله بعيدًا عن واقعه المؤلم، حتى يفصل بينهما آلاف الفراسخ. انهار بغتة في البكاء وطارت الحمامة مجددًا، فشهقت بجزع وسارعت

تغمره بين ذراعيها متوقعة دفعة جديدة تلقي بها كقمع الآيس كريم على قارعة الطريق؛ فاستكان! كانت المرة الأولى التي يتلامسان فيها بحميمية بين الحطام، تهدهده كطفل صغير.

ـ ماذا فعل بك عم سيد؟

قال من بين نشيجه: يقول إني ابن الشيطان، لم أفعل شيئًا ليكرهني!

قالت بعد وهلة تردد: ربما.. ربما أعرف سر هذه الكراهية.

رفع رأسه ممسكًا ذراعها بقسوة آلمتها: تعلمين!

ـ ليست كراهية لك بقدر ما هي لنفسه التي تسببت في وجودك.

ـ فسري يا وفاء.. فسري، أنا في غنى عن الألغاز.

ـ سمعت مرة أمي تُذكِّر خالتي يسر بليلة حملها بك، لم تكن الكدمة قرب عينها جراء ضرب والدك قد تلاشت بعد، وقد ترك الخيط الطبي أثره القاتم على وجهها بعدما تركته لأسابيع غير عابئة بفكه؛ عاد في ليلة تسبقه شياطين الغضب، كانت كعادتها ممتنعة عن.. عن! ـ حثها بنفاد صبر فتابعت مطرقة ـ ممتنعة عن معاشرته، أعماه الغضب فضربها ضربًا مبرحًا ولم يكتف بذلك؛ عاشرها غصبًا حتى إنها كانت تصرخ (راكبك شيطان.. راكبك شيطان.. حسبي الله ونعم الوكيل)، سمعها الجيران وأمي ولم يجرؤا بالطبع على الاقتراب؛ وخلال أسابيع لاحت تباشيرك في رحمها.

ـ يكرهني لأني نتاج غضبه وقسوته عليها!

ـ يكره نفسه والذكرى فيك، مسكين بنفسه وأنت مسكين به.

انتبهت وفاء على نداء ويليام، مغرورقة العينين. قالت: أنت جميل يا ويليام، أوقن أنه سعيد بك رغم إنكاره.. الأحمق! لا أجرؤ على الحيلولة بينكما وإلا أصبحت مجرمـــ..

قطع حديثها صوته حين دلف بغتة من الباب: نسيت أن مكتب الشحن اليوم مغلق، يبدو أن ذاكرتـــ.. ويليام! ماذا يحدث هنا؟

سارعت بالنهوض تغالب دموعها الموشكة على الانهيار: لم يكن يجب أن تخفي عني شابًا رائعًا مثله؛ سأكون بالأعلى، أنتما بحاجة للحديث.

أمسك ذراعها متوسلاً: وفاء.. انتظري، أنا، أنا أريد أن أقول بأننـ..

ـ لا تقل شيئًا واغمره بين ذراعيك ـ تابعت حديثها بالعربية ـ استمتع بأجمل شعور يمكنك الظفر به في حياتك. أنت أب! سأذهب لأرتاح فتلك المفاجأة الـ.. الرائعة أكثر مما يحتمله قلبي العجوز.

ود الركض خلفها والجلوس أسفل قدميها طالبًا الصفح، لكن لم يجرؤ؛ قلبها العظيم الآن في حداد على عمر مضى زرعته خيرًا وحصدته خيانة ودناءة؛ ليتها تعلم أنه لم يفعل ما فعل إلا لتطال النجوم بيديها، ليوفر لها ما تستحق من حياة كريمة. لا.. كفاه كذبًا! ربما هذا جزء يسير من الحقيقة الكبيرة؛ إنه وببساطة لم يكتف بها!

ألقى بنفسه على المقعد كانهيار جبلي: حَطَمْتَهَا يا ويليام.

ـ لم أسعَ للحرب، منحتَهَا كل الحقوق سالبًا حقي، سامحني وسأسامحك.

رفع رأسه يتطلع لوجه ابنه المترع بالأسى: صفقة جديدة؟

ـ بداية جديدة.

ـ لستُ بحاجتك.

ـ بل تحتاجني كما أحتاجك لكنك تكابر، والجراح التي لا مفر منها بحاجة للوقت كي تطيب، سأنتظر منك اتصالاً لتدعوني على الغداء، تبدو امرأة حلوة المعشر وأنا في توق للتعرف إليها؛ أراك قريبًا يا أبي.

رغمًا عنه زلزلت الكلمة فؤاده (أبي)، للمرة الأولى يسمعها في حياته ولطالما تاق أن تكون من رحم وفاء. هو أكثر من يعلم أن الحياة لا تعطينا ما نحن في أمس الحاجة إليه؛ قواعد اللعبة على الأرض منذ الأزل، لكنه لم يستطع التعامل مع الحياة بنفس الخساسة واللؤم، فضل أن يكون شهمًا للحظة الأخيرة، داهسًا أبوته أسفل عجلات الرحمة والإنسانية؛ تُرى هل سينجح في جمع كل من يحبهم في كنفه؟ اكتشف الآن أنه بالفعل كان

يحب ويليام طوال الوقت مكابرًا كمن يخنق نفسه بيديه؛ لا هو بقادر على الإجهاز عليها، ولا قادر على بسط كفيه عن عنقه!

ابتسم مردداً بعينين دامعتين: ويليام رؤوف الطبالي يا وفاء!

وفاء مرفأ الأمان الذي يستقبله فاتح الذراعين، لتتعرى روحه أمامها بلا خجل، وتمنحه السكينة؛ تمرد طويلاً على حبها حتى روضته موقعة به كطير سمان بفخاخ حنانها. كيف إذن ينساها وهي الذاكرة بذاتها؟ رغم اعتياده فيما مضى على تطويع ذاكرة سريعة النسيان ليسرع التعافي، مع تعمد سيد انتهاك كرامته مرارًا وأمام الناس؛ لكن كانت الحسنة الوحيدة بعد تلك الليلة المشؤومة هي علاقته بوفاء؛ باتا أكثر قربًا وأصبح أكثر وعيًا واعترافًا بحقيقة مشاعره.

هبط يومها باحثًا عن النقود في كومة الغزل حتى عثر عليها؛ طار صوب حانوت صغير يبيع الأسلحة في شارع الحميدي لا يغلق أبوابه خوفًا من اللصوص؛ واشترى قطعة مستعملة بدت بحالة جيدة بعد قيام البائع بتلميعها وتنظيفها، متجهًا من فوره صوب جبانة الإنجليز. ربما دفع ثمنها مذلة وإهانة ووجعًا، لكن كله يهون لأجل خاطر يسر. لم تكن حينها بحيرة المنزلة قد انحسرت تمامًا وغزا العمران المنطقة، ومع توافر الغاب بات المكان مرتعًا هادئًا لمن هجروا البلاد الباردة صوب خريف بورسعيد الدافئ. جلس القرفصاء متربصًا بين الشجيرات القصيرة المحيطة بشواهد القبور، يكتم أنفاسه، غير عابئ بوحشة المكان الخالي سوى من رقود أسفل التراب. كان قد أتى من قبل برفقة أصدقائه وتدرب على بنادقهم، وأصبح قادرًا على التصويب وبدقة من مسافة بعيدة. حين شعر بحركة طفيفة بين الشجيرات تأكد من تحميل الذخيرة، وضيق عينيه مصوبًا نحو الهدف، ثم سحب الزناد لينطلق صوت الكرات الحديدية الصغيرة في السكون كزخات مطر لثانيتين عاد بعدها الهدوء، سارع لجمع فرائسه بلهفة فيما لاحت تباشير الصباح حاملة ملامح انتصاره الصغير. سار منتشيًا في الشارع الهادئ، يحمل غنائم الموقعة ولا تزال الأرصفة تغط في نوم عميق، وأعمدة

الإنارة الأرقة يبدو عليها الإرهاق. كانت خطواته بطيئة بعض الشيء ولا تزال آثار الضرب تسيطر على عضلاته المتألمة، لكن الدماء الساخنة في عروقه تدفقت بالحماس متخيلاً نظرة عينيها حين تقع على ما أتى به. لم يعبأ باحتمالية مقابلة سيد؛ وجعل يصفر مرحًا بإحدى أغنيات السمسمية التي علمها له جده حسن رحمه الله والتي تلقاها بدوره على يد والده صالح. فتحت يسر الباب بجزع فيما تعالى صوت والده الجالس على الأريكة الخشبية: أين كنت يا بن الكلاب الضالة؟

دلف يربت على كتفها مطمئنًا إياها، ورفع يده الحاملة لغنيمته بفخر: أحضرت هذا لأجلك، اصطدته بنفسي.

شهقت يسر بدهشة: طير! أحضرت طيرًا يا رؤوف. لكن كيف؟

ـ ادخرت بعض المال واشتريت بندقية للرش، من الآن فصاعدًا سنُدخِل لقائمة طعامنا طيرًا وبطًا بريًا، أنا صياد ماهر.

ساد صمت ثقيل حين نهض سيد يعتصر قبضتيه بقسوة، شاخص البصر صوب طيوره السمينة، يساقط عليه وميض الفخر في عيني رؤوف حفنات من جمر، يحول أنظاره بينه ويسر التي تطلعت نحوه تتوسل ألا يؤذيه، فأشاح مغادرًا الشقة طارقًا بابها بعنف؛ ليلتفت رؤوف إليها قائلاً: لا تقلقي لم يكسرني بعد. قومي بدعوة العائلة كلها يوم الجمعة على وليمة طير محشو وصينية بطاطس سأذهب بها إلى الفرن بنفسي، لا تحملي همًا بعد اليوم.

رفعت ذراعه المكدومة من الخيزرانة، وطبعت قبلة حانية فوق يده الممسكة بالطير، متمتمة: (ولما قالوا ده ولد، انشد ضهري واتسند).

كانت ليلة فاصلة؛ آخر عهده بالضرب من والده! انهزم يومها شيء بداخل سيد مدركًا عجزه عن تحطيمه، خفتت عجرفته وشعر بالمذلة بعد رؤية الزهو في عيني يسر حين دلف رؤوف بالطير، لكنها أيضا كانت ليلة اختمار لبنة حلم بمستقبل جديد؛ فرغم ضيق الأرض عليه بما رحبت؛ ومكان لم يعد يتسع لهما معا، وقد ضَج بالقسوة غير المبررة ودناءة الطباع

القميئة وسوء المعاملة؛ لم يكن سيد السبب الوحيد في البحث عن منفذ للولوج منه صوب حريته! غدت بورسعيد تلك المدينة الصغيرة مقبرة لآماله، تنكمش شيئًا فشيئًا مُحيلة عالمه لثقب إبرة لا يمنحه فسحة للتنفس. ولأن لوطأة الأحلام وإلحاحها قدرة شرسة، كان عليه الاختيار بين الاغتيال داخل حدود وطنه بقبضة أحلامه أو احتمال الاغتيال خارجه بقبضة الغير. كان قد بلغ العشرين من عمره حين تقدم بطلب هجرة لأستراليا، لسهولة التحصل عليها في ذاك الوقت. لم تقف يسر في طريقه، أومأت بهدوء وعكفت على تصليح غزل بين يديها كأنها ترى ما وراء الغيب! كان لا يزال وحيد والديه وإعفاء الجيش يذلل الخطوة الأخيرة، لكن والدته حامل بطفل تأخر مجيئه، فلم يعبأ سيد بتوسلاته مُصِرًا على إبقائه تحت رحمته؛ بتسجيل شقيقه في سجل المواليد قبل موعد سفره بشهر؛ ليخفق في الحصول على التأشيرة التي سحبتها منه السفارة لأنه لم يعد ابنًا وحيدًا وعليه قضاء التجنيد. خسر فرصة الهجرة وشقيقه الذي توفي بعدها بأسبوع! وحين حاول تقديم الأوراق طلبا للهجرة مجددا، كانت أستراليا قد أغلقت أبوابها في وجه الجميع. لكنه لم يفقد الأمل، ظل يركض لاهثًا نحو غاية تبدو له مضيئة، متغافلاً عن نورها المحيط به؛ فقد تبعته وفاء عن طيب خاطر بنفس شغفه وحماسه للوصول، أجادت إخفاء ما يعتمل بها من إحباط لعدم اكتفائه بها، وأعلنت صراحة أمام الجميع أنها معه ولو لأقاصي الأرض؛ صامة أذنيها عن محاولات إثنائها ومشاجرات والديها متهمين إياها بالجنون. تلمست العذر للجميع؛ لم يقم أحد بهذا من قبل، دومًا كانت محاولات التسلل للشواطئ الأوروبية تخص الرجال، لكنها لم تكن امرأة عادية، كانت امرأة عاشقة حتى النخاع. وبعد محاولات مضنية للإقناع من كلا الطرفين انتصرت وفاء وعقدا القران بعد خداع والديها بأن ثمة عملاً في انتظاره، متسترين على أمر التسلل المهول.

لم يملكا آنذاك من حطام الدنيا سوى أربعة آلاف جنيه؛ حصيلة جمعية ليسر مع جيرانها، ومبلغ اقترضه رؤوف من أصدقائه، كما باعت وفاء أساور

يدها الذهبية وسلسلة آية الكرسي؛ هدية والدها في عيد ميلادها، وضمتها إلى مبلغ صغير كان قد اقتصده رؤوف. لن ينسى يومًا نظرة عينيها الملتمعة بالفرحة حين جلست إلى جانبه بعدما حصلا على تذاكر للسفر بالأتوبيس إلى ليبيا، تتطلع عبر النافذة للصحاري الشاسعة التي يمرون بها، غير مدركة أن مشقات الرحلة المرعبة لم تكن قد بدأت بعد، لكنه أشفق عليها وقرر عدم إفساد فقاعة سعادتها ولو لبعض الوقت. كان المفترض بهما الهروب إلى إيطاليا عبر البحر عن طريق ليبيا، وكعادة تلك الرحلات كانت مركب الصيد كارثة محققة، اندسا فيها مع بعض الساعين كحبات بازلاء في غرفة الماكينات، تدوي بآذانهما تعليمات البحارة الذين حصلوا على جزء كبير من المبلغ القليل الذي بحوزتهما.

ـ لا شأن لنا بكم بعد الهبوط إلى البحر، أنتم وأقداركم وجهًا لوجه.

لم تفارق الابتسامة المطمئنة شفتيها سوى لحظات قليلة حين أمرهم البحارة بالنزول لعرض البحر، فأمسكت بيده هاتفة: الله معنا وأنا معك.

كان يتساءل: مم صنعت هذه المرأة؟! أنى لها كل تلك الشجاعة؟ يعترف الكثير من الرجال أنهم يبحثون عن أمهاتهم في وجوه الحبيبات، لكنه لم يتكبد عناء البحث لأن وفاء كانت وفاء.. وكفى. كانا ماهرين في السباحة والفضل لجدهما حسن؛ قطعا المسافة نحو الشواطئ الإيطالية أسرع من الباقين رغم سقوط اثنين غرقى، وعجزهما عن التوقف للإنقاذ أو المعاونة، خاصة وفي قاع البحر متسع لمن يغفل! وحين لم يعد يفصل بينهما وبين الشاطئ سوى خمسمئة متر تقريبًا، انتظرا قليلاً لالتقاط الأنفاس ثم خلعا سترات النجاة وملابسهما القليلة مكملين المسافة المتبقية دونها، وقد حرصا على ارتداء ملابس السباحة أسفلها ليظهرا كمصطافين فلا يثيرا الريبة. كانت أكثر اللحظات خوفًا وبشاعة، وقد أخفت وفاء أسفل ملابس السباحة كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا يحوي بعض النقود وأوراقهما الثبوتية وعناوين وأرقامًا لهواتف بعض من المعارف والأصدقاء بإيطاليا؛ يجب عليهما الاتصال بهم فور الوصول، وقد قاما بسرقة بعض الملابس وهو

ما لم يتخيل أي منهما أن يضطر للإقدام على فعله يومًا.

مكثا في ميلانو لشهرين لدى صديق كان قد سبقهما إلى هناك قبل سنوات، لكن النقود كانت تتناقص بسرعة الضوء، ومن سيحتملهما شهرين لن يحتملهما لبقية العمر! لولا نجدة من السماء بعثوره على عمل في تقطيع السيارات؛ لتمر الأيام بعدها هادئة حتى استطاعا استئجار شقة صغيرة بعيدًا عن الأعين؛ لتتحول العلاقة بينهما أخيرا لعلاقة زوجية حميمية بعد شهور الحرمان، ولحسن حظهما لم تكن إيطاليا حينها تكترث للهجرة غير الشرعية والبحث عن الهاربين لترحيلهم؛ فتقدما بطلب للإقامة بضمان عمله نظير مبلغ من المال يُستَقطع من راتبه شهريًا، وتقدمت وفاء أيضا بطلب لمكتب العمل كي تحصل على وظيفة لتبتسم لهما الحياة أخيرا، استطاعا تجديد الإقامة لخمس سنوات واقتصدا مبلغا جيدا من المال، فقرر أن الوقت حان للخطوة المؤجلة. كان فرسًا يسيره جموحه المتقد بلا هوادة، وخاصة أن حلمه أكبر من أن تحتويه إيطاليا، فكانت (لندن) محطته التالية مقررا القيام برحلة تسلل جديدة.. وأخيرة!

* * *

(٢١)

كانت فرصتها الأخيرة؛ لذا حين تنوي التظاهر عكس حقيقتك تحتاج للبراح واتساع الأمكنة، يكفيك ضيق الحصار الذي ستمارسه عليك نفسك! رأت زاد أن أفضل مكان تمارس فيه الزيف أكبر مكان بقلب لندن؛ الـhyde ـ park، مكان سيتسع للفتاتها الهاربة من نظراته المسلطتين كضوء كشاف يلاحق سجينًا هاربًا، وربما تحمل الرياح زفراتها الساخنة اضطرابًا لحضوره المربك. راغب مصل الحقيقة! يحاصرها ضاغطًا على أعصابها حتى توشك على الاعتراف بكل شيء وهي بحاجة لإخفاء الكثير. حين هبطت من الطابق الأعلى بعد يومين من لقائه عند رسم الجرافيتي، وجدته يقف مع والدها يتحدثان بأريحية، يلقي أسئلة رآها الأخير آمنة؛ لا سيما وهو مصري ولا ضرر في التحدث معه، خاصة وقد دار الحديث عن عشقه للأماكن السياحية العتيقة بقلب القاهرة، أرهفت السمع وعرفت أنه أتى مستكشفًا! يبدو أنه تبعها من المسرح حتى باب البناية دون أن تشعر؛ توسمت في نفسها ذكاء ظانة بقدرتها على خداعه!

نظرت في ساعتها آملة بأن يتاخر لتملك ذريعة للرحيل، فانشقت عنه

الأرض بغتة! اندهشت من إذعانه لرغبتها بمقابلة نهارية في ظل تلويحه الدائم بليال صاخبة برفقته. كان يرتدى بنطالاً جينز ثلجيًا وقميصًا رماديًا مفتوح الأزرار حتى عظمة القص، ما أتاح لضوء النهار الباهت مداعبة سلسلته الفضية، تسبقه ابتسامة متكاسلة كشفت عن أسنان منمقة. يضيق عينيه تسلية.

ـ مكان مثالي للاختباء.

كانت جملته الافتتاحية غريبة، لم يقل حتى صباح الخير! تصنعت الثبات، تدس يديها بجيبي سروالها الأبيض القصير، وقد حرصت على ارتداء حذاء رياضي ليسهل السير وبلوزه بلون وردي لئلا تضايقها حرارة الأجواء المتوقعة، مكتفية بلف وشاح حريري مرقط حول رقبتها تحسبًا لهبوب رياح باردة في نهاية اليوم. تدرك أن ما هي عازمة على فعله حماقة ربما لا تغتفر، لكن من بيده حقًا القدرة على الغفران في هذا الزمن؟! شيء عليها فعله شاءت أم أبت، فقط كي لا تعود إلى هناك.

وضعت نظارتها الشمسية فوق عينيها، قائلة: وممَ سأختبئ؟

ـ لم أقل إنكِ من يود الاختباء، كنت أتحدث بشكل عام ـ أشار نحو المدخل الرخامي للحديقة ـ مساحة الحديقة تصل لثلاثمئة وخمسين فدانًا، مكان بالفعل مثالي للهروب والاختباء، والآن.. هل نذهب؟

أومأت بصمت ليعبرا معًا إلى الداخل، كان الطريق المعبد طويلاً لدرجة أن أنظارها لم تلتقط نهايته، على جانبيه مرجتان شاسعتان من الحشائش الخضراء، تنتصب فوقها صفوف من الأشجار مختلفة الألوان والأشكال كالحراس. لم تخطئ الأرصاد؛ الطقس بالفعل مرتفع الحرارة، لندن مدينة تتقلب فيها الفصول الأربعة في اليوم الواحد، لكن الشهرين المنصرمين من الخريف كانا غاية في البردوة، لذا كان طقس اليوم غريبًا على معظم الكائنات الحية في المنطقة، ما جعلها توقن بمقابلة أصدقائها. حاولت تسرية نفسها المضطربة بشغل أنظارها فيما حولها، خاصة وكل شيء يدعوها للسكينة. ران الصمت عليهما لكنه كان مثلها صاخب الدواخل؛ هي من

طالب بأن يلتقيا وأتى رغم سخافة الفكرة واعتياده على المقابلات في أوقات أكثر هدوءًا وأماكن أكثر خصوصية. خرج من صراع مرهق قبل فترة ليست بالقليلة، ومع هذا يسعى لخوض غمار مغامرة جديدة، وليتها مغامرة سهلة ستمنحه الاسترخاء المطلوب! ينبئه حدسه أن وراء السائرة إلى جانبه حكاية معقدة رغم تظاهرها بالعكس، أخرسته المفاجأة حين تحدثت إليه بالعربية في المرة الأخيرة، طالعها تبتعد راكضة كتلميذ أبله ألقى عليه أستاذه معلومة ذرية! الكارثة هي عشقه للتعقيد رغم أنه في غنى عن المزيد.

ندت عنها صرخة متفاجئة حين قطع طريقهما سنجاب يركض بين المرجتين، تسمرت في وقفتها واضعة يدها فوق صدرها بعدما سقطت حبة الجوز من فمه أسفل قدميها. وقف السنجاب لجزء من الثانية يقدر الموقف، يتبادل وإياها النظرات، ثم حسم أمره والتقط الحبة بسرعة البرق مكملاً طريقه. زفرت أنفاسها، تتبادل بدورها النظرات مع راغب لوهلة، ثم انفجر كلاهما بالضحك.

ـ هل رأيتِ كم كان من الشجاعة بأن يبادلك النظرات واحدة بواحدة؟ لم يتخفَّ مثلك خلف نظارة التهمت نصف وجهه وقبعة أخفت غرة الفرس الفاتنة ـ مد يده مزيحا كليهما ـ أريد رؤيتك بوضوح كما ترينني.

في موقف كهذا كانت ستعترض بشدة، وتجذب من بين يديه أشياءها التي لا تسمح لأحد بالاقتراب كفاية ليلمسها؛ لكنها حاليًا في موقف الضعيف، لا يجب أن تفتعل شجارًا؛ انفجار البركان يبدأ بغليان صغير في الأعماق، وهي تحتاجه هادئًا ليستقبل المفاجأة. تماسكت قدر استطاعتها متصنعة اللامبالاة؛ لم يكن طوله الفارع وضخامته يخيفانها نظرًا لطولها لكنها جرأته، حقيقة انعدام ما يمكنه ردعه عما يرغب، وهو ما لاحظته منذ لقائهما الأول، لذا حين اقترب بقدر سمح له بالإمساك بحقيبة وسطها وفتح السحاب ليضع أشياءها بداخلها؛ أبقت على هدوئها محتفظة بابتسامة مسترخية.

ـ ازفري أنفاسك، لقد ابتعد الخطر.

ـ ترى نفسك خطرًا؟ يا للتواضع!

عض على شفته السفلى: شخصيًا لا، لكنكِ من يراني خطرًا محدقًا، ولم أقم بشيء يوحي بهذا حتى الآن، على العكس، أنتِ من آذاني.

أشار لكتفه فأطرقت محدقة بالأرض، تداعب بطرف حذائها شيئًا وهميًا، مد يده يهم بالإمساك بذقنها، فعادت إلى الوراء خطوة وهمت بأخرى لولا تذكرها السبب الرئيسي لمقابلته: آسفة، لكن، تعلم أنك من قام بـ...

ـ أنا الآسف، تعاملت بجرأة أكثر من اللازم رغم أن لي عذري، ليل لندن يحمل من الإغراء الكثير والمباحات هنا أكثر من المحظورات! كما أنكِ من أخفى هويته، لكني حصلت على عقابي المستحق.

تسللت أنظاره بعيدًا عن ذقنها المرفوع بشموخ نحو شامتها الشبيهة بحبة تين ناضجة فوق عنقها الرشيق، يتساءل في نفسه عن طعمها حين يذوقها بقبلة طويلة متمهلة! همت بمعاودة السير فأمسك ذراعها التي تصلبت أسفل أصابعه: ما رأيك بأخذ قارب في البحيرة؟ أقمت هنا طويلاً ولم أزر الحديقة! ربما لأني كائن ليلي أو لأن الأجواء النهارية لم تثرني قبلاً.

ـ موافقة ولكن بشرطين.

ـ ليكونا أمرين.

ـ نركض المسافة من هنا حتى البحيرة، وأنا من يجدف.

ابتعد هاتفًا: إذن هيا، لا وقت لدينا لنضيعه.

أدرك أن ركضها محاولة جديدة للتخلص من التوتر، ملاحظًا أن الرياضة والبالية هما ما يستحوذان على كيانها دون أن يزاحمهما شيء آخر. وخلال دقائق كانا على متن قارب خشبية بقلب البحيرة الواسعة، استأجره بمجدافين كما طلبت، وأتاح لها القيادة تبعًا لرغبتها، ليغرقا مجددًا

في صمت تخلله هديل بعض الحمام على الشاطئ الحجري، وبطبطات بط عائم في استكانة، يتابع الزائرين يمارسون الركض بين طرقات الحديقة ويتنزهون مع حيواناتهم الأليفة، وبعض الصغار متجمعين حول كشك صغير يبيع الآيس كريم.

ـ هذا مكاني المفضل، انظر! ركن المتحدثين (speaker corner) يمكن لأي كان أن يخطب ويتحدث في أي موضوع يشاء. كثيرًا ما تخيلت نفسي هناك، فكرت فيما سأفعله وأقوله ـ استدركت باهتمام ـ إن حدث ووقفت أمام جمع من البشر ماذا ستقول؟

أطرق مفكرًا لبعض الوقت: سأكتفي بمراقبتهم حتى يصمتوا. ألم تؤلمك ذراعيكِ؟

ـ لا يرهقني التجديف فلا تيار معاكسًا، كما أنه تمرين جيد لعضلات ذراعي، ماذا تعني بأنك ستراقبهم في صمت؟

ـ أخبريني أنتِ، ماذا ستقولين في موقف كهذا؟

ـ سأرقص؛ الشيء الوحيد الذي أمهر من خلاله في التعبير عن نفسي، لا حاجة لحديث شفتين وجسدي كله يتحدث، وأنتَ.. لمَ سترقب في صمت؟

ـ انتظارًا ليهدأ الصخب. هيا، دعيني أساعدك، لا تكوني عنيدة.

أشارت برأسها في سعادة: لا داعي، لقد وصلنا.

رفع حاجبيه دهشة حين وقعت أنظاره على مجموعة من البجعات البيضاء متحلقات حول بعضهن البعض يعمن في دعة، بينما أخرجت من حقيبتها كيسًا به فتات خبز وألقت بعضه في الماء، لتقترب اثنتان منهن تلتقطانه بمناقيرهما. قالت وابتسامة تضيء وجهها: فاتنات!

أشار لإحداهن تفرد جناحين بلون سحاب ربيعي متمطية، ورأسها ذو المنقار الذهبي يرتفع بخيلاء فاتن: انظري لتلك هناك! تذكرني بكِ ليلة العرض، مها كانت ستفقد عقلها إعجابًا، للحق كنتِ رائعة ـ أطرقت

في صمت ـ أيصيبك الخجل كبقية الفتيات يا ميليت؟ احمرت وجنتاكِ!

ـ اسمي زاد محمد الطيب.

ـ الطيب لقب عائلتك! يبدو والدك رجلاً حلو المعشر.

ـ محمد أروع أب في الدنيا، هو من جعلني ما تراه الآن؛ نعيش وحدنا أنا وماما، أعني.. أنا وبابا، توفيت والدتي وهي تلدني ـ عاودت التطلع للبجعات في شرود ـ علمت أني سألتقيهن اليوم، ارتفاع الحرارة أجبرهن على القدوم صوب البحيرة، أحب رفقة البجع، أتعلم أنه يملك أطول جناحين في فصيلة الطيور؟ كما أن به صفة مميزة جدًا؛ يولد غاية في القبح متحولاً مع الوقت لهذه التحفة.

ـ لا أظنه شكلها فقط ما يجذبك إليها.

ألقت بعض الفتات في البحيرة فاقترب المزيد من القارب حتى أوشكن على ملامسته، لتضحك بسعادة آسرة أنظاره: يمكنك القول إن بيننا تاريخًا قديمًا؛ لاحظ والدي وقوفي على أطراف أصابعي ولم أبلغ الثلاث سنوات ونصف! هكذا ببساطة كنت أفعلها مرارًا وتكرارًا وباستمتاع، تتعلق عيناي بشاشة التلفاز التي تعرض مقاطع من (فن البالية)؛ كان والدي حريص على متابعته، أمد ذراعي كما تفعل أوديت بجناحيها، أنحني مثلها، أدور مثلها، وحين أفقد اتزاني في أثناء محاولاتي الوقوف على قدم واحدة وأقع أنفجر في بكاء مغتاظ. أدرك والدي شغفي بالأمر، خاصة وقد وقعت على ذقني وجرحتها هنا ـ أشارت نحو أثر غائر بذقنها ـ ربت يومها على وجنتي هامسًا (أعدك أن تصيري بالغد بجعة)، وفي اليوم التالي سجل اسمي في مدرسة البالية.

ـ لمَ تتوارين خلف اسم مستعار وشخصية وهمية؟

ـ والدي اختار لى الاسم؛ لا أحب الإعلان عن أصولي، لن أحصل على ما أصبو إليه أن طاردني منبتي، تعلم أن العرب لا يملكون هنا سمعة جيدة. أتيت في بعثة تابعة للمعهد، ولأن عمتي (حرية) تقيم هنا منذ زمن بعيد؛ ذللت لنا الكثير من الأمور.

اقترب ملقيًا نظرة خاطفة على أثر الجرح، وعاود التطلع لشامتها: جرح غائر بالفعل!

اهتز القارب فجأة يعلن عن اعتراضه، فصرخت بفزع ممسكة بالمجدافين، ليسارع بدوره ويمسك طرفي القارب بكلتا يديه حتى هدأ الاهتزاز، كانا قريبين جدًا، فقالت هامسة: لعينيك طقس لندن الضبابي!

ـ لم أقترب قبل من امرأة بشعر بنفسجي وشامة بلون التين، تنافس عيناها اتساع البحيرات اللندنية.

لاحت على وجهها أمارات امتعاض وفتحت زجاجة الماء، ترتشف بعضه ثم بصقت في البحيرة، وقالت: أملك أخرى مثلها في موضع آخر.

ازدرد ريقه متسائلاً: أين؟

ـ ثمة طريقة لتعرف مكانها؛ هل تتزوجني؟

* * *

(٢٢)

دخل محمد غرفتها ليتأكد من استعدادها لاستقبال الضيف المرتقب؛ كانت جالسة على الأرض فوق حاشية من الجلد أحضرها معه من الحسين، تمسك بكتاب ألف ليلة وبجانبها طبق من التوت الأسود، أبدى دهشته لتجيب:

ـ أنا جائعة، وتعلم أن سعراته الحرارية قليلة.

جلس بجانبها قائلاً: أخبريني يا زاد، هل استطاع هذا الراغب عبور الأسوار؟

تنهدت ساهمة: لا أحد يستطيع عبور الأسوار لكنه لطيف؛ اكتفيت بشرف محاولته، تعلم أن الأمر ليس بالهين.

ـ وهل يكفي شرف المحاولة؟ نحن الآن بانتظاره يا حبيبتي!

ـ يكفيني أنا يا ماما.

ـ لم أقابله رسميًا بعد لكني قلق؛ كيف ستحتملين فكرة الزواج وأنـــ...

قاطعته: سأحتمل يا ماما، سأواجه كما طالبتني مرارًا.

احتضنها يقربها منه، طابعًا قبلة فوق وجنتها، ليستشعر تصلبها! جذب الكتاب من يدها وألقى نظرة على المقطع الذي تقرأه، قائلاً: (علي شار وزمرد)؟ حكاية لطيفة، أخبرني جدك أن البطل يذكره كثيرًا بنفسه؛ صعلوك مثله يهوى الحياة الهيبية.

ـ كثيرًا لا أصدق أن النسخ التي أقرأها من ألف ليلة بخط يديه، أعجز حقًا عن استيعاب الفكرة! كيف احتمل بصبر نسخه وبكل دقة؟ أعلم أنه ليس الكتاب الوحيد فلدينا الكثير في مكتبتك بخط يديه؛ كتب في العطارة والتداوي والسحر والطلاسم، منها العلمية والفلسفية لكن هذا الكتاب به الكثير من التفاصيل ومئات الصفحات، ألم يمل أو يتعب؟

ابتسم مقلبًا الصفحات: كانت بديعة تنام على صدره مستمعة لدقات قلبه وصوته، يقرأ لها كل ليلة جزءًا جديدًا مما نسخ، وكلما وصل لمقطع يقطر وقاحة تضحك بغنج قائلة: (اختشي يا عبده)، فيقهقه بمكر: (لست أنا من يقول يا بدعدع بل الكتاب)، قصت عليّ الكثير بعد وفاته؛ حين لم يعد هناك ما تملكه من رائحته سوى الذكريات.

ـ العلاقة بينك وبين جدتي بديعة فريدة من نوعها ـ همت بالتقاط حبة توت مستدركة ـ لكن لم تخبرني ماذا حدث لمنتهى؟ هل أبرت بوعدها؟

ـ أجل. وكان سببًا في ذبحها بالسكين؛ رفضت إقامة علاقة مع أحدهم. قاتل مأجور كان قد انتهى لتوه من إتمام مهمة ملقيًا المال أسفل قدميها، ليصيبه الجنون حين رفضت!

ـ يا للبشاعة! وماذا فعل جدي؟

ـ كانت صدمة عمره؛ الكارثة أن لا أحد جرؤ على الإرشاد عن البلطجي أو الشهادة ضده خوفًا من بطشه. عزف جدك عن الطعام والشراب سوى النذر القليل، رفض الترتيل والإنشاد واعتكف في خيمتها يقرأ القرآن في صمت، تجري دموعه أنهارًا على وجنتيه بصحبة قطتها السيامي التي التصقت به كيتيم فقد أمه. كثيرًا ما رأيته ينهنه كالأطفال وهو يقرأ القرآن ـ شرد لوهلة

ـ أتذكر الآن أمرًا أخبرني به؛ عثروا على البلطجي مُلقى خلف الخيام فاقد الوعي، عاريًا.. ومخصيًا!

ـ لا أظنك تعني أنه كان له يد في الأمر!

ـ لا أدري، لكن تلك اللمعة في عينيه آنذاك وهو يخبرني كانت تنبئ بالكثير، خاصة حين أطرق بعدها مرتلاً ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾. ظل لفترة يعاني عذاب فقدانها وتأنيب ضمير لاهب كالسياط، ثم بين ليلة وضحاها عاودت نفسه الأمارة بالحياة مراودته. أتعلمين أني قرأت مرة عن مرض يدعى نقص الانتباه وفرط النشاط؟ فتذكرت جدك؛ ثمة تفسير لتلك الشخصية الغريبة التي لم يستطع حتى حب جدتك بديعة ترويضها!

ـ لماذا لم تفكر جدتي في التخلص من زيجة أتعستها؟ أمكنها البدء من جديد مع رجل آخر يسعدها بدلاً ممن عذبها بقسوته.

ابتسم محمد: لم يحمل جدك أي ملمح قسوة، على العكس كان رجلاً حنونًا لأقصى درجة طوال فترة بقائه معنا. كما أن بديعة رغم جمالها وذكائها؛ تظل في النهاية امرأة مهيضة الجناح تشبه كل نساء عالمها القديم؛ لم تكمل تعليمها معتمدة على غيرها ليؤمن لها الحياة بداية من والدتها وانتهاء بجدك، لكن الأهم من هذا أنها كانت ملعونة بهذا الحب.

ـ أتعني أنه استخدم اتصاله بالعالم السفلي ليوقعها في حبائله؟!

ـ عبد السلام لم يكن بحاجة لشيء من هذا القبيل، كما أنه لم يكن يستخدم علمه سوى في أضيق الحدود؛ لدرجة استشعاري أحيانا مقته لتلك القدرات وتمنيه في قرارة نفسه أن تؤول إلى زوال. كانت اللعنة هي عبد السلام نفسه وشخصيته الغريبة، وما يملكه كما يقولون الآن من Sixabbeal! جاذبية قاتلة وتناقض ساحر. حمقى من ظنوا أن مس الجن من الأذى، فمس الإنسي أكثر أذى مما يمكن أن يدركه العقل، وكانت بديعة أكبر دليل؛ استحوذ عشقه على كيانها كطلسم فكه محال!

أدارت إحدى أغنيات هاتفها فتعالى صوت المطرب يوناني الأصل ديموس أريسيانو بأغنيتها المفضلة دموع وأمطار، قائلة بحسرة: وكالات الأنباء نشرت اليوم خبر وفاته، مات ديموس! من أطعم جدتي الفينيكا بيديه.

ابتسم قائلاً: امتلاكنا حكايات دسمة أمر يشكل وجداننا، فنصبح بلحظات مرآة بلورية نعكس الذكرى ونحمي تفاصيلها من الغياب.

* * *

ربما عانى عبد السلام حقًا من داء ضعف الانتباه وفرط النشاط، تعامل مع الدنيا كنحلة دائمة البحث عن الرحيق، لم تتبدل أحواله لعامين كاملين بعد فقده منتهى، حتى رآها! بديعة الشطوية، فتاة بقد مياس، ووجه بدا أسفل يشمكها كالبدر، بعينين زمرديتين يفصلهما قصبة من ذهب، وخصلة من غرتها بلون القصبة مسدلة على جبينها القشدي كشبكة صياد، توله في حبها من النظرة الأولى، وأمعنت في صده حتى أعياه الشوق. طالعته في المرة الأولى بابتسامة إشفاق، ترجمتها نفسه المجذوبة بسؤال: «من تكون يا مسكين لتفكر بالاقتراب؟»

فحرص على الظهور بمظهر أفضل في اليوم التالي، مرتديًا ثيابًا جديدة اشتراها خصيصًا لأجلها ما زاد بهاء طلته، أما النظرة الثانية فتلفتت من حولها بازدراء كمن يقول: «ما هذا العالم القذر الذي تعيش فيه؟!»

فكان اليوم التالي حقبة جديدة من حياته؛ عمل لدى خياط للجلابيب المطرزة، واستغرقه الأمر ثلاثة أيام ليمهر في الحياكة بأدق الغرز وأصعبها، كان عبقريًا كما يقولون في (سبع صنايع)، يتعلم الصنعة فقط لإلقاء عبء التفكير فيها عن كاهله ويبحث عن غيرها! وكل ما احتاجه الأمر هو كعب أحمر يكشفه طرف ملاءة حريرية، ليبيع الدنيا وما فيها!

كانت بديعة يتيمة أب لم تلتقه يومًا؛ لم تؤكد لها والدتها نعيمة أن

كان على قيد الحياة أم رحل للعالم الآخر، لكنها أخبرتها بعملها كراقصة لسنوات في ملهى ليلي بطنطا، بعد هروبها من قريتها في ليلة أحكمت فيها غواية شاب مليح ضيق حلقاته على روحها وعقلها التواقة للحياة، بعيدًا عن فقر القرية وظلامها وقذارة شوارعها الطينية وزرائبها الخانقة، فاستنتجت بديعة أنها إما سليلة أحد البلطجية وإما أحد الزبائن، لكن ما أكدته والدتها مرارًا وأقسمت به على المصحف إنها ليست ابنة حرام، صرحت بنبرة لا تقبل النقاش بأن التطلع إلى الوراء عرقلة ستؤدي حتمًا للأذى. حين علمت نعيمة بحملها قررت أن الوقت قد حان للتغير؛ فاعتزلت الرقص وجمعت المبلغ الذي ادخرته لتشتري مخزنًا كبيرًا في شارع بعيد عن الملهى، تبدأ فيه حياة جديدة بلا شواهد الماضي، حريصة على تأمين حياة كريمة لابنتها افتقدتها هي طويلاً.

كانت بديعة امتدادًا لجمال نعيمة وبديع تكوينها وفرعًا من المستحيل انفصامه عن شجرة الأم؛ حتى ظهر عبد السلام في الأفق معكرًا صفو حياة الأخيرة. جاهدت نعيمة طويلاً لإثنائها عن الزواج به متعللة ألا مستقبل لصعلوك مثله، وأنها بهذا ترتكب خطأ جسيمًا في حق نفسها، لكنها سطوة العشق والغواية، تحول العاشقة لنبض يسير على قدمين، وقد تقدم عبد السلام لخطبتها هامسًا بجملته السحرية فورما فتحت الباب، لا يفصل وجهيهما سوى زفيره وشهيقها.

ـ (من سناها الشموس تشرق.. لما تبدى وتنجلي الأقمار)!

فتحت بديعه يومها فمها كالبلهاء: أنا.. أنا قمر؟

ـ أنتِ قمري وشمسي يا بدعدع.

أفلتتها والدتها وعصرة القهر بصدرها كانسلال الروح، محذرة ألا مكان لها بعد اليوم في حياتها، وألا مجال لعودتها وإن بكت بدلاً من الدموع دمًا، فبدأت بديعه حياتها الجديدة كزوجة لعبد السلام يتيمة من جديد، هذه المرة بلا أم، وقد أنهت الحسرة حياة نعيمة بعد زواجهما بشهرين، لم تكن بديعة حينها قد أكملت عامها السابع عشر، بينما يوشك

هو على بلوغ الخامسة والثلاثين! اشترى لها شقة في بدروم بناية بقلب الحسين مقررًا الابتعاد عن حياته القديمة في طنطا، لكن سرعان ما راودته مجددًا نفسه الأمارة بالحياة وعاد كالزئبق، لا تنجح ذراعا بديعه في الاحتفاظ به، فإما هو زائر دائم لجلسات التحشيش لدى صديقه الحاج (حلبة) صاحب محل التصوير الفوتوغرافي في شارع الغورية، أو دائم الغياب والسفر، يحمل حقيبة قماشية صغيرة بها قطعتين من ملابسه ويهج لأسابيع دون أن تدري لأين ذهب ومن أين أتى وإلى متى سيغيب؟ فباتت حياتها بين ليلة وضحاها محطة انتظار دائمة.

لا يبقى طويلاً ما يأتي به عبد السلام من خيرات، وبسفره تبدأ معاناة الجوع، لكنها من اختار ولم يستمع للنصيحة أو يرضخ للتحذيرات، لذا كان عليها احتمال قدر صنعته بيديها. شيء وحيد ما خفف عن نفسها وطأة الوحدة القاتلة في غيابه؛ جارة يونانية لطيفة كانت تقطن الدور الأول تدعى استيماتولا؛ اسم عصي على النطق قررت بديعة اختصاره لتولا، واتخذتها صديقة فورما وطئت قدماها البناية. تنحدر تولا من أسرة يونانية هاجرت إلى القاهرة من جزيرة كريت هربًا من الفقر. كانت تولا لطيفة حلوة المعشر هي وعشيرتها لا سيما أن ملامحهم تقترب من المصرية. طمانتها إليها الابتسامة التي لا تبارح شفتي تولا بين وجنتين محمرتين من أكل اللحم وتجرع نبيذ يوناني معتبر؛ يحضره زوجها أريسيانو كاراجونيس من زياراته هناك لأقاربه مرتين سنويًا، فيعود محملاً بالكثير من أعاجيب بلاد الفرنجة، كملابس وأجبان وعصائر ومعلبات تهديها تولا أحيانا بعض منها فتتلقاها فرحة؛ نواة تسند زير عالمها المائل. لكن ما قرب بينها وبين تولا إعجابها الشديد بشخصيتها؛ لم يكن لدى الأخيرة حد فاصل بين الطيش والتعقل بعكس بديعة التي كانت تعي حدودها، أو ربما هي رسمت الحدود تبعًا لقدراتها، فلم تكن تملك قلبًا قويًا أو أعصابًا حديدية كالتي امتلكتها تولا، مما خولها لتقوم بأكثر الأفعال جنونًا فقط لتستعيد أريسيانو من سطوة عائلته المتعجرفة! وهنا كان الفارق بين حالتيهما، فعبد السلام لا مانع

لديه من بيع ما يمكنه أن يكبل حريته ولو كان رضا عائلته، أما أريسيانو فكان لعائلته تأثير قوي عليه وعلى قراراته.

حين التقى أريسيانو بتولا ووقعا في الحب وتزوجا، كانت عائلته قد قررت الرحيل عن مصر بعد ثورة 23 يوليو، وبدأ عبد الناصر في تطبيق سياسة التأميم، مثيرًا بها حفيظة العديد من أبناء الجاليات اليونانية في القاهرة والإسكندرية، ليقرر الكثيرون منهم العودة إلى بلادهم رغم ردح الزمان الذي أمضوه بمصر، وما استطاعوا تكوينه من ثروات وسمعة كالجنيه الذهبي، لمصانع ومحال لا تزال لافتاتها باقية لم يجرؤ الزمن على محوها. لكن تولا كانت من الرافضين للفكرة باستماته، خاصة وما لاقته من معاملة مزعجة من عائلته، وما لاحظته من تأثيرهم القوي عليه، قررت البقاء ضاربة باعتراضاتهم عرض الحائط، مصرة على الاستمرار في حياتها هنا حتى تموت وتدفن في جبانة اليونانيين. وكما توقعت كان أريسيانو أضعف من مواجهتهم، فلم يمضِ على زواجهم بضعة أشهر إلا وقد رحل مع عائلته لليونان، مخلفًا إياها حاملاً كحقيبة سفر منسية؛ موقنًا أنها مسألة وقت وستعود لرشدها.

قالت بديعه وهما تجلسان معًا في إحدى الأماسي التي اعتادت فيها على الصعود إليها كسرًا للوحدة: كيف استطعتِ البقاء وحدك يا تولا بلا مال؟

كانت الأخيرة تغني باندماج شديد (حوبك نـاااار.. نار يا حبيبي) بلهجة مصرية ركيكة، تستعيض فيها بحرف الخاء بديلا عن الهاء، مكورة بيديها عجينة حلوى الفينيكا اليونانية. قطعت الدمدمة قائلة: لست عديمة الحيلة حبيبي! أنا قادرة على الكثير، أبسطها العمل بأحد معامل الحلوى اليونانية.

ـ وهل كان هذا كافيا؟ أعني معيشتكم رغدة، اللهم لا حسد!

ابتسمت تولا داسة القليل من اللوز المحمص بقلب العجينة الفائحة ببشر البرتقال: أنت لا تعرف الحسد حبيبي. بعد غلق الخواجة معمل

الحلويات ضاقت الدنيا في وجهي، كنت بالشهر التاسع ولم يوافق أحد على توظيفي؛ لم أكن متمكنة سوى في الحلوى اليونانية ـ تابعت تقسيم العجينة لكرات داسة بها الصنوبر المحمص ـ مرت الأيام بصعوبة حتى وضعت ديموس، وظل أريسيانو على عناده منتظرًا إياى أن أستغيث به ليرسل لي ثمن تذكرة السفر وألحق به. فخطرت ببالي فكرة تجره من قفاه.

ـ لم لا تخلطين المقدار كله بالصنوبر واللوز مرة واحدة؟

ـ لو قمت بخلطه مرة واحدة سأحرم أجزاء من اللوز والصنوبر، لكن بدس كمية في كل جزء سيأخذ حقه بالكامل، يكمن الجمال دومًا في الاهتمام بالتفاصيل ـ رصت القطع في الصينية متابعة ـ احتجت أن يبتعد أريسيانو عن تأثير عائلته، ولا شيء سيعيده سوى التلويح بخطر يحدق بطفله، آه بديعة لو تعلم كيف كانت لحظات وضعي لديموس في ملجأ الأيتام! كانت صعبة جدًا.

شهقت بديعه بذهول: لا! وضعتِه بالملجأ؟ يا لقلبك يا تولا!

هزت رأسها بأسف: لم يكن أمامي حل آخر، فلم يكن أريسيانو ليَعُد وإن أقسمت عليه ألف مرة بقبر البتول؛ وإن أغرقت رسائلي إليه بدمي بدلا من دموعي! كان واقعًا تحت تأثير والده وانتهى الأمر، فقدمت ديموس لملجأ أريفي ملك تجارة القطن اليوناني وبعدها تقدمت للعمل كمرضعة. لم أستطع الادِّعاء فحسب، لو أتى واكتشف كذبي، لأخذته العزة وقرر العودة تاركًا إيانا نجابه مصيرنا! لا تعرفين المخ اليوناني؛ يشبه كثيرًا المخ الصعيدي هنا ـ ابتسمت بسعادة ـ انتهت الفينيكا، لكِ بعضها بعدما تنضج.

تأملت بديعة قطع الحلوى المقطعة لمربعات صغيرة مسيلة لعابها، وقد زينت تولا سطحها بلوزة وقرنفلة.

ـ وكيف استعدتِه؟

رفعت كتفها بلا مبالاة: تذكرت أم موزيس! ألقت بابنها في النهر فرده

الرب إليها لتطمئن، هكذا يحكي الكتاب المقدس.

اتسعت عيناها دهشة: أويحكي كتابكم نفس حكايات كتابنا؟

ضحكت تولا مشيرة للأعلى: لا تكن أحمق! مصدر الحكايات واحد.

لم تكن بديعة معتادة سوى على ترتيل قصار سور حفظتها عنوة في الكُتَاب بصغرها، لكنها سمعت الكثير من حكايا القرآن، كان عبد السلام يقصها عليها إلى جانب حكايات ألف ليلة، مستعينًا بتفاصيل كثيرة من قراءاته المتبحرة في كتب التوراة وأناجيل العهد القديم والحديث، وهو يطعمها قطع فاكهة غريبة يحضرها معه من الغياب، فيمتعها بحديثه كما يمتعها بغرابته التي لم تملك أمام عشقها من مفر!

منحتها تولا قطعة نيئة وألقت بأخرى في فمها بتلذذ: أحبها ناضجة ونيئة، كلاهما حلو.

جعلت بديعة تمضغها بنهم شديد ومعدتها تقرصها جوعًا؛ لم تتناول شيئًا منذ الأمس، باتت بلا عشاء توفيرًا للطعام الذي أوشك على النفاد، ممنية نفسها بكرم جارتها وقد طال غياب عبده، ربما ستنفحها ببعض الحلوى ولا تنسى!

ـ ماذا حدث بعدها يا تولا؟

ـ أرسلت خطابًا بالبريد السريع لأريسيانو، أخبرته أني ضقت ذرعًا بالحياة وسأقدم على الانتحار وأن ديموس في الملجأ، وإن شاء فليأت ليأخذه، مخفية عملي كمرضعة بالدار. لم يصدق حكاية الانتحار، لكن وخزة بقلبه أنبأته أني صادقة بشأن ابنه، فأتى على أول باخرة للإسكندرية ومنها إلى القاهرة.

ـ وكيف أقنعتِه بالبقاء؟

ـ بعدما قام بالمستحيل ليستعيد ديموس، وقد اعترفتُ أمام المحكمة بما قمت به لضيق ذات اليد، ساعدتنا السفارة اليونانية في الإجراءات، وببعض الغنج والدلال وفكرة صاروخية للاستثمار؛ نقطة ضعف كبيرة

لدى أريسيانو، بقى معى حتى ينهض بالمشروع، وأيام تجر أيامًا وجد نفسه متورطا بأعماله هنا بلا سبيل للفكاك، خاصة وقد آخيت ديموس ببيلا شقيقته، وتلّيته بكاراجونيس الصغير؛ أسميته تملقًا لحموي وقد فعل ذلك الأعاجيب؛ فاجأنا بزيارة فقط ليرى الصغير.

سمعا صوت المفتاح يدور بثقب الباب ليظهر ديموس حاملاً الكتاب المقدس، كان طفلاً سمينًا في العاشرة من عمره، تطل شرارات الشقاوة من عينيه الحادتين، ذا وجه محمر كديك رومي انتهى لتوه من التهام وجبة دسمة من البصل! وطابع حسن بذقنه الصغير المشابه لذقن تولا، يكلل رأسه غابة من الشعر الأسود الفاحم ينهمر بغرة كثيفة على جبهته البيضاء. ابتسم ديموس فور رؤيتها هاتفًا باسمها وسارع لاحتضانها حتى أوشك على إيقاعها من فوق المقعد، طبع قبلة قوية فوق وجنتها وأمسك بضفيرتها الذهبية المجدولة بمنديلها الأحمر يفك عقدتها بضيق.

قالت استيماتولا مشاكسة: لماذا تحب بديعة ديمو؟

ـ لأن لها شعرًا ذهبيًا وعينين خضراوين وشفتين حمراوين، تشبه الآلهة بالأساطير التي يحكيها البابا لي بعد انتهاء صلاتنا للعذراء قبل النوم ـ ربت على شعرها بوقار ـ أنتِ جميلة وأنا أحبك ـ وضع قطعة فينيكا بفمها مردفًا ـ لذيذة مثلك بديعة!

انفجر كلاهما في الضحك ثم قالت الأخيرة بعد تنهيدة حسرة: جميلة يا ديمو لكن قليلة الحظ! لولا الضابط الفرنسي الذي أغرم بجدة جدتي كما قيل لي، وتزوجها بعد إسلامه لأجل عيونها الكحيلة ما حصلت على هذه الألوان، لكن يبدو أن الحظ تخلى عني. أخبرني أين كنت؟

قالت استيماتولا طابعة قبلة فوق وجنته: انضم ديمو لكورال الكنيسة، ويتلقى حاليًا دروسًا للعزف على الترومبيت، سيصبح مغنيًا يومًا ما.

قال مقطبًا: البابا غاضب، يطلب مساعدتي في أعمال العائلة.

قالت بديعة: المخبز الإفرنجي والسينما الصيفية أعمال تحتاج لمن يساعد.

ـ أمارس هواياتي في وقت فراغي!

التقط قطعة فينيكا نيئة أخرى وضعها بفمها؛ فامتنت لصنيعه، ملاك أرسله الله لأجلها، وقد بدأ عواء معدتها الجائعة قليلاً في الانحسار. حُب الأطفال عاطفة غير مشروطة، لا تخضع لقوانين ولا مسببات ونتائج، حين يحبك طفل فهو حقًا يحبك، شوقه نقي بلا شوائب الرغبات، حنانه غير منوط بمقابل، واهتمامه صادق بلا تصنع. لم تنسَ بديعه قبل ثلاثة أسابيع حين سمعت تحطم الزجاج خارج نافذتها وسقطت منه قطعة في الصالة، همت بالنهوض لالتقاطها فسمعت دقات على باب المنزل؛ كان ديمو وقد اعتاد زيارتها من آن لآخر. سألته عن صوت الزجاج المتحطم فأخبرها أنها ليلة رأس السنة؛ ومن عادتهم إلقاء الزجاجات الفارغة من شرفات المنازل لإبعاد الحظ السيئ. مد يده بطبق يحوي حلوى ضخمة؛ كعكة (الفاسيلوبيتا) مخصوصة للاحتفال، مشيرًا لدسهم قطعًا نقدية داخلها، ومن يعثر عليها تكون إشارة على حظ كبير بانتظاره مع العام الجديد، ثم تركها وعاد للأعلى مطلقًا ساقيه للريح. لم تكن بديعه تعرف الكثير عن احتفالات رأس السنة، لكنها سعدت كثيرًا بهذه العادة التي منحتها قطعة الحلوى اللذيذة في ليلة كادت معدتها تصرخ طلبًا للرحمة من عذاب الجوع. حين همت بقضمها لاحظت أن القطعة مثقوبة من إحدى الجوانب رغم محاولة إخفاء الثقب ببعض الكريمة، وضعت أصابعها في الثقب لتجد قطعتين نقديتين وضعتا بجانب بعضهما، فأدركت أن الثقب لم يكن سوى إصبعي ديمو في محاولة لدس النقود من أجلها! لم تستطع وقتها الجزم إن كان وضعها من نقوده الخاصة أم حظي بها من كعكته وقرر أن يهديها إياها. تضاعفت محبته في تلك اللحظة في قلبها ـ لدرجة جعلت انتقالهم لاحقًا للفيلا الجديدة بالنسبة لها مأتمًا أجرى الدموع على خديها لأسابيع ـ حريصة بعدها على منحه بعضًا من محبتها في شكل ما يفضله عن أي شيء آخر.. الطعام، فأصبحت كلما عاد عبد السلام من غيابه حاملاً أغراضا كثيرة؛ تقتصد لأجله بعضها في الخفاء قبل أن تتناقص الأشياء كعادتها،

كبضع حبات من الكستناء واللوز وفاكهة مجففة، وربما تصنع له أحيانا طبقًا من الأرز واللبن وترش فوقه حفنة من الفستق الحلبي.

سألتها استيماتولا تنتزعها من الشرود: ألا يضايقك غياب عبده؟

ـ بالطبع، لكن ما باليد حيلة! قبلته على علته ولا يحق لي الشكوى.

قال ديمو: تزوجيني أنا وسأبقى بجانبك ليوم الدينونة، بل وسآتي لكِ بكل ما تحبين من الطعام.

ضحكت بديعة مدركة أنه الوحيد الذي يعي حقيقة شظف العيش الذي تعانيه؛ اعتاد زيارتها على عكس تولا التي لا تحتمل حساسية صدرها رطوبة البدروم.

ـ ليت قلبي بيدي يا ديمو! ما كنت لأجد أجمل ولا أطعم ولا أحن منك لأمضي معه بقية عمري، يا بهي الطلعة أنت.

ـ رغم هذا سأبقى أحبك للأبد.

التقط فينيكا أخرى ودسها بفمها ثم ركض للاستحمام استعدادًا للعشاء. بينما تنهدت استيماتولا بأسى: أنتِ مخطئة، بيدك ترويض عبده وجعله أكثر استقرارًا، أنتِ جميلة جدًا كما قال ديمو ويجب أن يتعلق قلبه بكِ.

ـ كان هذا فيما مضى، لعبده عينان ملولتان، هو كالطير بالكاد تلامس قدماه الأرض لأشعره بين ذراعي، فيعاود الانسلال بعيدًا!

ـ إذن هو بحاجة لشيء يبقيه مقيدًا، والأطفال خير وسيلة ليبقى عصفورك في العش، ربما فقدتِ طفلاً قبلاً لكنكِ صغيرة، والرب قادر على تعويضك.

ـ على أن أُمنَح فرصة للمحاولة كي أحصل على طفل؛ الأيام التي يمضيها عبده معي لا تكفي لإتيانها، أخبرتك أنه ملول ودائم الغياب.

ـ إذن علينا العثور على حل يجبره على البقاء فترة أطول بلا ملل.

ـ لا يكفي حل واحد ليجبره على البقاء.

ابتسمت بمكر: لا تقلقي، أملك ثلاثة حلول لا واحدًا!

انفتح باب الصالة مجددًا ليظهر هذه المرة أريسيانو حاملاً حقيبة ورقية

امتلأت بأرغفة الخبز الإفرنجي الطازج، تفوح رائحته في الهواء موقظة شهوة جوعها من جديد، حتى جاهدت لإبقاء لعابها المتدفق داخل حدود شفتيها.

ـ كيف حالك سِت بديعة؟ وكيف حال الأستاذ عبد السلام؟

ـ بخير يا خواجة، تسلم وتعيش.

الليلة عاد الخواجة خالي الوفاض لا يملك ما يفاخر به سوى قطع الخبز، ولو أنها لبديعة سبب كاف جدًا للزهو! يجب عليها الذهاب فهو موعد العشاء، تململت قليلاً وودت لو تصر تولا على بقائها فلم تفعل، وإن فعلت! لم تكن لتجرؤ على الإذعان؛ لا تزال تملك عزة نفس تعفها عن رغبات معدتها المؤلمة. في المرة السابقة أحضر الخواجة معه علبًا من السمك يسمى الأنشوجة، قطع صغيرة مخلاة من الشوك مغموسة في زيت الزيتون، وأصر على أن يصنع لها بنفسه شطيرتين لتتذوق طعمها، قائلاً: هي صناعة يونانية، زيتنا وأسماكنا وتعليبنا، أتت رأسًا من مصنع سيفاكيس اليوناني.

لكن بديعة لم يكن يهمها من هذا سوى أنها ستأكل، صناعة يونانية، منفلوطية أو حتى زفتاوية، المهم أنها ستتذوق قطع الخبز الساخن ذي اللب الهش؛ يذكرها بحلوى الموز الذي تبيعه بهانة على ناصية مخزن والدتها.

* * *

(٢٣)

تبادل الثلاثة النظرات في صمت جثم كالليل على أجواء الغرفة، دون أن تنجح ابتسامة محمد الحائرة بينهما في كسر توتره، تلوح أمارات التحفز فوق وجه راغب يشاطره قلق على وجه زاد. من المفترض في هذه الحظة التي انتظرها محمد طويلاً أن تشيع الفرحة وتضيء السعادة محيا ابنته، لكنه لا يرى سوى شرارات مكهربة في الهواء. حتى باقة الزهر التي أحضرها العريس المنتظر، والتي يبدو مدى ضخامة المبلغ المدفوع فيها؛ ترقبهم من فوق طاولة الطعام ببرود عاجزة عن إضفاء ما أراده من بهجة.

ـ شرفت منزلنا المتواضع يا بني.

ـ الشرف لي يا عمي.

لم يكن محمد وحده من يعاني الغرابة وعدم الفهم، كان لراغب أيضا منها نصيب؛ المرة الأولى التي تعلن إحداهن عن رغبتها في الزواج منه؛ ليجد نفسه يوافق على رغبتها في مقابلة والدها لطلب يدها، متفهمًا وجهة نظرها! تريد زواج (صالونات)، لا تعترف بالعلاقة العاطفية دون رسميات مهما حدث. درس الصفقة كرجل أعمال ماهر يحسب كل خطوة من

خطواته؛ ووجد أن الزواج أمر طبيعي ربما تأخر لكنه حتمي في نهاية المطاف، وزاد فتاة لطيفة، أشعلت في جسده رغبة غير منطقية وفي عقله تساؤلات! وكما يبدو أنها من بيت طيب، راقصة باليه أنيقة، كما أنهما لا يعلمان عنه شيئًا سوى أنه رجل أعمال، لم يلفت اسمه انتباهها للآن، ماذا يمكن أن يطلب في زيجة أكثر من هذا؟ عائلة صغيرة هو في أشد الاحتياج لها، وقد حان الوقت للمضي قدمًا وعبور محطة قسمت. يعترف أنه حين دلف إلى منزلهما شعر بالحميمية والدفء، متوسمًا طيبة ورقة روح في الرجل الذي يختلس بين فينة وأخرى نظرة على النشرة الإخبارية بالتلفاز هربًا من حيرته، ترى كيف ستكون ردة فعله إن علم أن ابنته من طلبت يده للزواج!

كانت زاد هي الأخرى غارقه في صمتها، تحدج الشاشة التي تعرض إحدى المظاهرات المعتادة في ميدان التحرير ضد نظام الحكم الإخواني، محتضنة نفسها بذراعيها. حين قبضت على حزام سروالها بغتة كمن لدغه عقرب، ونهضت قائلة: سأحضر العصير، بإذنكما.

انسحبت صوب المطبخ تجاهد للتظاهر بالاسترخاء؛ الكثير من التساؤلات تدور في أثير الغرفة ومشهد الميدان لم تحتمل البقاء طويلاً برفقته؛ لا تزال الأشباح تطل من مكامنها كعفريت العلبة، تستلب أنفاسها مجمدة الدم في عروقها. بمغادرتها ألقت راغب في يم التجربة وسيتحتم عليه السباحة وحده للنجاة، والدها ليس بالسهل، سيعتصره أسئلة كما تفعل الأناكوندا بضحيتها! لكنها فرصة لكي تمنحه الثقة به ومواجهة الند للند، فراغب أيضا ليس بالسهل، آملة أن يسير كل شيء وفقما خططت له؛ ستخدع راغب! بل خدعته بالفعل، لم تفصح عن نواياها الحقيقية إزاء الزواج. معضلة كبيرة! لكن العودة إلى مصر جحيم ستتفاداه مهما حدث، تلك الأرض هناك لم تعد صالحة لحياة البشر، أرض الحرقى والغرقى والمدهوسين في صمت، أرض تعج بمخلوقات شرسة لا قبل لها بالتعامل معها. الغياب هو الأسلم لتحفظ البقية الباقية من إنسانيتها، والزواج من راغب رغم صعوبته السبيل

الوحيد للنجاة. وإن اضطرت معه لخداع والدها أيضا، فهذا أفضل من أن يعلم بأن ابنته مستغلة، صائدة للفرص!

قال محمد: إذن أنت تعلم كل شيء عنها؟

لكمها سؤاله فور عودتها للغرفة فسارعت قائلة: كلانا يعلم ما يكفيه عن الآخر، أليس كذلك يا راغب؟ راغب!

انتبه متناولاً منها كوب العصير: ماذا؟ بالطبع يا عمي، أعلم الكثير عن زاد، لدرجة معرفتي بالجرح أسفل ذقنها؛ أخبرتني بالكثير.

طالعته زاد بنظرة استحسان، فاكتشف أنه يقف داخل حذاء قسمت! واجهته الحياة بسخرية قدرية لم يتوقعها؛ لم يملك الشجاعة الكافية للإفصاح عن حقيقة سجنه وسجن والده، أتراهما لو علما بالأمر سيفعلان ما فعله يومًا معها؟ سينظران من عل إليه بإشفاق ويخبرانه أن فكرة الزواج أمر مخزٍ، توافق بشرط إبقاء الأمر سرًا!

«وعلى الباغي تدور الدوائر يا راغب.. دومًا تدور الدوائر»

فيما مضى كان شعور الغضب والخذلان من قسمت ما يطغى على عاطفته، لكن الآن وحين اختبر ما شعرته آنذاك تلك الليلة المشؤومة لانفصالهما؛ استولى العار على كيانه؛ يملك أسرارًا يمكنها تدمير مخططاته، عاري الظهر بلا سند، سنده في السجن، تمامًا كما كان سندها. مسكينة قسمت! جعلها تعاني بأنانية لا تغتفر رغم يقينه حينها أن وجود والدتها خلف القضبان ليس بذنبها، ولا ذنب والدتها، ها هي الأيام تقتص، توقفه أمامهم وأمام نفسه عاريًا وجلاً من حقيقته المخزية.

أخرج من جيبه علبة مخملية داخلها محبس ماسي، قائلاً: أظن أن الزواج المدني سيكون أفضل وسيلة لإتمام الأمر.

قالت زاد: أنا أيضا أفضل هذا، ما رأيك يا ماما؟

هتف راغب بدهشة: ماما!

ابتسم محمد قائلاً: حكاية طويلة، على أي حال، أنا موافق، لكن علينا أن نخبر عمتها وزوجها بالأمر ليحضرا المراسم.

* * *

(٢٤)

لم تكن بديعة تملك من حطام الدنيا أثمن من جمالها وغنجها؛ وسيلة حصولها على ابنها الوحيد. حين هم عبد السلام بفتح باب الشقة ليغادر حاملاً حقيبته القماشية صوب بقعة غامضة من الأرض، وقد استدعاه مجددًا شوق مُلِح للرحيل بعد أسبوعين أمضاهما مع بديعة أطفأ فيهما شوقه إليها؛ أبى الباب الخضوع! فُتح باب غرفة نومهما ودقات قبقابها الخشب المزركش بشخاليل فضية تدوي بفسحة الدار، وحين التفت يهم بسؤالها عاجلته: أذاهب إلى مكان ما يا عبده؟

طالعها رافعًا حاجبيه دهشة، لم يرها منذ مدة طويلة بهذه الهالة الأنثوية الغنجة، تُحكِم لف ملاءتها حول خصرها وعودها الممشوق لم يزده الشقى إلا نحتًا مغريًا، واضعة اليشمك ذا القصبة المذهبة، تطل عيناها المكحلتان من خلفه كقطعتي زمرد وضاءتين، ولون عنبي يتلألأ فوق شفتيها من بين ثقوبه، ربما وميض جمالها لا يغيب، لكنها تلك الوقاحة التي تلوح جلية في عينيها هي ما كان يفتقدها بشدة.

ـ الباب لا يفتح.

ـ مفتاح القفل الآخر معي، لن تذهب الليلة لأي مكان سوى أحضاني.

ـ ألم تشبعي مني يا امرأة؟ أنا هنا منذ أسبوعين!

ـ أنا في شوق دائم إليك يا عزيز عيني، شوق لا يطفئه وجودك إلى جواري لصيق لروحي، شوق لا يبارح ليالي في بعادك.

ـ أنتِ غريبة الليلة يا بديعة!

ـ الهم يا عزيز عيني، الهم، و.. بعادك الدائم!

ولأنها تدرك أن أحاديث الشكوى منه إليه بلا طائل، وقد اختارته بوهيمي المعيشة حر الجسد والروح، ولا سبيل لنزع حبه من حشاها؛ رفت طاردة لمحة الحزن، مقتربة بدلال: بدعدع يا عبده! هل نسيت؟

هم بالحديث فحلت ملاءتها لتنساب على منحنيات جسدها بنعومة، كاشفة عن كارثه فغرت فمه وجففت حلقه. كانت ترتدي شيئًا لم يره على امرأة قط سوى في صفحات مجلات أجنبية، يتبادلها الرجال فيما بينهم بسرية كقطع الحشيش! أشياء لا ترتديها سوى نساء يعلن بتبجح عن رغباتهن؛ مشد من الساتان احتضن نهديها وحولهما لرمانتين تفوحان نضجًا وعنفوانًا، موصول بشرائط من الجلد وحليات معدنية بجوارب من الحرير الأحمر، في تضاد صارخ مع عباءتها السوداء وقبقابها الخشبي ذي الجلاجل، ناهيك بشلال الذهب البندقي المنساب على كتفيها وخصرها كوهج النار.. كانت جنية بحق، بل أحلى من كل الجنيات والإنسيات اللائي رآهن في حياته، كانت.. بديعة!

ـ آه منكِ! ماذا فعلتِ بي يا بدعدع؟ من أين أتيت بـ..؟

وضعت طرف إصبعها على شفتيه: لا تسل يا عزيز عيني، فقط املأ عينيك مني وابق معي مزيدًا من الوقت، لا تبارح جواري لأعيد إيقاد جمرة شوقك إليّ.

حملها بين ذراعيه، فدست يدها بجيب سترته مخرجة ثلاث صور، ليبتسم قائلاً: أنتِ فوقهن جميعًا يا بدعدع، أنتِ الأولى والأخيرة.

همست بعتب: لا كاميليا (المشخصاتية) ولا أسمهان (المغنواتية) ستشاركني إياك الليلة ـ ألقت بالصورتين معيدة دس صورتها بجيبه ـ هيا، تعالَ إليّ.

هبطت شفتاه فوق شفتيها في قبلة جائعة، قطعها متأوهًا: يا لعذابك يا عبده يا مسكين! لقبلة جنيتك طعم الخمر.

«امنحني طفلاً منك يؤنس وحدتي بغيابك».

لم تخبره أنها استعارت أحمر الشفاه الغريب ذاك والملابس من تولا، مكتفية بفوران رجولته وغليان الدماء في شرايينه كلما وقعت أنظاره عليها، تحول نفسها لنفخة حارة فوق جمر أوشك على أن يخبو؛ تحمي وطيس رغباته من جديد مرة بعد مرة مشعلة إياها بلا رحمة ولا هوادة. لكن تولا ومع الأسف لم تكن تملك سوى ثلاث قطع من تلك الملابس الغريبة على أنظاره، فكانت بديعة فورما تلمح في عينيه ومضة سأم تخرج في غفلة نومه نحو الطابق الأعلى مبدلة الملبس بآخر، معيدة إشعال جذوته الخابية، عالمة يقينًا بمجيء لحظة ستحكمه فيها الرغبة بالرحيل، حريصة كل الحرص على إطالة أمد بقائه. تركته في النهاية مغلوبة على أمرها يلملم أشياءه القليلة بحقيبته القماشية، وفتحت الباب له بيديها بعدما أعيتها الحيل، داعية أن تكون الأيام الماضية كافية ليمنحها الله طفلاً عوضًا عمن فقدته؛ فاستجاب الله لدعائها بمحمد.. قرة عينها.

* * *

(٢٥)

ـ أنت رجل ظالم!

التفت كريستوفر لمصدر الجملة شديدة الاستنكار، مسلمًا التسليمة الأخيرة لصلاة المغرب: ماذا هناك بديعة؟

عقدت الأخيرة ذراعيها فوق صدرها، واقفة على عتبة الغرفة: وتسألني ماذا هناك بابا! أنا تعيسة، تعيسة جدًا، لديّ شعور دائم بالاضطهاد داخل المنزل وخارجه، لمَ ترفضان ذهابي لرحلة الغابة؟ لمَ ترفضان أن يكون لي رفيق كبقية الفتيات في مثل عمري. هذا ظلم!

نهض وطوى سجادة الصلاة القطيفية ووضعها فوق ظهر المقعد، ثم أشعل غليونه، قائلاً بهدوء: بديعة حبيبتي، تعلمين أن ديننا ينهانا عن اتخاذ رفقاء حميمين، لا أمنعك من أن يكون لكِ أصدقاء لكن حبيب! صعب جدًا.

لوحت بغضب: كل شيء لا يصح! لا يجب! لا تفعلي هذا بديعة! عيب بديعة! أعيش في عالم غير مسموح لي بالانتماء إليه كغيري، حفلات النوم خارج المنزل ممنوعة، حفلات الرقص ممنوعة، اتخاذ صديق حميم ممنوع

ـ ضربت الأرض بقدمها ـ حتى الحب ممنوع بابا، ممنوع!

قالت حرية مربتة على كتفها بحنو: الحب ليس ممنوعًا حبيبتي، بل ترجماته في مجتمعنا هي الممنوعة.

ـ أرجوكِ ماما. بلا ألغاز!

ـ تعلمين جيدًا ما أعني.

قلبت بديعة عينيها بنفاد صبر: تحدثي بالإنجليزية لكي أفهمك.

صاحت والدتها: كفى يا بديعة ولا داعي للمراوغة، كلانا يعلم أنكِ تجيدين العربية تحدثًا وكتابة.

اقترب كريستوفر ولف ذراعه حول كتف ابنته بحنان: رويدك حرية حبيبتي، التفاهم يكون بهدوء، لا داعي لكل هذه العصبية.

قالت حرية بانزعاج: هي من تدفعني لهذا يا كريس، سئمت عنادها.

اغرورقت عينا بديعة، هاتفة: وأنا سئمت حياتي كلها، لمَ تفعلان بي هذا؟ لمَ تكتبان عليّ التعاسة؟ ألستُ ابنتكما الوحيدة؟

قالت حرية بالعربية: نريد لكِ الأمان والسعادة يا حبيبتي، لا نريدك أن تقعي في خطأ يمكنه تدمير حياتك. الشاب الذي تتشاجرين معنا لأجله ليس من ديانتك، كما أنه لن يصبر على علاقة عذرية وغيرها في متناوله. صدقيني يا حبيبتي، التمسك بعاداتنا هو طوق النجاة في غربتنا.

ردت بديعة بعربية سليمة: غربتنا! أنا هنا في وطني، اسمى بديعة كريستوفر لورنس، والدي بريطاني أم أنك نسيتِ؟ أنتِ المصرية؛ بلد لم تزوريه منذ عشرين عامًا، والديانة التي تتحدثين عنها مبرر سخيف، وإن كنتِ مسلمة فماذا يكون بابا؟ مسلم؟ ما مارسه قبل قليل مرة من المرات النادرة، هو دائم الزيارة للكنيسة، وصور المسيح والعذراء تملأ المنزل! عن أي وطن وديانة تتحدثين؟

همت حرية بالحديث فعاجلها كريستوفر: بديعة حبيبتي، علاقتي بالرب أمر خاص، ربما قليلاً ما أصلي وربما أكون عاصيًا؛ لكنه مسامح

كريم وسيعينني يومًا ما على نفسي، أما المسيح والعذراء، فكيف يمكنني التخلي عن محبتهما وإن أسلمت؟! وما الضير في محبتهما وزيارة آثارهما بالكنائس؟ إسلامنا يحتضن كليهما بود وحنان يضاهي حنان البتول ـ قرص وجنتها مداعبًا ـ وإن كان محمد عليه السلام في الأذين؛ فعيسى والبتول في البطين. الله محبة.

قالت حرية: أنسيتِ الفتيات اللاتي نقابلهن في المترو والباصات العامة؟ الواحدة منهن لم تكمل العام الثاني عشر وحامل! أتريدين أن تكوني مثلهن؟ تضيعين مستقبلك لأجل مرحلة عابرة كالمراهقة! العمر أمامك، الدراسة والوظيفة وبناء المستقبل، أعلم أن الأمر صعـــ..

أمسكت برأسها صارخة: كفى يا ماما، كفى، لست مراهقة، لقد أتممت السابعة عشر، لم أعد أحتمل هذه الحياة، لا أنا إنجليزية ولا مصرية، لا عربية ولا أجنبية، سئمت كل شيء، سئمت الحديث ومحاولات الإقناع والفهم، أكره جذوري العربية المتخلفة، وميولكما الأنانية لتدجيني تخنقني، تترقبان زلتي الأولى ليكون مصيري المحتوم الذبح؛ أنا بشر يا ماما ـ التفتت لوالدها مرددة بمرارة ـ بشر يا بابا لي مشاعري واحتياجاتي، أريد أن أكون شخصًا طبيعيًا كالبقية، ستصنعان مني مسخًا عاجزًا عن العثور على طريق ـ ركضت نحو الطابق الأعلى يلحقها نشيجها ـ ألا يكفي الاسم الكارثي الذي ابتليتماني به؟ بديعة لورنس! هللويا.

تطلعت حرية بوجوم صوب الدرج، يقتلها الحزن لمعاناة ابنتها، مندهشة لكراهيتها الاسم! أسمتها بديعة تيمنًا باسم والدتها؛ أجمل امرأة على وجه البسيطة؛ لها نفس الشعر الذهبي المائل لحمرة الغروب، والنمش المتقد فوق وجنتيها، بديعة وهي بديعة! رفض محمد أن يطلق اسمها على ابنته؛ يرى ألا أحد في هذا العالم يستحق أن يحمل اسم والدته الغالية، وإن كانت ابنته الوحيدة؛ حشاشة كبده المستحوذة على مكانة في روحه لا يجرؤ مخلوق على الاقتراب منها! ربما كان على والدها عبد السلام صفعها فور إعلانها عن رغبتها في الزواج من كريستوفر؛ لا أن يلف ذراعه حول

خصرها ويسألها باسمًا إن كانت تحبه حقًا! لم يمنحها الفرصة كي تفعل كبقية الفتيات عادة من تهديد بالامتناع عن الطعام والقسم ألا رجل سيملكها سواه مهما فعلوا، بل وربما يمتد الأمر للتلويح بالانتحار! لكن السؤال: هل كانت لترضخ بعد كل هذا لو أصروا على الرفض؟ استغرقتها بعثة اليونيسكو في لندن ستة أشهر؛ حصلت عليها بعد صعودها للمركز الأول في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية؛ ببحث تقدمت به لمسابقة أطلقتها اليونيسكو بعنوان (تاريخ الأدب الروائي بين الشرق والغرب)، التقته خلالها في حفلة أقامتها السفارة المصرية؛ كريستوفر لورنس أستاذ التاريخ الفرعوني في جامعة أكسفورد، وفتاة أتت من عمق حواري الحسين؛ معجونة بروائح التوابل والبخور الجاوي والمستكة، محقونة بالأصول والتقاليد وما يصح وما لا يصح، لكنها أيضا امتلكت دماء عبد السلام.. ابتلاءها الحقيقي! لم تحظَ بأب طبيعي ككل الآباء، كان رجلاً يعبد الحرية والعاطفة مهما بدت غريبة وشاذة! وميلها لكريستوفر كان إحدى درجات ذاك الشذوذ في مجتمعها، فماذا يجبرها على الآرتباط برجل ليس على دينها ولا من عالمها؟ وإن مال قلبها، ماذا بشأن العقل والمنطق والمفترض بالأب أن يفعل؟ ورغم رفض شقيقها محمد حينها رفضًا قاطعًا، وتهديده بقطع صلته نهائيًا بها والتبرؤ منها، فإن صيحة جهورية انطلقت من حنجرة والدها في فضاء المنزل للمرة الأولى والأخيرة أوقفته:

ـ ما زلت على قيد الحياة، حين أموت افعل ما تشاء.

خرج محمد هائمًا على وجهه وغاب حتى بعد منتصف الليل، وحين عاد انحنى مقبلاً يده، يعتذر عن لحظة انفلات أعصابه. كان لعبد السلام تأثير قوي عليهم جميعًا؛ لدرجة أنها كانت متيمة به، تراه على الدوام مخلوقًا أسطوريًا، ناهيك بإجلال مقدس من شقيقها رغم أفعاله التي يمكنها إصابة أي عقل بالجنون! لعلها شخصيته الآسرة التي تحمل كل المتناقضات، ممثلاً حقيقة الإنسان في أعلى درجاتها؛ يحمل بشريته كهبة إلهية مفاخرًا بها الأمم؛ وهو ما أكبرته فيه حين أصبحت أكثر وعيًا.

قالت بأسى: خائفة عليها كثيرًا يا كريس، لم تفلح دروس الدين التي حرصنا على تلقينها إياها طوال السنوات الماضية، ولا اللغة العربية التي تنكر إتقانها بعناد! يبدو أن النبتة لا تنمو عفية إلا في تربتها.

نفخ كريستوفر دخان البايب، محتضنًا خصرها: المشكلة أنها بالفعل تربتها كما قالت ياfree ـ لم تبتسم كعادتها حين يدللها ـ أرجوكِ لا داعي لنظرة الندم المؤلمة هذه! فترة صعبة توقعناها، وكان من المستحيل أن يقنعنا مخلوق بأن عاطفتنا سفاهة.

اتكأت بجبهتها فوق وجنته متلمسة الدعم. تدرك استحالة تجاهل شخص يطوي ألف خطوة للاقتراب منك؛ مقدمًا قرابين إصراره وتمسكه، لا سيما مع شخصية جذابة آسرة الحديث والمنطق والفكر ككريستوفر؛ وقد أقدم على البحث مطولاً بشأن الدين الذي تذرعت به كإحدى العقبات المليون بينهما، اختفى خلالها تمامًا لعدة أسابيع ثم عاد يرتل أمامها الفاتحة، قائلاً:

ـ اقرئيها معي لتكون رباطنا القدسي.. بسم الله.

ضربت دقات قلبها كالمدافع وسألته بتوجس إن كان سيتخلى عن دينه لأجلها! فأجابها بأنه اكتشف أن إسلامها يحتضن مسيحيته تمامًا كما أخبر بديعة قبل قليل، كيف لها إذن أن تغض الطرف عن حالة فريدة من نوعها مثله؟ وقد اعتادت الغرابة في الرجال ومن المستحيل القبول بالمعتاد. رجل حين أراد الاقتراب منها ذوب جبلاً جليديًا يفصل بينهما بحرارة يقينه وإيمانه بالإنسانية قبل أي شيء!

ـ هيا يا free اذهبي لتهدئتها، لا يصح أن يأتي شقيقك بصحبة العروسين فيجدون الأجواء مكهربة.

* * *

(٢٦)

«أصبحت مدمنًا يا راغب!»

على موعد دائم مع هذا العرض اللطيف المعذب! يراقب زاد تقف أمام مرآتها فورما تدق التاسعة، وقد أنهت تمريناتها الليلية وحصلت على حمام دافئ؛ ترتدي سروالاً ليمونيًا قصيرًا وتي شيرت يكشف عن بطنها وأعلى ظهرها، واضعة فوق عنقها بعض قطرات زيت عطري من زجاجة صغيرة تحتفظ بها في صندوق خاص ككنز ثمين، لتأتي بعدها اللحظة الأكثر إمتاعًا؛ حين تمسد برفق عضلات رقبتها الرشيقة بأصابع خبيرة بمواضع التوتر، تزحف أناملها ببطء صوب جذور عنقها لتمنحها المزيد، مغمضة عينيها باسترخاء، كنحات يعيد صب منحيات تمثال رخامي أملس. يتابعها بطرف عينه؛ متصنعًا القراءة في كتاب يسحبه كل مرة سريعًا من مكتبة حموه قبل أن تدلف إلى غرفتهما، دون أن يفقه كلمة من السطور التي تلوح أمام ناظريه كخيوط دخان تشبه ما يتصاعد من رأسه.

لم يلمسها للآن! بعد اختلائهما في غرفتها التي أصرت على عدم

مبارحتها ليلة زواجهما ولو لأيام عسل قليلة بأحد الفنادق؛ هم بفتح سحاب ثوبها، تلتصق أنظاره المتلهفة بشامتها التينية فوق عنقها؛ لتمسك بكفه ملتفتة إليه، وتخبره أنها تزوجته من أجل الحصول على الجنسية كي تبقى في لندن حتى موعد مسابقة هامة! وعدته أنها ستفي بكل التزاماتها الزوجية، وقالت إنها تراه لطيفًا وسيكون زوجًا جيدًا، وطالبته فقط بمنحها الفرصة للتعود على الفكرة! حدق بها للحظة في بلاهة، ثم انفجر في ضحك هستيري متواصل لدقائق كانت تطالعه خلالها بذهول. كيف انطلت عليه الخدعة؟! هيأت له لحظة غرور ذكورية أنه رجل لا يقاوم أوقعها تحت طائلة سحره. كيف لم يثر عرضها لديه أي تساؤلات؟ المرة الثانية التي تنجح فيها امرأة في خداعه. سبقتها قسمت! ويبدو أنه سيبدل مبدأه الشهير (لكل شيء مرة أولى)، إلى (لكل شيء مرة ثانية)؛ فمرات الخداع تتوالى وأصبح لعبة في يد نسائه! لكن في الحقيقة وجد الأمر طريفًا! كان من الأجدر به أن يهدر بغضب مهددًا بدق عنقها، ولدهشته هدأ بغتة كما انفجر بغتة، بل وأعلن تقديره لموقفها واستعداده للصبر كي ينجح الأمر بينهما، خاصة وقد أضافت أن لديها مشكلة ما تجعلها لا تحتمل لمسات الآخرين؛ مستدركة في محاولة لتخفيف سخافة الجملة، أنه بالطبع ليس الآخرين لأنه زوجها، وأن كل ما عليه فقط منحها بعض الوقت.

انتبه حين انتقلت أصابعها لبطنها المشدود تطليه بالمزيد من النقاط؛ كان أمرًا جيدًا عدم ممانعتها أن يتشاركا الفراش للنوم، خاصة وقد أصر محمد على إحضار واحد جديد غاية في الاتساع يكفي لأربعة. ممتن لأنها لم تحرمه من البقاء برفقتها في لحظات ممتعة كهذه! لاحت ابتسامة سعادة نادرة أضاءت محياها، فسألها عن سرها مجاهدًا ألا تفضحه انفعالاته. انتبهت لوجوده فأغلقت الزجاجة، وإتكأت بجذعها على طاولة الزينة، ينعكس الضوء على بشرتها الغارقة بالزيت.

ـ غدًا اختبار الانضمام إلى فرقة الباليه الملكي.

ـ ألستِ متوترة؟

جلست إلى جانبه ترفع قدميها على الفراش، وتضع بعض نقاط الزيت على أصابعها تدلكها: بالتأكيد، لكن الإثارة أكثر طغيانًا على مشاعري، أمر انتظرته منذ الأزل.

تطلع لأصابع قدميها مندهشًا؛ كدمات زرقاء وبروز في بعض العظام وظفرين معوجين، فقال ممسكًا بالإصبع الكبير: من يرى حذاء الساتان والأشرطة الحريرية، يظنها تحتضن قطعة من حلوى القطن، لا قدمين من مخلفات الحرب!

أطلقت ضحكة متسلية: لا بُد للأظفار من أن تنكسر وتتحطم العقلات ليولَد الجمال، طبيعة الحياة لا تختلف عن رقصة البالية، لا بُد من الألم المصاحب للمتعة.

أشار صوب صورة مؤطرة وضعت فوق طاولة زينتها، زاد بعمر الطفولة تحمل قطة صغيرة: لطيفة تلك القطة، هل تحبين الحيوانات؟

ـ كُنت. أحضر لي والدي قطة فارتبطت بها كثيرًا، ظلت معي لأربعة سنوات، لم تكن تنام سوى جواري، تشاركني حكاياتي وخيالاتي، وفجأة ماتت، أصيبت بداء عضال وتركتني.

ـ يمكنني إحضار واحدة إن شئتِ، لا تضايقني الحيوانات الأليفة.

ـ لا أريد أخرى، أكره القطط. أتعلم؟ كان لوالدتي صندوق صغير تضع به حليها الثمينة، به مرآة تطير فوق سطحها باليرينا بثوب برتقالي وتاج ذهبي فوق رأسها المنمنم، كنت أطالعها بانبهار ظانة أنها تملك بالفعل قدرة على الطفو فوق سطح المرآة، لم أكن أعلم تلك النظريات العلمية المملة بشأن المغناطيس وقوى الجذب والشد والأقطاب، فأحلم أني أصغر.. أصغر، ليصبح بإمكاني الانضمام إليها برهة من الزمن تصحبني في طوافها، فنسري معًا على موسيقى العلبة السحرية التي يعزف ألحانها عازفون صغار يسكنون قلبها؛ يعزفون لي كلما قررت فتحها. وكثيرًا ما شغلني أمر هام؛ كيف سأرقص بلا خفين ذهبيين كاللذين ترتديهما الباليرينا؟

وسرعان ما أعثر على الحل المنطقي الوحيد.. سترفعني الموسيقى لأعلى فهي ما ترفعها! ويمر الزمن، وأكتشف استحالة تحولي لباليرينا دون أن تنكسر عقلاتي وتتهشم أظفاري وتصاب أصابعي بندوب تماثل قباحتها تروس العلبة. أزعجني الاكتشاف كثيرًا كما أزعجني اكتشاف المئات من الأمور بعيدًا عن عالم خيالاتي الساذج، أصبحت بعدها أفقد الاهتمام بكل ما يخالف توقعاتي ويتضح خداعه، أكرهها وأتخلص منها كما تخلصت من علبة الموسيقى في مخزن الأشياء القديمة.

ـ لكن علبة الموسيقى لم تخدعك ولا خدعتك القطة، كلاهما يملك طبيعة لا يد له فيها، العلبة آلة والقطة روح إلى زوال.

ـ الخذلان مقرف وكلاهما خذلني.

ـ أنتِ غير منطقية!

ـ لا يهمني المنطق، ثم إني حرة، أعتنق ما أشاء كيفما أشاء.

صمت لوهلة متأملاً وجهها: ما سر رائحة الزجاجة الصغيرة؟

ـ الخزامى، اللافندر كما يطلقون عليه، والدي خبير بتلك الأمور؛ رآه المرشح المثالي لصحبتي في الليالي العصيبة من الأرق والتوتر. أستخدم الآن خليطًا منه مع زيت الزيتون لأنه مفيد للعضلات والجلد، يجب أن أهتم بأصابع قدمي.

ـ تستخدمينه لأسباب طبية؟ لم تخبريني للآن بكل شيء.

ـ سأخبرك حين أكون مستعدة، أكبرتك حين عزفتَ عن معرفة الأمر من والدي؛ أمكنك هذا ولم تفعل. كان يهاجمني صداع غير عضوي وكوابيس قلت كثيرًا بعد استخدامي الخزامى، وسيلة قديمة من وسائل جدي عبد السلام، احتفظ بها في جعبته المليئة بالأسرار. كان يطلق عليها نبتة الجنة، وفي العصور الوسطى أسموها نبتة الحب.

ـ نبتة ماذا؟

ـ الحب. يقال إن رائحتها سحرية، تجذب العاشق لمعشوقه كمغناطيس.

أغلق الكتاب واتكأ بكفيه على الفراش يميل نحوها: ألهذا تستخدمينها يا ملكة البجع؟ لتجذبي سيجفريد؟ هل كل من ينتظر اختبارا تفيض قسماته فتنة هكذا؟

كانا قريبين لدرجة تلاشت معها قدرتها على رؤيته، لم يبقَ سوى الشعور به وبأنفاسه؛ رجل له عينان تمارسان الحب بسفور! ويدان تنبضان دفئًا كلما لامستاها مصادفة، وشفتان شغوفتان بالابتسام لزفراتها المضطربة، كانت ممتلئة بوجوده، لولا أمارات امتعاض لاحت بغتة على وجهها، ليتأفف: الطعم الوهمي المقرف ثانية! من المزعج أن تكون هذه ردة الفعل على غزلي الأنيق ـ همت بالنهوض فمنعها ـ وسيلة المضمضة وتفريش الأسنان ليست بذات جدوى، ربما أملك حلاً أكثر عملية.

ـ ماذا تعني؟

ـ أغلقي عينيكِ وعدي حتى العشرة.. بل العشرين.

ـ جربت الأمر من قبل ولم يفلح.

ـ سيفلح هذه المرة، فقط ثقي بي ولا تتحركي مهما حدث.

عليها مغالبة نفسها الدائمة الذعر! نصيحة والدها والطبيبة النفسية بمواجهة مخاوفها هي الحل الوحيد لتخطي الأمر؛ فقررت محاولة العمل بالنصيحة وقد ملت التأجيل.

ـ أثق بك؟ أمر صعب، لكن أعدك أن أحاول ألا أتحرك.

أغمضت فاقترب: يقولون إن إلهاء العقل بشيئين في وقت واحد يفقده التركيز، فلنرَ حين نلهي شفتيك ماذا سيحدث ـ شعرت بشفتيه تلامسان شفتيها فهمت بالابتعاد ـ علام اتفقنا؟ لا تكوني جبانة، المواجهة أفضل علاج.. ثقي بي.

مرت برهة قصيرة انهمكت خلالها شفتاه مع شفتيها في رقصة فالس هادئة، وحين ابتعد سائلاً ما إذا كانت الحال أفضل، فتحت عينيها قائلة بوجل إنها تظن أن الحال أفضل وبالكاد تشعر الطعم المقرف. ليدفعها

برفق إلى الخلف: ربما إن حاولنا بشكل أكثر جدية سيختفي.

ـ لـــ.. لا أظنها فكرة جيدة.

قال بصوت أجش مشرفًا عليها من الأعلى: بل هي فكرة عبقرية؛ سترين كم أنا ماهر في العلاجات البديلة!

جعل ينثر قبلاته فوق عنقها كرفرفة الفراشات، تصحبها أنفاس دافئة كسولة ودغدغات ذقنه؛ مصيبة أذنيها بطنين مكتوم وخدر.

ـ أظن أن.. هذا يكفي حقًا. أنا بخير الآن.. راغب.. توقـــ...

أدركت أنه لم يعد يسمعها حين عاودت التوسل مرة بعد مرة بلا جدوى، وقد تقمص شخصية الطبيب بجدية أكثر من اللازم! فهتفت بيأس: أتعلم أن الخزامى ساعدت جدي على تطهير جسده استقبالاً للموت؟

قال في هنيهات ما بين قبلاته: أشكال الموت عديدة، بعضها لذيذ كالموت متعة.

ـ أنا أتحدث بجدية.

تلاشت اللحظة السحرية فأجلى حلقه: الموت إذن! وكيف هذا؟

دفعته ونهضت مخرجة صورة ضوئية من إحدى الجوارير مذيلة بتوقيع مصورها (حلبة)؛ قائلة: ساعدته الخزامى على التخلص من أثر الحشيش المنقوعة به خلاياه؛ أنظر، هذا جدي عبد السلام وجدتي بديعة.

عاودت الجلوس إلى جانبه فمسد وجهه، متنفسًا بعمق: رأيت صورته في غرفة المعيشة، لكنها المرة الأولى التي أرى جدتك، حقًا بديعة!

ـ أعظم ما يحصل عليه المرء في حياته جذور طاهرة تطيب معها الفروع مهما تلطخت بالسوء، هكذا يقول ماما.

ربما لم تلتق زاد جدتها، لكنها شعرت على الدوام برابطة قوية تصل بين عالميهما حكايات والدها السبب الرئيسي فيها، كان يقص عليها أدق التفاصيل بشأنها، كيف تضحك، كيف تتنفس، أنفها الذي يحمر كحبة فراولة كلما بكت فتتلون معه وجنتاها بلون الخوخ، شعرها الذي يلتمع

وينساب كشلال من الذهب بعدما يساعدها في غسله بقطعة الصابونة النابلسي، بشرتها الشمعية الناعمة ورائحة عقد الفل الذي اعتاد إحضاره لها كل مساء بعد انتهاء عمله بحانوت العطارة، جالسة بانتظاره خلف نافذة البيت تحدق بأحذية المارة، وتمني نفسها بقطعة (الظلاتو) كما اعتادت أن تسمي الآيس كريم الذي يحضره لها بطعم الليمون.

وضعت الصورة فوق ركبتيها: كانت جدتي بديعة معبودة والدي، لدرجة أنه آثر عدم الزواج رغم تعلق قلبه بوالدتي منذ صباهما، فقط لئلا تكدر والدتي صفو جدتي يومًا بكلمة ولو غير مقصودة، وحتى يوم وفاتها ظلت تردد (الشوكة اللي تنغز رجلك يا محمد تنخز نن عيني، إنت سندي وضهري وكسوتي، إنت نَفَسِي الباقي في الحياة البايخه دي لولاك)؛ أتعلم أنه يحتفظ للآن بمشطها العاجي هدية جدي لها من إحدى رحلاته الغامضة؟ وقطعة الصابون الأخيرة التي تحممت بها ليلة وفاتها، وخصلة شعر ذهبية قصها بنفسه يوم اشترائه حانوت العطارة لتجلب له الحظ، يضعها بكيس من المخمل أسفل وسادته.

ـ لم تتحدثي قبلاً عن والدتك بنفس الحماسة!

ـ كثيرًا ما كنت أغتاظ لأن جدتي هي الوحيده التي تزورني في أحلامي، لم تأتِ أمي سوى مرة واحدة قبل عرض المسرح الملكي، منحتني إبريقًا من الماء والعسل والماورد، والغريب أن لهذا ذكرى وحيدة معي هي موت جدتي؛ فقد أخبرني والدي أنه عكف على سقيها به ساعات احتضارها، وكانت ترتشفه منه متمتمة بيقين (وعدني عبده أن يأخذني برفقته، سأسافر معه ولن يتركني)، خلط غريب للأوراق! حتى جدي زارني في الحلم عدة مرات، الوحيدة التي تمنيت لقاءها على الدوام ولم تأتِ هي ماما. أتظن أن السبب هو حديث والدي القليل عنها؟ وكأنها نسمة! لا تترك أثرًا على الجماد ولا الأحداث، تاركة فقط بصمتها على روح بابا.

ـ رحمهم الله جميعا، لكن لم تخبريني عن الخزامى ووفاة جدك.

ـ أجل، صحيح! عاد جدي على غير موعد من رحلة طالت لأكثر من

شهر، كان ساهمًا على غير عادته كمن يحمل فوق عاتقيه ثقل الجبال، فتحت بديعة الباب واستقبلته قبل أن يطرقه؛ فلا أحد يمكنه ترجمة خطوات مخلوق كما تفعل، وبالأخص مع جدي عبد السلام ووالدي، تعلم جيدًا وقعها كالجواهرجي الخبير في الفرق بين الأحجار الكريمة؛ كانت خطواتهما نبض قلبها.

* * *

(٢٧)

افترت شفتا بديعة عن ابتسامة متلهفة لم تخبُ يومًا في استقباله: حمدًا لله على سلامتك يا عزيز عيني.

ناولها حقيبته بأصابع مرتعشة: أنا متعب يا بديعة.

ضربت صدرها في جزع: كفاك الله شر التعب والمرض.

سارع محمد واحتضنه مقبلاً رأسه ويده، فربت على ظهره بحنان، فيما حلقت حرية الصغيرة ذات العشرة أعوام ذراعيها حول وسطه، فانحنى يقبل رأسها، ملتفتًا لبديعة: تعالي يا بدعدع.

بات محمد من التعقل والإدراك بأن يتفهم أوامر والده الصامتة؛ تركهما وحدهما آخذًا شقيقته معه رغم توقه للحديث وإفراغ مكنونات صدره الضائق كمن يصعد في السماء. أغلقت بديعة باب الحجرة خلفهما وجلست تنظره بترقب.

ـ ثمة شيء يعكر صفو عودتك!

أمسك بجديلتها الذهبية يلفها حول كفه، وقربها مشتمًا عبيرها، تطوف

نظراته فوق ملامح وجهها الناضحة بالحنان، تلك القادرة على العطاء لأجيال قادمة فقط لو يسمح الزمن، ولم لا يسمح وقد هُزِم أمامها؟ فاشلاً في صبغ شعرة واحدة من رأسها ببياض خطواته.

ـ لن يغلب المشيب أبدًا خيوط الذهب؛ أوقَعَتْني كشبكة الصياد، ومنذئذ وأنتِ بوصلتي، أدور وأدور وإليكِ العودة والملتجأ بداية ونهاية.

ـ هذا ما صبرني على بعادك يا عبده؛ أني دومًا نهاية مطافك.

انسدل التبر على كتفيها بنعومة ماء نبع، فربت على ظهرها بحنو: أعياني الترحال، أضنى الجسد طول (المعافرة)، ورغم وسع الدنيا وجوانبها البكر لا أملك من العمر سوى بضع سنين، همدت شقاوة وترحالاً، أريد البقاء قربك الباقي من عمري لأغسل نفسي من آثامها قدر ما يعينني الله.

كان من الأولى بها رفع أكفها بالدعاء لله شكرًا بعد طول شقاء، وطمأنينة بعد طول فزع، لكن قبضة اعتصرت قلبها سلبت لحظة الفرح؛ تعلم جيدًا أنه ليس بمخلوق تطوعه الظروف وتركعه الخطوب، هو طير لا يتوقف عن التحليق سوى بانكسار جناحه، ولو أمكنه لفعلها بجناح وحيد!

ـ تخيفني يا عبده.

أخرج من جيبه زجاجة صغيرة فاح عطرها دون فتح سدادتها، قائلا بمزح: يخيفك بقائي قربك؟ ظننت أن زغاريد فرحك ستملأ المكان! خذي يا بديعة؛ أنه الخزامى، سيتعين عليكِ دهن جسدي به كل ليلة بعد أن استحم بماء ستبرده قلل أربع أحضرتها معي.

ـ عادتك الاستحمام بالماء البارد صيفًا وشتاء، لكن لمَ ماء القلل؟

ـ حين أفضي إليكِ بخاطري أنظر في مرآة تعريني من نزقي وطيشي. كل ما في الأمر أني أتهيأ لمرحلة جديدة في حياتي، وكما قررت الاستقرار قررت أيضا ترك الحشيش.

كان للكلمة وقع عجيب على أسماعها، توقعت بالطبع لحظة سيعييه فيها طول السفر وإرهاق الجسد، لكن أن يقلع عن الحشيش بكامل وعيه وإرادته هو ما لم تتوقعه يومًا! ماذا بشأن الجلسات اليومية طوال فترة إقامته بالمنزل عند الحاج حلبة صاحب محل التصوير؟ غرفة السطح التي يجتمعون فيها منذ عشرين عامًا فوق المحل! لدرجة أن قال عنها عبد السلام بأن خشب سقفها المعتق بالدخان لو أُحرِقَ، سيكون كفيلاً بمنحهم المزاج حين (يشح) الحشيش! ماذا أيضا بشأن الأرجيلة المقدسة القابعة في ركن الصالة والمتهيئة دومًا كالعروس لاستقباله؟ أيترك كل هذا ببساطة؟! قرأ تساؤلاتها في عينيها دون أن تتحدث، كعادتها لنظراتها تراجم صريحة لا تعرف الكتمان، لكنه تجاهلها ونهض يخلع ملابسه، ملتحفًا بمنشفة بيضاء كملابس الإحرام.

ـ القلل مقروء عليها سورة البقرة، بخرتها بـــ(طقش) شجرة لا تنبت سوى في جبال المغرب، انتبهي إليها، وأرجو أن تصنعي لي مغلي الينسون مذوبًا فيه ملعقة عسل من علبة أحضرتها بالحقيبة ريثما أنتهي من الاغتسال، سأستحم الليلة بماء الصنبور ومن الغد سأغتسل بماء القلل.

تركها وحيده بصحبة الخزامى تحدق شاخصة في أثر خطواته، تعيث برأسها التساؤلات رهابًا. لم تكن وحدها من تتملكها الحيرة؛ كذلك محمد الجالس بالخارج في صالة المنزل، يترقب لحظة مواتية، تستعر نيران الغضب بصدره كموقد الرمال، يجاهد في السيطرة عليها لئلا تنفجر مُحرِقة الأخضر واليابس، حتى دمدمات شقيقته الصغيرة حرية الجالسة إلى جانبه، تلتهم بامتعاض حبة سفرجل أتى بها عبد السلام؛ لم تستطع إلهاء عقله عن حربه المحتدمة. ضج بكل شيء! قلة حيلته، هزيمة أمه المتكررة أمام احتياجاتهم، ضعفه إزاء العالم من حوله، ومذلة لم يعد عنفوانه يسمح باحتمالها. العمل لدى عطار المغربلين صار أمرًا مرهقًا نفسيًا وجسديًا، يعمل تحت إمرته منذ ست سنوات، سبقتها أربع عمل خلالها بعد ساعات الدراسة لدى أحد حلاقي الغورية، يكنس شعر الزبائن من الأرض ثم يمسحها. كان

يعمل طوال الصيف أيضا بمجهود مضاعف وبلا كلل، لا يختلس لحظة راحة ولا يسرق متعة ولو صغيرة كاشتراء الحلوى مثل أقرانه، كان عليه الكد لأجل الشتاء المحمل بمستلزمات دراسته وملابس ثقيلة يحتاجها دولاب ملابسه القزم.

أصبح عمره الآن سبعة عشر؛ الوقت مناسب لعرض مطالبه في الفترة التي يعتكف فيها والده بحجرته في آخر الشقة، انتهى لتوه من تناول صينية (حنشان) ذبح سمكها المتلوي طزاجة بنفسه، وقد فاحت برائحة اجتذبت قطط الشارع، ليملأ عواؤها المحتج المنطقة رغبة في نوال جانب من الوليمة. طرق على الباب طرقتين حييتين، وحين لم يلقَ جوابًا علم أن بإمكانه الولوج لحضرته. دلف محني الرأس مشبكًا كفيه يعتصرهما، يسير بخطوات بطيئة مترددة صوب والده الجالس متربع الساقين فوق إحدى الوسائد على الأرض، أمامه حامل القرآن، يرتل من سورة الأعراف، وإلى جانبه طاولته الخشبية القصيرة، فوقها دواة حبر توشك على النفاذ؛ وريشة ملقاة بجانب رزمة أوراق على وشك التحول لكتاب، تغرق دموعه الساخنة وجنتيه، ويتعالى نشيجه كبكاء طفل صغير.

ـ مساء الخير يا أبي، طالت غيبتك هذه المرة!

ابتسم عبد السلام مكفكفًا دموعه، ثم نفخ أنفه في إحدى المحارم القماشية وأغلق المصحف، مجيبًا: الدنيا نداهة يا محمد، يفوز من لا يرهف سمعه لغنائها، ووالدك مسكين لا يملك تلك القدرة.

ـ لمَ أنت دائم البكاء كلما قرأت القرآن؟

جر عبد السلام الطاولة القصيرة، ووضع الخيط السميك بثقب الإبرة يدسها في ظهر رزمة الأوراق؛ قائلا: مولانا الأعرافي؛ العاشق لسورة الأعراف كعشقه للدخان الأزرق! ناداني الجميع باللقلب دون إدراك لحقيقته، أنا الأعرافي المسكين، ضميري سيف مسلط على رقبتي؛ أنا البائس! من خلط أعماله الطيبة بالخبيثة، من سيجلس متسولاً رحمته فوق الجبل يوم الحق المبين، من سينظر عن شماله مرتعبًا وعن يمينه آملاً يغرقه بكاء الندم، لكن

وعزته وجلاله ما ظلمت إلا نفسي؛ وإن آذيتكم رغمًا عني فأنتم بعضي.

اعتاد محمد تلقي إجابات طلسمية كعالم والده على أسئلة هي الأبسط، فعزف كعادته عن نيل المزيد من التفسير، وجلس متربعًا بجانبه، يحاول الحديث أن يفرج شفتيه باستماتة ليخرج ما بجعبته، لتظل شفتيه عصيتين تكتويان بالصمت دون أن تجرؤا على التفوه، ولا يسعى عبد السلام لحثه على الحديث! جعلت قطرات الدموع تتسرب من أجفانه شيئًا فشيئًا رغمًا عنه، ونشيج بكائه الخافت يغرق أسماع والده، ليرفع الأخير رأسه باسمًا بإشفاق، ويربت على كفيه المتشابكتين في حجره:

ـ تعبت يا محمد! ضاقت بك الحال أخيرا، استنفدت كل طاقتك على الاحتمال ولم يعد لديك المزيد يا حبيبي.

مسح محمد عينيه قائلاً بنبرة كسيرة: أمي تعبت كثيرًا يا أبي، يمكنني احتمال المزيد، لكن أعجز عن احتمال شقائها، يكويني عذابها ويزلزل روحي، أحتمل أي عذاب إلا عذاب بديعة!

أحنى عبد السلام رأسه قائلاً: ألقى بي الله بين ربوع الأرض متحديًا إياي أن أنجح في معاودة الصعود، بتُّ ككرة المطاط، يومًا أحلق نحو ملكوت رحابته، وآخر أنغرز في طين أصلي، وما بينهما رحلات طويلة من معاقبة نفسي.. ولحظات زهو!

ـ ما سر كل هذا التيه يا أبي؟ النساء! هل هن السبب في شقائنا؟

ـ لم تفهمني يا محمد؛ لكن.. أجل. أحب النساء ولا أخجل من الاعتراف ـ التمعت عيناه بغتة بشقاوة ـ لاأحب السمراء المخضبة بخمر التمور، والبيضاء المغموسة بقشدة الغيم، والقمحية التي غمرها فجر وليد بقبلاته؛ كلهن يسكرن النظرات، وينفضن عن الأرواح ضجر الرتابة؛ ألا تحبهن مثلي؟ غير معقول ألا تحمل دماء والدك الحارة يا ولد!

هز محمد رأسه في حيرة؛ فتنهد عبد السلام في صمت، وشرع يخلط الماء بالشبة والدقيق فوق نار سبرتاية، يقلبها بتأنٍ، حتى تحول الخليط للسماكة، ثم سأله:

ـ لكم تحتاج؟

لجزء من الثانية أصابت الدهشة محمد، لكن سرعان ما تذكر أن كثيرًا ما يعلم عبد السلام ما تواريه الأدمغة، وكل ما عليه التحديق مطولاً لمن أمامه، ليعلن بعدها بدقائق عما يشغله. فراسة أم رجم بالغيب؟ لم يعد يهتم، فجل همه الآن راحة بديعة.

ـ تعلم أنني أعمل في حانوت العطارة منذ سنوات، تقربت خلالها من صاحب العمل وطوعته بالحيلة ليُسِرَ إليّ بأسرار المهنة، وأشعر الآن أنني قادر علـــ...

ـ سألتك كم من المال تريد؟

وضع بعضًا من خليط الشبة والدقيق على ظهر رزمة الأوراق التي انتهى من خياطتها على شكل دفتر سميك، وجعل يلصق فوقها قطعة قماش من القطيفة مخفيًا الغرز، بينما ازدرد محمد ريقه سائلاً: لكن من أين ستأتي لي بما أحتاج؟

حدجه بتسلية وأمسك بالكتاب بين كفيه يضغطه بقوة، ثم وضعه أسفل الحاشية التي يجلس عليها؛ قائلا: (أكل ولا بحلقة؟)، لا تقلق يا بن الطيب، سآتيك بما تحتاجه لكن بشرط؛ تأتي معي الليلة وبلا أسئلة، معي أمانة ضقت بها ذرعًا، عليك أن تتسلمها ولتفعل بعدها ما تشاء.

لم يضف عبد السلام كلمة؛ إشارة إلى نهاية الحديث فامتثل محمد، رغم عدم امتثال أفكاره التي جالت بين زوايا عقله طوال النهار، منتظرًا بفروغ الصبر هبوط الليل.

«لأين ستأخذني يا عبد السلام؟ لأين يا أبي؟»

* * *

ومن بين كل التصورات وعشرات التكهنات، لم يهيئ له عقله ما كان بانتظاره تلك الليلة! تبع والده في صمت، يستشعر الأخير مدى الضيق

الذي يعتري ابنه؛ كمن يقدم مغصوبًا على أمر لا يطيقه! أعلمته بهذا ملامحه المتجهمة والتقطيبة الراسخة بعمق بين حاجبيه الأنيقين. وجد محمد نفسه في النهاية بعد رحلة قصيرة بالحنطور داخل إحدى حواري الحسين، أمام منزل من طابقين محشور بين بنايتين عتيقتين لاح بينهما كالقزم. طرقا الباب فاستقبلهما رجل مفتول الشوارب مربع الهيئة يميل للضخامة بملامح خشنة، ونظرات تطل منهما وداعة في تناقض عجيب.

ـ يا مرحبًا يا عبد السلام أفندي، أم تفضل شيخ عبد السلام؟

ـ يكفي عبد السلام يا عزب، هل أخبرك الوسيط بشروطي؟

أومأ الرجل: أجل. لكن لم يخبرك بشروطي ـ أشار لغرفة الضيوف ـ تفضلا من هنا.

جلس محمد يجيل أنظاره حوله، يحاول عبثًا استشفاف الأمر، فيما جعل والده يخرج أدوات أحضرها معه ليضعها على المائدة؛ مصحف وقلم كوبيا ودفتر صغير فتحه على صفحة تحوي رموزًا وأرقامًا مبهمة ورسمًا هندسيًا تحفه أحرف متفرقة ودوائر.

وجه عبد السلام حديثه لعزب: أحتاج لقلة فارغة كانت رطبة. نادى عزب أهل بيته وأمرهم بإحضار ما طلبه، ثم قال: كما ترى يا شيخ، أنا لا أمـ...

نهره عبد السلام: لا تنادني بالشيخ.

ـ حسنًا يا سي عبد السلام لا تغضب، كنت أقول إني رجل على (قد حالي)، لا أملك ما أدفعه لك، ولولا أن الغرض الضائع ثمين ما طلبت المساعدة.

ـ وأنا لم أكن لآخذ مقابلاً قبلاً يا عزب لولا الظروف.

ـ أرجوك يا سي عبد السلام، زوجتي الملعونة لن تتوانى عن افتعال فضيحة، تتهم شقيقتي التي لم تتزوج بعد بسرقة سوارها الذهبي الذي ورثته عن والدتها نكاية بها وغيرة، نحن لا نملك الكثير كما ترى لكنها تعتز كثيرًا

به؛ لدرجة أنها رفضت بيعه رغم أزماتنا العديدة. ترفض تصديق أن لا يد لأي منا في الأمر؛ يعيش والداي وشقيقتي في الدور العلوي ونحن في الدور الأرضي، ستشتعل النار بين أفراد عائلتي وهذا لا يرضيك، أتوسل إليك، عليها أن تعرف الحقيقة بأي ثمن، أما بالنسبة للمقابل فلا أملك من حطام الدنيا سوى هذا ـ أخرج من جيبه جعرانًا أزرق ـ اعتبره هدية مقابل معروفك، لو كنت أملك سواه والله ما تأخرت.

ـ لكن يا عزب أنا حقا بحاجة للمـــ.. من أين أتيت به؟!

سارع الأخير بوضع الحجر بين يديه، فقطب عبد السلام وهم بالاعتراض، لولا ملامحه التي لانت بغتة محدقًا بالحجر.

ـ له رائحة الملح والصحراء! هل سُميتَ تمينًا باسم جدك؟

رفع الرجل حاجبيه دهشة: الله أكبر! بركاتك يا شيخ عبده ـ رمقه الأخير محذرًا ـ أعني يا.. يا سي عبده! أجل، سميت تيمنًا باسم جدي الكبير الصول عزب، يقال إنه جلب الجعران من منطقة حفر قناة السويس قديمًا، لكن كان يكره الاقتراب منه؛ اعتدت أن أندس في الفراش للنوم بينه وجدتي، فسمعت في إحدى الليالي صراخ جدي عزب وهو ينهض من نومه قائلاً إن الشياطين لا تريد تركه لحاله، وإن الحجر الذي يضعه أسفل وسادته ملعون يتسبب له بكوابيس، يرى أناسًا يضربون صدغه ومؤخرته بمقارع من حديد ويطالبونه بأن يعيده لصاحبه، فيزعق غاضبًا أنه صاحبه ولا صاحب للحجر سواه. لن تجعلك تلك التخاريف ترفض أخذه، أليس كذلك؟

ابتسم مجيبًا: لا يا عزب قبلت هديتك، أرسل في إحضار أهل بيتك إلى مجلسنا ريثما أعمل على القلة ـ هم محمد بالاعتراض فعاجله ـ اصبر!

أمسك عبد السلام بقلم (الكوبيا) مبللاً طرفه بشفتيه، وجعل يكتب على القلة حروف وأرقام بتراكيب معينة، ورسوم من دوائر ومسدسات ومثمنات، تتعلق أنظار الحاضرين جميعًا بأصابعه وكأن على رؤوسهم الطير حتى وصل لقاعدتها وخط الحرف الأخير، فأشار بالاقتراب لطفل من أهل

عزب تأكد من أنه لم يكمل عامه السابع، نحيل البدن حد النحافة، بعينين واسعتين تطل منهما شقاوة محببة. وضع إحدى يديه على رأسه وجعل يقرأ بصوت خفيض آيات قرآنية، مناديًا بأسماء غريبة النطق لأشخاص غير موجودين بين الجمع المراقب. كان الهدوء شديد الوطأة يغلف الغرفة بسحابة ثقيلة من الترقب، وحين انتهى نظر للصبي باسمًا:

ـ نجمك خفيف ومثالي للمهمة، أحتاج ليدك الخالية من (نبوت الغفير) ـ امتثل الصغير لأمره فيما يمص بتلذذ الحلوى ـ والآن سأقرأ بعض القرآن الكريم يا حسين.

تبادل الحضور نظرات الدهشة؛ لم يأتِ أحد على ذكر اسم الصبي، فأمسكت والدة الطفل بذراع زوجها: أنا خائفة على الولد يا عزب.

قال من بين أسنانه: ألستِ من صدع رأسي بالزن ليل نهار متهمة شقيقتي بالسرقة؟ تجرعي إذن نتاج جنونك! الوسيلة الوحيدة لإخراسك ظهور الحق مهما كلف الأمر.

وضع عبد السلام قاعدة القلة على كف الصبي، مربتًا فوق كتفه: حين تجذبك القلة سر معها ولا تقاومها، سترشدك إلى مكان سوار والدتك، ألا تريدها أن تستعيده؟ ـ أومأ الصبي مختلسًا نظرة متسلية لأمه طاحنًا حلواه بضروسه ـ لنبدأ.. بسم الهادي.

عاود عبد السلام قراءة آيات منتقاة من القرآن بملامح صارمة ونبرة هادئة واثقة، حين تفاجأ الجميع بالصغير يلحق بالقلة التي جذبته خلفها وقد التصقت قاعدتها بكفه! كان الصبي يضحك بمرح متعاملاً مع الأمر كلعبة، فيما نهض الجميع وساروا خلفه، تتعلق والدته كالمهاويس بذراع والده، تضرب فوق صدرها بكفها رعبًا، حتى همت بالصراخ فأخرستها نظرة محذرة من عيني عبد السلام. دار الصبي في أنحاء الدار عدة مرات حتى استقر أخيرا أمام باب غرفة الخزين، فتح عزب الغرفة بأصابع مرتعشة، ليدلف الصبي برفقة القلة ويسير صوب أشولة الغلال والدقيق المطحون؛ حتى توقف أمام إحداها لتميل القلة فوقها، ثم تنزلق على

الأرض متحطمة. رفعت والدة حسين يدها مخرسة شفتيها عن الصراخ، فيما مد عبد السلام يده داخل شوال الدقيق، ليخرج سوارًا ذهبيًا أعطاه لعزب الذي هتف بذهول: ولكن.. ولكن ما معنى هذا؟ هل أخفته بنفسها أم سقط منها في غفلة؟ أم أن هناك من أخفاه هنا؟

قال عبد السلام: لا شأن لي ولا لك بهذا، أردت معرفة مكانه فدللتك عليه، لا تسأل عن أمور إن تبد لك تسؤك، أمر الله بالستر وما أجرؤ سوى على الطاعة ـ أخرج الجعران من جيبه ـ هل هذا رأيك الأخير؟ حسنًا.. السلام عليكم.

قرر عبد السلام العودة سيرًا على الأقدام، مدركًا أن محمد لديه مئات الأسئلة التي يعج بها رأسه. اشترى كوزين من الذرة المشوي في أثناء سيرهما وناوله أحدهما.

ـ هيا اسأل وسأجيبك بأمانة.

أطرق محمد في صمت، وقضم الذرة يلوكها ثم سارع بابتلاعها، قائلاً: أعلم عنك هذا منذ فترة طويلة، ذكرى قديمة لا تزال ملامحها محفورة برأسي، رأيتك من ثقب الباب إحدى المرات التي اصطحبتني فيها ترشد أناسًا إلى ساعة فضية ضائعة، لم اهتم حينها لمعرفة التفاصيل، لكن ما رأيته الليلة قلب الكثير من موازيني، لم أتيت بي؟

ـ لكي ترى بنفسك طبيعة الأمانة التي ستحملها، جدك حملني بثقل الجبال ذاك رغمًا عني، امتثلت لأمره كي لا أغضبه لكن لم أطق البقاء طويلاً فهججت، والآن دورك، ربما لن تكون مخيرًا في حملها، لكن ستكون مخيرًا في استخدامها.

تأبط عبد السلام ذراع محمد متكئًا عليه في لفتة حنونه لم يستشعرها الأخير قبلاً

ـ لكن لم تحملني بأمر لم تطق عليه صبرًا؟!

ـ سأخبرك بما أخبرني به جدك، سأمنحك كنزًا إن شئت جعل منك

ومن ذريتك أغنياء أبد الدهر. حلقة جديدة في تحدي الصعود وعليك الاختيار.. فالإغراء كبير!

ـ ماذا إن رفضت؟

ـ الإغراء كبير كما أخبرتك.

ـ لم أكن يومًا من المعتقدين في الخوارق، فما لا تلمسه يداي وتراه عيناي خارج حساباتي.

توقف مواجهًا إياه: لكنك تؤمن بالغيب ولا شك. أعني الغيب الأزلي الذي لا يعلمه إلا الله ويختص به بعض من ملائكته ورسله؛ صميم عقيدتنا وإيماننا، أليس كذلك؟ ـ أومأ محمد موافقًا ـ حسنًا إذن.. يبقى اثنان من أنواع الغيب تعلمهما ولكن لا تدرك ذلك؛ الغيب الوقتي وهو الحدث المرهون بوقت معين وسينكشف بعدها لأي كان، مثل أن يفعل أحدهم شيئًا في الخفاء ثم يعلن عنه بعدها، والأخير وهو ما أعمل عليه أنا؛ الغيب الماضي؛ حدث وقع في الماضي علانية أو خفاء، قبل لحظة أو بالأمس، المهم أنه وقع بالفعل؛ وهنا يأتي دوري لكشفه.

ـ أتعني أنك تسخرهم ليخبروك بما وقع بالفعل لا بالغيب؟

ـ لا أحد يملك القدرة على معرفة الغيب الأزلي، ومن يدعي هذا ظالم لنفسه وكاذب مدع، كل ما في الأمر أني استخدم قدرات عالمهم البديهية لهم والخارقة لنا للإحاطة بما خفي عنا، المهم أن يكون الحدث قد حدث بالفعل، عدا هذا أنا لا أملك من أمري ولا أمر غيري شيئًا، كما أن العلاقة بيني وبينهم ليست بالسهلة، والسيطرة على أحدهم لا تأتي بين ليلة وضحاها؛ فالأمر غير متاح للجميع؛ هناك من يملك القدرة وهناك من لا يملكها، هي أمور تتعلق بطبيعة الإنسان ومدى استعداده ـ تنهد كمن يحمل جبالاً من الهم ـ مساوئ الأمر أكثر من محاسنه.

ـ ماذا بشأن النقود؟ لم تحصل سوى على الحجر.

ـ ستأتي النقود، لا تقلق، المهم الآن أن تهيئ نفسك للتعلم.

الكون أكبر من أن يحتويه عقل محمد الضيق، وإيمانه بالوجوديات لا ينبغي أن يمحو ما وراء الغيبيات؛ فلا يجب أن يكون من العجرفة بأن يظن أننا نعيش في فضاء الكون الفسيح ذاك وحدنا، لكن المهم حرصه على ألا تكبله تلك المعرفة الجديدة فيصبح تابعًا ضريرًا لها! هكذا قطع عهدًا على نفسه.

* * *

(٢٨)

ـ مبارك يا راغب، فرحتي بزواجك بزاد لا توصف.

ـ أشكرك حرية هانم، في الحقيقة زاد أجمل ما حدث لي منذ فترة طويلة.

قال محمد مرتشفًا من فنجان قهوة طلب من شقيقته إعداده بعد العشاء: أعلم أنكِ سعيدة لزاد يا فري، لكن ثمة لمعة في عينيك لا أغفلها، ما السر؟

ـ أمر مهول الروعة يا محمد، ستعرفه بعد قليل، هو مفاجأة.

ـ أنتظرها بشغف. وبالحديث عن الشغف، لِمَ أراكِ نزقة الليلة يا بديعة؟ لستِ متحمسة لزيارة خالك المفضل كما تدعينني دومًا!

قطبت بديعة، تهز قدمها المرفوعة فوق راحة المقعد بضجر: لا شيء يا محمد، كل ما في الأمر اختلاف معتاد في وجهات النظر بيني ووالديّ.

قالت حرية: الآنسة بديعة تريد الذهاب في رحلة مع أصدقائها إلى إحدى الغابات لإقامة معسكر.

تساءل راغب: وما المشكلة؟ المعذرة إن تدخلت فيما لا يعنيني.

قال كريستوفر: أنت الآن واحد منا يا عزيزي، لا داعي للاعتذار، فري قلقة على ذهابها وحدها، خاصة أن ثمة بودار إعجاب بينها وأحد أصدقائها. تعلم حساسية الموقف.

ـ لم أذهب إلى الغابات من قبل! هذا ليس عدلاً أبدًا. الكثير يفوتني.

ضربت زاد جملة بديعة الأخيرة كالصفعة! كانت تتابع الحوار في صمت، لا تزال أفكارها ترزح تحت وطأة ما دار بينها وراغب في غرفتهما قبل سويعات؛ لا تدري إلى متى ستبقى على هذه الحال وقد سئمت نفسها! لكم تتمنى أن تقدم على تلك الخطوة وتهدم الجدار الحائل بينها والحياة الطبيعية، راغب للآن شخص رائع ومتفهم، وليس بذنبه أنها شخص معقد، منعها حقوقه ليس من العدل في شيء، كما أنها تتوق لأن تعود امرأة؛ لا خيال مآتة في حقل الوحدة والخوف. قالت في محاولة للخروج من قوقعة هواجسها: أرى أن الأمر بسيط يا عمتي، ديعا ليست صغيرة، وأنتما تمنحانها الثقة منذ زمن طويل.

ـ هذه المرة مختلفة يا زاد، لا آمنها على نفسها، تعلمين ما يمكن أن تفعل بنا العاطفة إن سيطرت علينا.

نهضت بديعة بعصبية: مناقشة حياتي العاطفية بل أمور حياتي كلها على المشاع شيء سخيف؟ أنا فقط من يقرر ولا شأن لكم بي جميعًا.

همت بالمغادرة حين استوقفها راغب: ألم تفكري يومًا بالذهاب في رحلة إلى القاهرة؟ كيف لفاتنة مثلك ألا ترى مثيلاتها على جدران المعابد؟ بالتأكيد أخبروكِ أن ملامحك مغموسة في مصريتها رغم ألوانك الصاخبة.

ابتسمت زاد بتسلية فيما ساد صمت تعلقت خلاله الأنظار ببديعة الواقفة في منتصف المسافة، تردد بحيرة: القاهرة؟

ـ بالطبع، تهتمين بزيارة الغابات البريطانية الباردة متناسية طقس بلادك الرائع، مصر من أجمل الأماكن التي يمكنك زيارتها، أملك شركة سياحية يمكنها ترتيب كل الخطوات اللازمة، وإن شئتِ اصطحبتِ معك صديقاتك، سأضع لهن خصمًا جيدًا وستكون الرحلة هديتي لكِ.

ـ أحقًا يمكنني هذا؟ ماما، هل توافقين؟

أغلقت حرية فمها المفتوح كالسمكة: كيف لم أفكر في الأمر من قبل؟ نلومك على الدوام لرغبتك الجنونية في الانسلاخ عنا، أو بالأحرى عني وعن ثقافتي، غافلة عن أني لم أفكر لمرة في التقريب بينك وبينها، كم أنا حمقاء! وكم فكرتك عبقرية يا راغب!

قال كريستوفر: حسم الأمر، سنستبدل رحلة القاهرة برحلة الغابة.

هتفت بديعة: رائع، ساذهب للاتصال بصديقاتي لأعرض عليهن الفكرة.

ابتسمت حرية بامتنان، ثم نهضت تحمل قسماتها حماس طفولي: والآن، حانت اللحظة التي كنت بانتظارها طوال اليومين المنصرمين! تعالوا معي.

أشارت للجميع كي يتبعوها صوب غرفة المكتب الخاصة بكريستوفر. فتحت الباب وأضاءت المصباح، ليظهر على يمين الغرفة واجهة زجاجية كبيرة بطول وعرض الجدار، احتوت عدة رفوف متراصة مقسمة إلى مكعبات على شكل صناديق، حمل كل منها قطعة أثرية، بعضها من الذهب وبعضها من الأحجار الكريمة أو تماثيل صغيرة من الحجارة والرخام والبازلت وبعض العملات. لم تكن الرفوف ممتلئة عن آخرها وثمة مواضع كثيرة فارغة. أشارت لإحدى الصناديق قائلة:

ـ انظر يا محمد إلى القطعة الأثرية الجديدة التي أحضرها كريس.

اقترب مضيقًا عينيه وسرعان ما اتسعت نظراته ذهولاً: مستحيل!

أومأت حرية مغرورقة العينين: أنا أيضا قلت هذا فورما أخبرني كريس بالمحفور فوقها، هل تصدق يا محمد؟ كان يعلم أنها ستعود.

ـ لا أظن، ربما تمنى أو دعى، لكن لم يكن يعلم فهذا مستحيل!

قالت بعتب: ما زلت تنكر عليه طبيعته الخاصة؟

ـ بل ما زلت أذكر درسه الأول، الغيب الوقتي! يستطيع أن يعرف ما حدث، أما ما سيحدث مستحيل ـ التفت لزوج شقيقته ـ هل تسمح لي برؤيتها عن قرب؟

فتح كريستوفر الواجهة الزجاجية وأخرج الجعران الأزرق وناوله إياه، فسحب محمد نفسًا عميقًا من الهواء، ورفعه صوب الضوء مدققًا في النقش المكتوب خلفه، قائلاً: لا أفقه شيئًا في اللغة المصرية القديمة، لكن هذه الأحرف الهيروغليفية بترتيبها مطبوعة في ذاكرتي كنقش المقابر؛ ني كاو.. ميليت ـ التفت موجهًا حديثه لزاد ـ يحمل اسمك، اسم أوصاني جدك بألا أنساه ما حييت، وجعلني أقطع عهدًا بهذا.

ـ لذا فورما أخبرتك بشأن حيرتي في اختيار اسم أتوارى خلفه، أشرت عليّ بميليت؟

ـ ربما يعود هذا أيضا لتأنيب ضميري يا زاد؛ كنت سبب خروج الجعران من مصر.

قال كريستوفر: عظماء أجدادكم! عباقرة؛ لم يأمنوا لذاكرة سلسالهم العقيمة، فآثروا حفر ذاكرتهم على الصخور والمعابد، كانت الأبقى.

ـ لكن من ني كاو وميليت؟

قال كريستوفر: يخلد الجعران قصة حب فريدة بين أحد الملوك وكاهنة معبد هليوبوليس الملقبة بذات الريشتين؛ أي (الآرت).

قص عليهم كريستوفر التفاصيل التي استقاها من كتبه ومراجعه فور حصوله على الجعران؛ حيث كان نخاو الملك الوحيد الذي كتب مذكرات بخط يده على برديات، ومعها قصة حجر الجعران الذي كان هديته لمحبوبته الآرت ميليت تعبيرًا عن عشقه لها. أخبرهم أنها كانت عالمة وكاهنة فى معبد هليوبوليس، ساعدته على الشفاء من داء الشقيقة، وهو ما توصل إليه العلماء بعد دراسة أعراض المرض التي وصفها الملك فى مذكراته؛ كالوميض والأشباح التي كان يراها حين تشتد عليه وطأة الألم، قال أيضًا أنه قد عُثر على مقبرة هذا الملك في مكان غرب النيل، لكن لم يتم العثور على مقبرة لزوجة الملك، فقط وجدوا بعض الأشياء التي تخص والده بسماتيك الأول وشقيقته، ومن بعده ابنه الوحيد الذي تولى العرش (بسمتيك الثاني)، وأن الملك قد اختار الجعران لأنه كان

رمزًا آنذاك لقوة الحياة واستمرارها، حتى إن بعض العلماء يؤكدون قدرته على النجاة من الانفجارات النووية، فبرهن الملك بهذا لمحبوبته على أن عشقهما أبدي، ما جعل الكاهنة تحصن الجعران بتعويذة خاصة، تعمل على حمايته من السارقين، وتجعل كل من تسول له نفسه بالاستحواذ عليه ظلمًا وعدوانًا يقابل أبشع كوابيسه وكل أشباح نفسه المتخفية بين دهاليز عقله ورغباته السوداء وخطاياه.

تساءل راغب: لكن كيف حصلت على الجعران يا كريس؟

ـ أحد سماسرة الآثار هنا بلندن، مصري يدعى دياب، كم من المحزن أن تكونوا من اخترع الضمير ومن أجهز عليه!

قطب راغب لجزء من الثانية ثم زفر بسخرية: دياب! بالطبع.

قالت زاد: لكن كيف وصل الجعران إلى لندن من الأساس؟

جلس محمد على أحد المقاعد الوثيرة، مجيبًا: أعتقد أن التفسير الوحيد لهذا هو بيع والدي الجعران للمخرج اليهودي الأصل (ستفان مزراحي). أذكر حين رأيته كان وجهه يحمل سؤالاً وحيدًا جليًا كالشمس (ما الذي أتى بي إلى هنا؟!)

قالت حرية: جاء ستفان لوالدي بحثًا عن فتاة يهودية تدعى ليليان، عملت كممثلة تحت اسم راقية إسماعيل، قيل إنها تورطت في قضية اغتيال أحد علماء الذرة المصريين، التقته في لندن إثر خطة محكمة بينما كان في بعثة هناك للدراسة، تعرفت عليه ونشأت بينهما صداقة حميمة، توالت زياراتها إلى منزله ما وطد بينهما العلاقة، تنقلا معًا بين المتاحف والسينما وأمضيا الكثير من الوقت برفقة بعضهما، حتى حانت اللحظة التي كشفت فيها ليليان عن وجهها القبيح، وعرضت عليه العمل لصالح أمريكا نظير حصوله على الجنسية، وحين رفض وطردها، لم يمر أسبوع إلا وقد سحقته إحدى الشاحنات في أثناء عبوره الطريق، ولم يتم إثبات الأمر بشأن تورطها في عملية الاغتيال؛ بحثت عنها في شبكة المعلومات.

قال راغب: أتعنين أنه سافر خلفها إلى لندن للبحث عنها؟

قال محمد: ربما! نحن فقط نحاول تحليل ما نملكه من معلومات ضئيلة.

فوجئت زاد بكريستوفر زوج عمتها يضع القلادة حول عنقها: هي لكِ يا عزيزتي.

رفضت متعللة: إنها غرض ثمين!

أصرت حرية: أنا من دفع ثمنه يا زاد من أموالي الخاصة، قررت هذا فورما رأيته مع كريستوفر. هو لكِ كما قال، هدية زواج متأخرة من عمتك. على الحجر أن يعود إلى مصر، وفرص عودتكم أكبر من فرصتي، لا سيما وقد أدمنت ترحالي وانتهى الأمر.

* * *

(٢٩)

غادر راغب غرفتهما تاركًا إياها مستلقية تحدق في السقف، تمارس تمرين شد عضلات البطن بعدما قررت التوقف عن استكمال محاولته الألف لممارسة الحب معها، متعللة بأن السير ببطء سيؤدي إلى نتائج أفضل! يعترف أن الأمر مرهق؛ كبح جماح احتياجاته يزعج جسده المعتاد على النهل كيفما شاء، كما أنها حالة غريبة تنتابه كلما تطلع صوبها؛ منذ متى تجذبه الأجساد النحيلة؟ يحار في وصف ما يصيبه برفقتها، كأنها قوى خفية تشعل توقًا حارقًا للاقتراب منها ولمسها، يود لو يوري نارها بيديه، مستمتعًا بأنفاسها المحترقة وتوسلاتها نافذة الصبر أسفل مداعبات أنامله ووطأة العاطفة. زفر هواء ملبدًا بالإحباط ليستنشق رائحة طعام شهي من المطبخ.

ـ ماذا سنأكل الليلة؟

أجاب محمد مضيفًا للقدر الآخذ في الغليان كبشة من أعشاب، فانبعثت رائحة طيبة: سبانخ بلحم الضأن على طريقتي الخاصة.

جلس على مقعد طاولة الطعام: رائحة طهيك قادرة على تغييب الوعي!

أضاف بعضًا من بشر حبة تشبه البندق: إنها الخلطة، أعشاب برية طازجة أزرع أصصها بنفسي، وجوزة الطيب ـ أردف غامزًا ـ تشد العصب.

اتسعت عيناه ذعرًا وأمسك بيده: تمهل يا عمي أرجوك! ضع القليل، تعلم أني..؟ أعني أنا في غنى عن المزيد! ـ تابع بيأس مستندًا لراحته ـ حسنًا، لا تشغل بالك، البركان ثائر على أية حال.

ـ لستَ على ما يرام، ثمة خطب بينك وزاد؟

ـ لا مناص من بعض التوتر بين الحين والآخر.

صب بعضًا من عصير ليمون ونعناع في كأس أنيق وناوله لراغب: ثمة جروح يعجز الحب عن مداواتها مهما أنكرنا، جروح قبيحة متقيحة، لا يصلح لتطهيرها سوى الكي بالجمر والغسل بماء النار، لكن أحيانا كل ما تحتاجه بعض الصبر والتفهم. أبسط الأمور كثيرًا ما تكون قمة العبقرية.

ود راغب إخباره أن السجن كالصيد يعلِّم الصبر، لكنه كذلك يصيب بالانكسار، وفشله معها لا يزيد الأمر إلا سوءًا! كانوا فيما مضى يسمون السجناء بالنار ليظل العار لصيقًا بهم، أما هو كان يكفيه إلقاء نظرة في المرآة ليرى في عينيه قتامة القضبان. ظنها انتصارًا صغيرًا فكانت هزيمة مضحكة! يعتقد محمد أن لحظات التوتر أمر عابر عليه تفهمه، ولا يدرك أنهما للآن غريبين في كهف ضيق. لم تخفه النساء يومًا على مختلف فصائلهن؛ فلديه الوسيلة للتعامل والتفاهم، كما أنه يمهر في لغة الجسد وتعابير الغرام التي تتبخر أمامها كل الحواجز، فيكفي حينها الصمت كي تهيئ الحصون للدك، لكن معها لا شيء ذا جدوى، فقط فشل ذريع!

ـ أحرص على تفهمها واحتوائها، لكن أشعر أحيانا أن الأمر أكبر مني.

ـ نظل لعمر طويل يا راغب مضغة مخلقة وغير مخلقة، تنحتنا الظروف وتثقلنا التجارب، تحقننا بردات الفعل التي ستطفو على سطح انفعالاتنا في اللحظة المناسبة، نبقى عمرًا أجنة قابلة للتكوين حتى نخرج من رحم تجاربنا. المشكلة أن زاد لم تخرج من رحم تجربتها بعد، لا تزال متكورة بداخلها في وضع جنيني دفاعي؛ لم تكن ابنتي يومًا تعرف للهم طريقًا! ربما خطئي الجسيم حرصي على أن يكون العسل في حياتها مصفى

بلا وخزات النحل، كانت أحلامها كفرخ وليد تتطلع لأن يكسو الريش جناحيها وتحلق صوب الأفق.. فسلخوها تلك الليلة حية!

أراد الصراخ في وجهه متسائلاً: أي ليلة لعينة تلك وقد سئم الألغاز! يكلمه بأريحية ظانًا أنها أسرت إليه بكل شيء، وتحدثه هي بتلميحات لا تسد رمق حيرته. لكن يظل لوعده لها الكلمة الأخيرة.

انتزعه محمد من أفكاره: نحن الرجال مخلوقات طاردة بطبيعتها والمرأة جبلت على الاحتواء، لكن لا بأس في أن نقوم بدورها بين الحين والآخر. كانت والدتها رحمها الله تشكل جزئي الناقص. وستكملان بعضكما البعض؛ حبكما قادر على هذا.

ارتجف كمن ضربته موجة صقيعية، من أتى على ذكر الحب؟ هو في غنى عن المزيد من التعقيد، الزواج أمره بسيط لكن أن يتورط بالعاطفة؟ هذا أكثر مما يحتمل.

ـ ألم تفكر في الذهاب إلى طبيب نفسي؟

ـ ألم تخبرك؟! ذهبت بالفعل لأسبوعين ولم تطق صبرًا. أعلنت أن الأمر بلا طائل، لا تيأس أرجوك. علمتُ حين تقدمتَ للزواج بها أنه لعب بالنار لولا نظراتك؛ رأيت فيها عاطفة جعلتني أؤمن بأنك الشخص المنشود لانتزاعها من كوابيسها، أبوتي لم تكن كافية، لكن حبك لها كاف، احتضنها كثيرًا وقبلها مرارًا، قبلاتك ربتات حانية فوق روحها المضطربة، هي نصيحة قديمة من والدي؛ أشهد أنه كان خبيرًا بالنساء.

ـ للحق والدك شخصية غريبة لم أسمع عن مثلها من قبل؛ ورغم أن هناك جوانب من حياته خفية عليكم، ووجهًا آخر ربما لم تقابلوه في خضم غيابه، لكن يبقى له بالغ الأثر على كل من يسمع به، حياته لغز محير!

ـ أجل. كانت حياته لغزًا، ومن المستحيل نسيان أي تفصيلة بشأنه، خاصة لحظات احتضاره التي عكفت أمي على ترتيلها لشهور على أسماعي معذبة كلينا.

ـ أنتم حقًا عائلة ماهرة في إشعال الفضول!

* * *

(٣٠)

رجل كعبد السلام لا يبتلعه الغياب بسهولة، وكما كانت حياته ملحمة ضخمة، كانت وفاته أيضا نهاية هي الأغرب. بعد حصول محمد على مبلغ لا بأس به من بيع الجعران؛ سارع لاستئجار حانوت أحلامه بمساحة مناسبة ليباشر عمله الخاص، ملأه بالعطارة ولوازمها مستغلاً كل تفصيلة في ذاكرته مما اكتسبها من خبرة السنوات العجاف، لكن أجمل ما في الأمر أن عبد السلام أيضا كان له بصمته، عاونه على صنع خلطات تداوٍ خاصة، أذاعت صيته بين الزبائن، مذهلاً محمد بمدى بحر علمه الواسع في هذا الشأن؛ وقد تحولت الحياة بعدها للرغادة شيئًا فشيئًا. انتقلوا بعد اقتصاد جزء من المال إلى شقة تولا التي بقيت مغلقة لسنوات بعد رحيلهم، لتنهمر دموع بديعة فورما وطئت قدماها البلاط المغموس بملح الرطوبة، مجترة ذكريات حنان ديمو وابتسامة تولا وكرم آريسيانو.

مرت الشهور بعدها هادئة يصحو فيها محمد على صوت تلاوة والده للقرآن ونهنهة بكائه عند الفجر، ويمسي على ضحكاته وبديعة ليلاً يتسامران بأحاديث لا تنقطع، شاعرًا بالسكينة للمرة الأولى في حياته، مستمتعًا بدفء

أسرة عانت طويلاً مرارة الحرمان العاطفي والمادي، لكنها الدنيا لا تبقى على حال!

كان عبد السلام قد انتهى كعادته قبل الغداء من تجرع كوب كبير من عصير الطماطم المذابة فيه ملاعق من العسل الأسود، يرى أن الخلطة كإكسير الحياة تمنح الشباب والقوة للجسد الهزيل. جلس لنسخ آخر صفحة بخط يديه من كتاب التداوي بالأعشاب لابن سينا الذي اقترضه من مكتبة صديق ليالي التحشيش الحاج حلبة. وكانت بديعة تعد أطباق الطعام في المطبخ حين سمع طرقات على باب الشقة، هم محمد برؤية الطارق وقد عاد لتوه من العمل، فمنعه عبد السلام بإشارة من يده وأمره بالذهاب للحاق بصلاة العصر، حاول محمد إثناءه لكنه أصر بشكل كبير فأذعن لمشيئته وغاب داخل الحمام للوضوء. أطرق عبد السلام لوهلة في صمت ثم رفع رأسه وابتسم متجهًا للباب، فتحه ليجد سائلاً يمد يده في إشارة بالجوع والحاجة للصدقة، أخرج حافظة نقوده ومنحه كل ما تحويه مشيرًا إليه بالانتظار، ثم اتجه للمطبخ وحمل طبق مليئًا بالطعام وأعطاه للسائل مربتًا فوق كتفه قائلاً أنه رزقه من عند الله، ثم أغلق الباب دون اهتمام باسترجاع الطبق الذي ستنزعج بديعة حتمًا لفقدانه. سار حتى منتصف الصالة ووقف يتطلع فيما حوله، وأخرج حافظته مجددًا منتزعا منها صورة الفنانتين، ألقى بهما على طاولة الطعام ودس صورة بديعة بين طيات ملابسة، ثم سارع مناديًا إياها. لم تسمعه في المرة الأولى وسمعته في الثانية. جاءت يحمل وجهها علامات الاستفهام، فمد ذراعه يدعوها لتقترب دون أن يتحرك. اقتربت باسمة فغمرها بين ذراعيه وطبع قبلة فوق جبينها قائلاً: والآن.. عليكِ أنتِ احتضاني يا بدعدع ـ همت بسؤاله لولا ثقل جسده المفاجئ ـ لا تخافي ولا تحزني ولا تنادي محمد، هذه لحظة تخصنا وحدنا، أنا وأنتِ فقط يا عزيزة عيني.

هبطا على الأرض كورقتي خريف، متشبثًا بخصرها، يستند برأسه إلى زندها الذي اشتد كجزع شجرة معمرة، يستنشق عبير الفل فوق جيدها. لتهتف بجزع: ما الأمر يا حبيبي؟ ما بك؟

ابتسم قائلاً: نهاية المسير الطويل يا بدعدع، سأترجل أخيرا عن الفرس الجموح، لم يعد للروح مكان في الجسد. يا رحيم، ارحم الأعرافي الفقير إليك. أتسامحينني؟ أتسامحين عابر السبيل التائه في الملكوت؟

ـ لم أضمر لحظة لأسامح يا عزيز عيني، أقسمت عليك ألا تفطر قلبي، حدثني ولا تصمت. ما بك؟ دعني أنادي محمد لينجدنا.

ـ لا عاصم اليوم ولا منجد منه سواه، يا رحيم.. أنت الكريم.

هتفت باكية بلوعة: لا تقل هذا يا عبده، ليس بعد عثوري عليك!

ـ كيفما بكيتِ يظل لأنفك الأحمر بهاؤه، سألتك ألا تخافي ولا تحزني، تركت لك وتدًا ستتكئين عليه لآخر العمر، محمد الأفضل، دومًا كان ودومًا سيكون، فقري به عينًا، والله لم يزاحم في الروح سواكِ وإن شردت العين أحيانا كثيرة وغفل القلب.

رفع عينيه صوب الأعلى، تحمل قسماته مزيجًا من التمني والوجل، فأدركت بديعة أنها النهاية التي أتت في غفلة من زمنها، ظنت بحماقة لم تتخلص منها بعد أن الحياة أخيرا ستبتسم لها، وتمنحها إياه بعد طول انتظار، لكن يظل الطير طيرًا مهما مرت الأزمان، مصيره للفضاء الرحب لا مستقر له سواه.

ضمته بقوة لصدرها هامسة: استرح يا حبيبي، هنا دومًا ملجؤك وراحتك، لا تقلق.. بديعة معك للنهاية.

غمر العرق جبينه، تعلو شفتيه صفرة كهرمانية، وأنظاره تتشبث بالأعلى فيما تجاهد شفتاه للابتسام، يمد يدًا نحو شيء وهمي، مدمدمًا ترتعش فرائصه: فازت منتهى! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسوله.

صعدت روحه التي لم تستقر لحظة على أرضه وهو بين أحضانها، روحه التي ظلت معلقة بين بين منذ النفس الأول، تمتد جذورها في طين وتعلو هامتها صوب سماء نورانية، أفضى بكلماته الأخيرة بين ذراعيها فاسترخى الجسد المنهك أخيرا، لكن حتى في لحظات احتضاره زاحم

وجودها شبح امرأة أخرى، منتهى التي تحفظ بديعة حكايتها عن ظهر قلب، وتعلم كم قضت مضجعه خيالات موتها المؤلم! أوشكت على الصراخ لولا أن لمحت برهانه الأخير يلوح من طيات ملابسه أسفل قميصه؛ صورتها ملتصقة وعرق جسده فوق صدره، حانت منها التفاتة فرأت على الأرض الصورتين اللتين زاحمتاها حافظته الجلدية عمرًا؛ لتنحني طابعة قبلة فوق جبينه، ترتشف عرقه، تلتها بأخرى وأخرى فوق وجنتيه، تبلل دموعه شفتيها، وحين عجزت عن المزيد من الصبر صرخت مزلزلة الشقة:

ـ أبوك.. أبوك يا محمد! تركتني يا حبيبي.. يا عزيز عيني.

هرع محمد صوبهما شاخص البصر في ذهول، وانحنى راكعًا على ركبتيه يحدق بالجسد المسجى بين ذراعي بديعة، عاجزًا عن التصديق، الموت غافله وسرقه منه دون أن يحدثه مرة أخيرة! لشهرين قبل وفاته كان رجلاً نقيًا من شوائب الحياة، تقيًا، تبلل دموعه وجنتيه تضرعًا كل ليلة، وكثيرًا ما تساءل محمد: هل كان هذا يكفي؟ هل ثمة لحظة يمكنها محو كل شيء عداها؟ كالتقاط صورة مما يبرع الحاج حلبة في التقاطها مجمدة الحال على ما هي عليه! هل عاشها والده؟ لحظة اختفت معها الذنوب والآثام ونُظف الجسد بالثلج والبرد. ماذا بشأن العمر الضائع؟ ليالي البكاء حرمانًا منه ومن أقل احتياجاتهم في غيابه؟ لكن الله رحمة؛ وسيطلبها له في كل حين، هي فقط التساؤلات الحائرة التي لا يد له فيها. انتظر لاهفًا أن يحظى بأبيه، وحين حلت اللحظة كانت غاية البخل!

جلس بعد دفنه بين كتبه المبعثرة، ثملاً بغضبه، مدفوعًا برغبة عامرة في التحطيم، لم يرتو من أبوته، وحين آن الأون عاد ليرحل للمرة الأخيرة، شعر أنه لن يقدر على مسامحته أبدًا، لكن فورما فتح عينيه صباح اليوم التالي اكتشف أنه سامحه! بل وجلس إلى جانب بديعة قرب قبره يحتضنها، يستمع إليها تشكو حزنها وشوقها وعتبها المرير عليه، تربت بحنو على تراب الأرض الذي لا يزال رطبًا، قائلة:

ـ هذه المرة تعجز عن مغادرتي؛ لذا سأبقى معك لأؤنس وحشتك

حتى تطمئن. قصت عليه بديعة لياليها الطويلة التي مرت في بعاده، أحلام وكوابيس زارتها وهي منكمشة بقلب الفراش الخالي من عبق أنفاسه، أمور تمنت تحقيقها ما أن يعود، لكن بقاءه كان يسرق كل شيء منها مكتفية به. ظلت بقربه لغروب الشمس حتى اضطر محمد لنزعها من حنايا الأرض انتزاعا، كمن ضربت جذروها برحمها وصارت جزءًا منها! واتاه الآرتياح حينها ظانًا أنها لن تعود على قارعة الانتظار وقد كَفَتْهَا الحياة أخيرا مرارته، لكنه كان أحمق! انتظارها له لم يتوقف يومًا. استلقى على فراشه في اليوم التالي وفتح محفظته مخرجًا الصور الثلاث، بكا طويلاً ثم ابتسم! وشرع يرتل سورة الأعراف بصوت بديع، يشبه صوت عبد السلام.

* * *

(٣١)

خرجت زاد من غرفتها قائلة: سأصعد لأتدرب قليلاً.

أومأ والدها مشجعًا وجعل يدمدم بأغنية لأسمهان، منهمكًا في تقطيع شرائح الليمون، فيما سبح راغب في شروده يتابعها تغادر المطبخ. استدرك محمد باهتمام: أتعلم يا راغب؟ في إحدى الليالي بعدما هاجمتها نوبة انهيار جديدة، رافضة كل محاولاتي لإقناعها باستدعاء الطبيب، جلستُ على الأرض قربها أبكي كالأطفال. لم تكن تسمح لي بلمسها ولا لأي مخلوق عدا دميتها الضخمة! تلف ذراعيها القماشيتين حولها وتلصقهما ببعضهما مكتفية بذاك الحضن الميت.

ـ عنيدة، لم أرَ في حياتي امرأة تملك رأسًا يابسًا مثلها.

ـ بل متعبة وخائفة؛ تحمي نفسها أو هكذا تظن. يومها حين اطمأننت لهدوئها بعض الشيء، أخرجت أحد كتب والدى، وقررت القيام بمحاولة لنزع ألمها؛ ممنيًا نفسي بإخراجها من الحالة البشعة التي حولتها في ليلة وضحاها لجثة تسير على قدمين. لحظة اختلال لعقلي كادت لتكلفني وتكلفها الكثير! حين تفجع في حشاك تبحث كالمجنون عن طوق نجاة

وإن ملكه الشيطان! لكنها تلك اللحظة التي شعرتْ بي إلى جانبها بعد عودتي للغرفة حاملاً الكتاب، أقلب صفحاته بهستيرية باحثًا بين سطوره عما يمكنه أن ينتشلها من الحزن؛ فنادتني قائلة بنبرات نشيجها (أنشد يا ماما، أحتاج صوتك.. أنشد حبيبي يا أنت؛ صوتك يسري بأجواء روحي المرتعشة الطمأنينة.. أنشد)، طالبتني بأحد موشحات النقشبندي؛ كانت ترتيلة حب ويقين وأمل في رحمته، جمدتني في مكاني وأخجلتني من نفسي، جعلتني أدرك أن النسيان قرار عليها اتخاذه، ربما ما كنت سأفعله سيجلب لها بعض الراحة الوهمية، لكني أردت لها العيش بترف الإرادة ورفاهية الاختيار. لم أضع ثانية بعد طلبها وصدح صوتي في فضاء الغرفة، هدهدت نفسها عليه كالأطفال ونامت!

ـ أحيانا أشعر باليأس مثلك وأتمنى لو امتلكت عصا سحرية تحولها من حال لحال، لا يجب أن نخجل من لحظات ضعفنا فهي أصدق ما فينا.

ـ تكون في أصفى حالاتها حين تمارس التمارين؛ اذهب وشاركها هذه اللحظات لتعثرا على أرضية مشتركة آمنة.. ولو لبعض الوقت.

لم يضع راغب ثانية واتجه للأعلى، يتعالى لسمعه صوت النقشبندي.

سبحان الله!

ترتيلة حب توقظ في الروح الإشراق
أصداء تتردد بين جبال الأيام
نغم تهتز له أغصان الأشواك

دلف إلى غرفة التدريب بخطوات حذرة، تجوس عيناه فوق ملامح جسدها المتمايل؛ المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هنا! تساءل: لماذا لم تساوره نفسه قبلاً لاقتحام عالمها؟ يتطلع إليها بنظرة ملؤها الافتتان!

«متى كنتَ مفتونًا في عمرك يا راغب عدا هوسك بقسمت؟!»

وقفت على أطراف أصابعها تدور غائبة عن الوجود مغمضة، تضم ذراعيها للأعلى كبرعم زهرة.

«ألقي بالتوت والفريز للطواويس والهداهد كي تتبعني.. سيكون موكبًا عظيمًا للحظة دخولي على الملك.. يناديني سندريلا.. فأشير بصولجان من بروق يلتمع كلما دق قلبي.. ثوبي الذي حاكته الجنية بخيوط قمرية الضوء يتلألأ أسفل الثريات.. وشفتاي المصبوغتان بالرمان في انتظار قبلة.. تفصلنا مئة درجة بلورية أخطوها بخفي الزجاجي.. تنتظرني عربة اليقطين بالخارج، وعقارب الساعة تشير بالإسراع»

ـ ترقصين على ابتهالات النقشبندي!

انتبهت مجيبة: صوته يهدهد روحي ويساعدني على الامتزاج بالحالة.

ـ لا يزال الأمر غريبًا بعض الشيء.

ـ على العكس، أراه أكثر الأمور طبيعية، هي ابتهالات وليست قرآنًا. لاحظتَ بالتأكيد أن الصلاة حركات جسدية، معظم العبادات المفروضة كذلك؛ طواف ـ جعلت تدور في حلقة واسعة من حوله مرة بعد مرة ـ سعي بين صفا ومروة ـ سارعت خطواتها قافزة في الهواء صوب الشرق ثم الغرب ـ حتى القدماء كانوا يتعبدون في المحاريب والمعابد بالرقص وآلات الموسيقى. كان الرقص مقدسًا.

ـ أريد مراقصتك.

توقفت بغتة، تلوح فوق شفتيها ظلال ابتسامة مرتابة: تراقصني!

ـ أجل. أنتِ محترفة ويمكنك إرشادي لبعض الخطوات البسيطة.

صمتت مفكرة لولهة ثم أشارت إليه بالاقتراب: ارفع ذراعيك هكذا وصاحب خطواتي، سأحاول الانتباه كي لا أؤذي عضلاتك.

دارت بين ذراعيه، تحتضن يداه خصرها النحيل، تواجه عينيه تارة وأخرى تسرع هاربة لبعيد: والآن، احملني.

رفعها من خصرها فبدت مشدودة بين يديه كوتر، ناعمة خفيفة كالريشة، أنزلها فتلامس جسداهما على مهل في طريقها للأسفل، حتى التقت أعينهما ليغرق في عسلهما. ازدردت ريقها حين التمعت نصال توق حاد في عينيه، يتفرس في وجهها، هامسًا: تكونين في لحظات ربيعية الوهج! غرة الفرس

البنفسجية أداة تعذيب، أما شامة التين.. فحدث ولا حرج! ـ قبل الشامة على مهل يرطبها بشفتيه ـ ما زلتِ بطعم الحياة الممتع يا ميلي لا طعمها المبهم الكئيب! ماذا فعلوا بكِ تلك الليلة؟ حدثيني ـ همت بالابتعاد فجذبها ـ لا تهربي مجددًا لقوقعتك فلستِ رخوة كما تظنين، هيا راقصيني.. لا تتوقفي.

كانت كجثة مجمدة فوق جسر يصل بين ماض لا يغيب ومستقبل لا يأتي، لم يستطع الوقوف مكتوف اليدين وشوقه إليها جمر متقد أسفل الرماد، تكفيه تنهيدة وحيدة من بين شفتيها لتحرق ناره الأخضر واليابس. للحق، عجز عن تفسير محاولته الاقتراب منها؛ أهي رغبة في تحرير مخاوفها ليخضع جسدها أم لتخضع روحها؟ كل ما أدركه وهي ماثلة أمام عينيه بنظراتها المتوجسة أنه لا يريد الابتعاد قيد أنملة.

ـ أرجوك. اعتقني من حصارك!

ـ ادفعي الحجر الجاثم فوق روحك لتلمس خيوط الضوء ماءك الراكد.. لأعرف، بحق الله يا زاد لستُ منجما! أين كنتِ تلك الليلة؟

عضت على شفتها بقسوة حتى أدمتها، ثم شرعت ترقص مبتعدة من جديد، فمنحها المساحة والوقت لتستجمع شجاعتها، حتى تفوهت أخيرا وهي تدور في حلقة واسعة من حوله: كنا مجموعة من الزملاء والأصدقاء، قررنا التظاهر رفضًا لقرار إقالة رئيسة المعهد المجحف من قبل جماعة الإخوان، لم نكن وحدنا، فئات عدة غيرنا خرجت بمطالبها، خاصة بعد الإعلان الدستوري الأخير.

دار حول نفسه ببطء، يتابع انتقالاتها: وماذا بعد؟

اقتربت منه ليرفعها مجددًا، مستعيدة روح (ملكة البجع)، تضم ذراعيها بميل منكسر، متابعة: وجوه مخيفة لاحت وسط الهرج والمرج، تتحين الفرصة لنهش قطعة لحم في غفلة من الأعين؛ حاولنا الهرب من قنبلة غاز ألقيت علينا فحاوطنا الضباع مضيقين علينا الخناق، أنا وسلمى و.. مهيب! حاولت حماية نفسي.. صدقني حاولت وكذلك حاول مهيب، لكنهم كانوا الأقوى والأسرع والأكثر وحشية، هجموا علينا مدعين حمايتنا،

محكمين غلق دائرتهم من حولنا، تصرخ مجموعة أخرى منهم محذرين الآخرين منا لأننا جواسيس وعملاء للجماعة. كنت واعية ومدركة لكل ثانية مرت في سويعات الجحيم، أمسكوا بمهيب وألقوه بعيدًا بعد طعنه في بطنه بالمدية، قاذفين إياه بأفظع سباب (طالما أنك «دكر» لمَ تركتهن يسرحن في الشوارع كالعاهرات؟)، فصلوا بعدها بيني وسلمى وحملونا كالذبيحة من أطرافنا، يسحلوننا حينًا على الأسفلت، وحينًا يرفعوننا للأعلى صارخين في الجموع بأننا نحمل قنبلة.

غمر جسدها المرتجف بين ذراعيه: أكملي.

تسارعت الكلمات بين شفتيها متهدجة النبرات: مزعوا ملابسي بآلات حادة قطعت نصالها لحم ساقي وذراعي، وسقطت في أثناء سحلي في بركة عميقة من مياه الصرف، كان الطعم غاية في البشاعة غمر فمي وأنفي فتقيأت عدة مرات حتى كدت ألفظ معدتي! لكن كانت المياه العطنة أكثر أمانًا. اخترت البقاء في الأسفل منبطحة على بطني، ليحملوني صوب شارع جانبي! سمعتهم يتشاورون وسط الضجيج؛ أفضل مكان آمن هو مخزن الإطارات القريب، وحين أوشكوا على الخروج بي من الشارع لمحتهم من بعيد سيدة شكت في أمرهم، فطالبتهم برؤية القنبلة التي يدعون أني أحملها، وحين لم تجد استجابة منهم صرخت منادية على أهل شارعها؛ وسارعت لأخذ ملاءة من فوق إحدى حبال الملابس الخفيضة لتستر عري جسدى الممزق، أنقذتني قبل دقائق من الإجهاز عليّ. للآن كلما رأيت مشهدًا للميدان تتشبث يداي ببنطالي كالكلابات ـ ابتعدت قليلاً تطالعه مغرورقة العينين ـ أحرقت ملابس الليلة اللعينة لكن ذكرياتها تأبى الاحتراق، تتشبث بي باستماتة، وأنا مللت.. وتعبت.

انحنى يقبل دموعها المنسابة على وجنتيها، محكمًا ذراعيه حولها، فتشبثت به كالأطفال. كان قلبه ينتفض بين ضلوعه مراقصًا ارتجافات جسدها، يشعر برغبة عارمة في الصراخ؛ كيف يقترفون بحق مخلوقة مثلها بشاعة كتلك؟ وهل تملك المسكينة جسدًا يحتمل النهش والافتراس؟

يخشى لمسها في أحيان كثيرة لئلا تخدشها أنامله الضخمة! تلك التي لم يرَ يومًا من تملك رقتها ونفسها الشفيفة. تساءل في نفسه عمن يكون قد فعلها؛ أتباع السلطة القديمة لتشويه صورة السلطة الجديدة؟ أم السلطة الجديدة لإفزاع كل من تسول له نفسه بالاعتراض؟ يا لهول الفكرة المرعبة! أيكون والده أحد المشاركين في تلك الحوادث من محبسه؟ ربما أراد ومن معه الإسراع في تشويه منافسيه لينتهي الكابوس! يدرك جيدًا أنه لن يصل للحقيقة أبدًا، ولن يظل جاهلاً وحده، على الجميع أن يسبح في غياهب المجهول والبلبلة؛ لتكون قيادة القطيع أكثر يسرًا وأقل إزعاجًا.

ـ كفى يا زاد! لا داعي لذكر المزيد واهدئي. أنتِ الآن معي ولا شيء يمكنه أن يطالك بسوء، أعدك بهذا ما حييت.

جذبها نحو الأسفل ليهبطا معًا على الأرض، وأبعدها قليلاً يتفرس في أنفها الأحمر وعينيها اللتين أصبحتا أكثر صفاء بعدما غسلتهما الدموع، وشفتيها اللتين تحولتا لحبة فراولة ناضجة؛ غلبته رغبة قوية جعلته يعاود الاقتراب ملتقمًا شفتيها المدفأتين بحرارة البكاء، تلفح وجنتيها أنفاسه الحارة، ويعزف حفيف لحيته على أسماعها خربشات خافتة، ينتقل بتمهل لعنقها فكتفيها اللتين أزاح عنهما حمالتيها المزعجتين، مستمتعًا برحيق الخزامى المخلوط بعرقها، فيما أصبحت لمساته أكثر جرأة فوق جسدها، حين رن هاتفه بغتة بصوت فيروز! لتنزع نفسها من بين ذراعيه كمهرة حرون مقطوعة الأنفاس، وتسرع هاربة.

* * *

(٣٢)

أوقف راغب سيارته أمام السمسمية بقلب واجف، شاعرًا بالسخافة؛ الضربات المتصاعدة داخل صدره كمراهق يقدم على مغامرة عاطفية لا تليق به! حضر باكرًا عن موعده معها في مكان لا يجد نفسه غريبًا بين جدرانه؛ سيتمكن من الحصول على فنجان قهوة محوجة تعيد إليه هدوء أعصابه الموشكة على الانفلات؛ أمر تعجز عن القيام به القهوة الأمريكية (السايطة) كما يطلق عليها رؤوف، يقول إنها إهانة في حق حبوب البن. هربت زاد بعد لحظة ضعف أوشك فيها على دك واحد من أهم أسوارها الحصينة؛ لتظهر قسمت! اتصلت لتخبره بوجودها، برنامجها الجديد يبث هنا من قلب لندن. حسم أمره ودلف إلى السمسمية متخذًا طاولة هادئة في ركن واجهة المطعم الجانبية، وقد بدأت السماء تمطر بالخارج وأصبحت الأجواء شبه باردة، لا صيف حقيقيًا هذه السنة، كلما تراقصت الشمس قليلاً هاجمتها السحب سالبة منها الأنفاس، لم يشعر بالبرد هكذا قبلاً.. كان يرتعش.

«ترى من يكون مهيب بالنسبة إليك يا زاد؟»

وضع رؤوف أمامه فنجان القهوة المحوجة، باسمًا: الجو ثلجي الليلة.

أومأ راغب في شرود: أجل.

أدرك رؤوف أن راغب ليس في حالة مناسبة لتجاذب الحديث رغم احتياجه الجلي لكتف صديق، لكنه يعلم جيدًا متى يقترب من الغير ومتى عليه الابتعاد. المدهش في الأمر أنه كان مثله يحتاج لمن يرثى حاله إليه ويشاركه مواجعه؛ وفاء صامتة منذ أسبوعين، حاول الذهاب خلفها لمحادثتها ظانًا أن كل شيء على ما يرام بالترحاب الذي أظهرته أمام ابنه، وأنها مستعدة لتخطي الصدمة ولو بعد حين، لكنه وجدها في غرفتهما جالسة أمام الخزانة، تمسك بملابس السباحة العتيقة التي ارتدتها خلال هروبهما للشواطئ الإيطالية بعد قفزهما من القارب، وحين رأته رفعت رأسها وابتسمت ابتسامة غريبة لم يرَ شبيهًا لها فوق شفتيها يومًا، وكأنها تصرخ ملتاعة بلا كلمات! المرة الأولى التي يعرف فيها معنى الابتسامة الجلادة. ومنذئذ وهي ملتزمة الصمت، تأكل وتشرب وتنام وتعمل دون ذرف دمعة، أصبحت خطواتها أكثر تثاقلاً، وكأن عطب ركبتها عاد فتيًا! ضبطها كثيرًا تحدق لإصبعي يديها المفقودين واجمة، وكلما مرت بلوحة النوارس الجدارية توقفت محدقة بها بذات الابتسامة. أربعة عشر يومًا غارقين في صمت لا يجرؤ على كسره ولا تسمح بإنهائه. لم تهجر فراشهما، تنام كل ليلة إلى جانبه لكن في أقصى طرف الفراش، منكمشة على نفسها كالقنفذ إن لمس أحد أطرافه جسدها دون قصد. كل سنوات العمر الطويل بينهما لم تهيئه للحظة كتلك، وكأنها تمثال من رماد يخشى لمسه فينهار متفتتًا أمام عينيه، ولكم تفزعه خيالات انهيارها! فوفاء لا تنهار، لم يحدث هذا يومًا. هي دومًا الجدار الصلب الذي يتكئ عليه ويحميه من كل شيء حتى من نفسه. ربما كان أنانيًا، لكنها من أكد استعدادها مقارعته الحلم بالحلم والشغف بالشغف مهما بدت تطلعاته عسيرة. وافقت ببساطة حين جمع كل ما اقتصداه من نقود في أثناء إقامتهما في إيطاليا وقرر الاتفاق مع مُهرب

ليساعدهما على التسلل إلى لندن، مؤكدة أنها معه للنهاية. يعترف أنها قتلته يومها من جديد بتأنيب ضمير أخفاه ببراعة؛ لكنه لم يكن يملك الوقت للنظر إلى الوراء أو التقهقر؛ على الحلم أن يكتمل مهما كلف الأمر! وقد كلفهم الأمر الكثير، رحلة استغرقتهم ثلاثة أسابيع، انتقلا خلالها بالقطار من ميلانو إلى فرنسا، يركضان بين عرباته هربًا ممن يتحققون من الأوراق، حتى اضطرا في أحيان للاختباء بين فواصل العربات عند نقاط التفتيش. استقلا بعدها شاحنة عبر الغابات كي توصلهما إلى النقطة التالية في خطة التسلل؛ ميناء كاليه بشمال فرنسا.

كاد ليلتها هدير المحرك الضخم يفقده الصواب! وكل ما يملكانه دثار ثقيل يتلحفان به كالكفن، شبه ملتصقين، تفصلهما كوة حديدية لتعليق الإطار البديل للمقطورة، متموضعين داخل صندوقها. ينكمش على نفسه ويقترب منها؛ محاولة عبثية لاتقاء وجع برد ينخر عظامهما كالمناشير في درجة حرارة تصل لخمس تحت الصفر، يتنفس ببطء حريصًا على ألا يستهلك الأكسجين سريعًا في تلك العلبة الصفيحية الضيقة التي تسعهما بالكاد. يفصلهما كيلومتر عن بوابة منتصف طريق تساقط خلاله العديد من رفقاء رحلة التسلل، كالناموس فوق سطح الصاعق، متحولين لقطع من الجليد المتجمد بانتظار الصليب الأحمر. لم يسعهم سوى الانصياع لإرشادات خبير التهريب بالموافقة على تلك الليلة بالذات؛ ليالي الميلاد دومًا ثلجية الأجواء، يفضل خلالها حراس الغابات البقاء في مكاتبهم أمام المدافئ، محتفلين بشرب مخفوق البيض والكاكاو وتناول البسكويت. عبرت بهم الشاحنة حاملة ما تبقى من السرب المهاجر؛ من امتلكوا غريزة بقاء قوية وجسد قادر على الاستمرار وإن فقد جزءًا منه! برودة كافرة قادرة على قتل الدورة الدموية في ثوان حتى أسفل الملابس الثقيلة، وقد فقد الكثيرون عددًا من أصابعهم، رآها بعينيه تتساقط كالثمار العفنة من أطرافهم دون أن يشعروا بها كما حدث لوفاء! فيكتمون صراخهم الفزع بأيديهم لئلا تشعر بهم السلطات.

يومان على نفس الحال، ركض متواصل يقطع الأنفاس بين أشجار الغابة الثلجية، وبعدها معلقين كجثتين محنطتين يبست أطرافهما وأقل حركة خاطئة تعني الموت، يعلوهما محرك لا يكل العمل، وبالأسفل منهما طريق ممتد يكسوه الحصى وفروع الأشجار، تصرخ العجلات بضجيجها ويطبق الظلام من حولهما كالجب، إلا من بعض أضواء تزورهما في عجالة كل حين، وهم في فجوة منه غرقى الوحدة واللاوجود. لاعنًا نفسه في كل ثانية! ربما مع الوقت يختفى صرير الأسنان المزعج ويعتادا الأمر، حتى يؤلم الهدوء آذانهم عند توقف الشاحنة للتفتيش. يتساءل إن كان ما يعايشانه مشهد جديد ببروفة الموت؟ حياة برزخ مبكرة ستوصلهما للنعيم أو تلقي بهما إلى التهلكة، فيلقيا حتفهما حاملين بجعبتهما أمنيات لم تتحقق بسبب أنانيته؟ أصر على إبقاء ذراعيهما حرين كوسيلة للاطمئنان على بعضهما، فلا الحنجرة قادرة على تخطي حواجز الصرير ولا القلب قادر على النطق رهبة؛ اشتدت أصابعه للمرة الألف حول الكف الواهنة، يستمد منها القدرة على المواصلة، لتضغط الأخرى بدورها حول أصابعه في إشارة متفق عليها. يلعن عقله؛ لم لا يهدأ ويتجمد كأطرافه؟ لم لا يتوقف عن دفع التساؤلات: لأين المضي؟ ليته قنع بحالهما في إيطاليا! ماذا إن كان المصير هو الموت؟ من سينتظرهما على الجانب الآخر؟ يقال إن الموت ميلاد، عودة من سفر طويل لمن ينتظرونه بوجوه راضية مشتاقة، لكن أين هم؟ هل سيضطر للبحث عنهم بنفسه هائمًا على وجهه؟ أنى لهم القدرة على الطواف في بلاد غريبة وكل أحبته لا يزالون على قيد الحياة؟ إذن، سيكونان وحيدين في موتهما، لا! سيستقبلان بعضهما البعض، فلطالما كان هذا كافيًا. تمنى لو ربطوهما معًا لكانت الآن بين ذراعيه يحميها الفزع، يضم أصابعه حول الكف المثلجة حريصًا ألا يؤلم جرح إصبعيها المفقودين. ينتظر الاستجابة؛ ولا شيء! عاود الضغط قدر استطاعته، بالكاد يشعر بأطرافه، لتظل كفها ساكنة! صرخ باسمها جزعًا وسط هدير المحرك الذي تعالى بغتة؛ حين انقلبت بهم الشاحنة مرتجة

كالزلزال، ليفيقا على وجودهما في مشفى حكومي بفرنسا، وقد فقدت وفاء رحمها بسبب تهتك شديد في جداره، ورغم حالتها النفسية السيئة صمدت حتى صارت قادرة على الحركة، فتحينا فرصة مواتية وغادرا المشفى خلسة. ظلا متخفيين لأسبوعين حتى استعادت وفاء قدرتها على المواصلة، فاتجها بسيارة إلى ميناء كاليه، واستقلا شاحنة تحمل خزانًا مليئًا بالشوكولاتة السائلة، غطسا فيها حتى وسطيهما لساعتين، عبرت خلالها بهما فوق عبارة إلى الأراضي البريطانية. كانت ساعات عصيبة مريرة شاركته وفاء عذابها بكل شجاعة وصبر.

وخلال فترة وجيزة اكتشفا مدى صعوبة الأمر، كان جحيم إيطاليا جنة بالنسبة للندن، فلم يجد مفرا من حل بديل اقترحه عليه أحد من التقى بهم هناك؛ الزواج بإنجليزية للحصول على الجنسية، كان عليه أولا الحصول على تأشيرة زيارة لإنجلترا من القاهرة كي يدخل لندن بشكل رسمي ويتمم الزواج؛ فترك وفاء وحدها وسافر متعللاً بمرض يسر، بعدما حجز تذكرة على إحدى الرحلات المتجهة للقاهرة بجواز سفره، وتقدم فور وصوله بطلب تأشيرة زيارة للندن في السفارة البريطانية، موضحًا امتلاكه لورقة الإقامة في إيطاليا التي عززت موقفه، مدعيا أنه يرغب فحسب في رؤية صديقته الإنجليزية لأنه يشتاق إليها، مانحًا من يوجهون له الأسئلة العاصرة الأوراق التي تثبت حسن نواياه. عاد بعدها للندن بتأشيرة الزيارة متممًا الزواج بكارولين، مدعيا أن أحدهم يملك صلات جيدة ساعده أخيرا في الحصول على الجنسية! ليسقط نصل جريمته بلا رحمة فوق وريد وفاء التي صدقته بكل طيبتها وثقتها في إخلاصه.

كان جل ذنبها العشق؛ تلك الحالة الفريدة التي تستحوذ على كيان البشر فتحولهم لمنازل تسكنها أطياف الأحبة، وتصبح مصدرًا للسعادة والشقاء في آن واحد. أصدق مثال على هذا والده! لا ينسى كم كانت وفاء حنونًا مع والديه حين قدما في زيارة إليهما، مغدقة عليهما الحب والرعاية؛ حتى إن والده المتجهم على الدوام ضحك عدة مرات بين

يديها! ربما لم يمنحه ابتسامة ولا عناقًا أبويًا، لكن في نهاية الزيارة الوحيدة التي ضمه الموت بعدها، ربت على كتفه لمرتين.. فقط مرتين، تمنى رؤوف لو كانت ثلاث! أشاح وجهه في صمت وغاب، غاب رجلاً حزينًا محرومًا من الراحة لسبب وحيد؛ لم تحبه امرأته!

انتزعه راغب من أفكاره حين فرغ فنجانه مطالبًا بالمزيد، يصاحب وحدته دخان سيجاره المتوهج لعمق أنفاسه، يطالع عبر الزجاج اثنين يتبادلان القبل فوق مقعد محطة الحافلة، يتلحفان ببعضهما البعض في سكينة. رغم صعوبة الحياة في هذه البلاد ومدى اختلاف ثقافتها عن ثقافة الشرق، فإن إعلان الحب وعدم الخجل من احتياجاتهم الإنسانية أيًا كان الزمان والمكان يبقى له سحره الخاص. دوي رنين الأجراس المعلقة بباب المطعم فتجمد بجلسته، السمسمية مكان مفتوح على مصراعيه للقادمين، لكنه أيقن أنها قسمت دون الحاجة للالتفات. رفع السيجار صوب شفتيه وأخذ نفسًا عميقًا؛ ورغم أنه ليس هاويًا في شرب السيجار، ويعلم جيدًا أن دخانه أكثر شدة من السجائر العادية، ومعركته حين يتسلل إلى الصدر دومًا حامية الوطيس، فإنه تسلل بالفعل في غفلة توتره لرئتيه، لتدمع عيناه وتثقل أنفاسه، فتحامل على نفسه ونهض، حين هبت ريح باردة من الخارج حملت عطرًا قويًا؛ قسمت لم تكن يومًا ممن يرتدون النعومة!

ـ راغب!

لعل الأجواء ألزمت الكثيرين في منازلهم؛ لكن منذ وطئت قدماها لندن وهو يحتل تفكيرها، تقفز صورته أمام عينيها في كل شيء. كان من الصعب وجودهما بمكان واحد دون أن تلتقيه. التفت واضعًا السيجار فوق المنفضة يكمل احتراقه البطيء، وخطا خطوتين تجاهها ثم توقف في منتصف الطريق حائرًا؛ هل يمد يده في مصافحة رسمية؟ هل يقبل ظاهر يدها أم يحتضنها مقبلاً وجنتيها كما يفعل مع صديقاته؟ ماذا يفعل في استقبال حبيبة تطل من خلف ضباب الذكرى؟! أعفته الحيرة حين مدت يدها لمصافحته، تتعلق عيناها بعينيه، كانت يدها دافئة بعكس ثلوجة

أصابعه. تحولا لتمثالين من الرخام للحظات، حتى عاودت حسم الموقف باقترابها معلنة عن حاجتها لأن يغمرها بين ذراعيه.

ـ اشتقتك كثيرا يا راغب.

ـ ليس بقدر اشتياقي إليكِ يا أسو.. يا قسمت ـ ابتعدت عن ذراعيه فقادها لطاولته ـ سامحيني، لم أعتد التعامل معكِ بتحفظ.

ـ من المريح بقاء بعض الأشياء كما اعتدناها، يفقدها التغيير بريقها.

خلعت معطفها ليظهر أسفله ثوب من الصوف الأحمر يحتضن منحنياتها بنعومة، شابه بلونه صبغة شفتيها المكتنزتين، قصير لما فوق ركبتيها، ما أتاح لرشاقة ساقيها الإعلان عن نفسها، ليستعيد ذكرى ليلة منحها فيها ثوبًا مشابهًا كان علامة فارقة في علاقتهما. تفرسها بتمهل، يعض على شفته السفلى في حركة معتادة أرسلت الابتسامة إلى شفتيها، لتلوح غمازتاها بقوة.

ـ مهما تغيرتِ، لن تفقدي أيًا من وهجك.

قالت مبتسمة: من يصدق أننا نلتقي بعد كل هذا هنا؟ جميلة لندن.

أومأ مختلسًا نظرة نحو العاشقين اللذين لم يملا تبادل القبل: أرى دومًا حزنها الضبابي كامرأة عابثة تخفي جموحها أسفل رماديتها.. كيف حالك؟

ـ بخير.. على ما أظن.. لا أدري! ما أوقنه أني كنت بحاجة ماسة لرؤيتك.

ـ وكيف حال الطبيب؟

ـ تعيس! لديّ قدرة مذهلة على إتعاسه وإتعاس نفسي. برنامجي يبث هنا من لندن؛ وجدتها فرصة جيدة لالتقاط أنفاسي ومعاودة التفكير للمرة الألف في خطوتي القادمة معه، الكثير من الأشياء تغيرت بين ليلة وضحاها، وحين أقول ليلة وضحاها أعني هذا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. كنا نخلق أحلام لمستقبل قادم هذه المرة لا محالة، نسبح فوق غيمة سكر وردية ذابت مع الصباح، ملصقة كلينا بواقع مزعج.

ـ أتتحدثين عن الثورة وتبعاتها أم عن علاقتكما؟!

ـ لا فارق. الخذلان بطل الحكايتين الأوحد، لم يثق بي عدنان كفاية ليمنحني حق اتخاذ قراراتي المصيرية، ولم أقو على المسامحة رغم يقيني بحبه الذي كان دافعه لاقتراف الحماقات. أما ثورتنا.. فقد خذلتنا كما خذلناها ـ استدركت بحيرة ـ كيف نعبر فوق حقائق وأقدار غاية في الإيلام؟ لنعثر على سعادة بلا شائبة الذنب.

ـ سؤال صعب تلقينه على أضعف المخلوقات في هذه اللحظة، أولا: أعاني ذات الحيرة، وثانيًا: أنتِ من يلقي السؤال. علمتِ أنكِ ستسمعين مني ما لا يحق لي قوله؛ وأتيتِ رغم كل شيء متشدقة بـــ لا يهم! لعل هذه هي الإجابة، نعرف ما لا يجب أن نفعله ونفعله هكذا ببساطة، فقط ليمنحنا بعضًا من السعادة أو ربما الراحة. ستظلين في قلبي على الدوام دفقة طهر لم أغتسل بها، وأمنية لم أكن شجاعًا كفاية لتحقيقها، سامحيني على لحظات الجُبْن المشينة.

ـ سامحتك وعجزتُ عن مسامحتي! كبريائي تلاحقني كقطيع من الغيلان.

ـ أكنا لنصبح سعيدين لو وافقتِ يومها على عرض الزواج العرفي؟

ـ الإجابة لا تهم، ستبقى (لو) معلقة في الهواء بيننا، وربما هذا مكمن جمالها.

ـ إذن بإمكاني أن أطمع في ركن بقلبك إلى الأبد.

ـ تمامًا كما أوقن بوجود ركني الخاص في قلبك مهما مر الزمن؛ لطعم حكايتنا عذوبة رغم وجع محالها، ولن أعدها يومًا خيانة لمن أحب؛ أجل أحبه.. لكنه غبائي ما يضيعه في كل مرة.

أعاد رأسه إلى الوراء مقهقهًا: آه يا أسوم! من النادر الاستماع إلى امرأة تعترف بغبائها علانية، لغرابتك أثر في الذاكرة لا يمحى.

ـ ملعونة غرابتي! أظنني بحاجة لتمشية أسفل المطر.. أترافقني؟

غادرا المطعم صوب نهر التايمز، وترجلا من سيارته يسيران فوق

الجسر، متأبطة ذراعه، يتساقط من حولهما رذاذ مطر دون أن يعبأ كلاهما باحتمالية رطوبة ملابسه.

ـ لماذا تبدو شارد الذهن؟

ألقت عليه السؤال ببساطة، غير مدركة مدى صعوبة الإجابة؛ من المفترض أن تكون هذه اللحظات القليلة مكرسة لقسمت فقط، لا يزاحمها فيها مخلوق، لولا أن وجه زاد يطل بين جملة وأخرى! تتسرب لأفكاره شيئًا فشيئًا رغمًا عنه. وهل يملك الرجل من قلبين في جوفه؟ مستحيل. لكن كيف يحمل لكلا المرأتين عاطفة؟ ربما بدأت عاطفته المتقدة إزاء قسمت تخبو فتشتعل أخرى إزاء زاد؟ أجل! لتموت عاطفة على أخرى أن تحيا، وربما لا تموت، هي فقط تتخذ مكانة مختلفة، حنين ربما، توق يشتعل حينًا وسرعان ما ينطفئ معاودًا الاشتعال في لحظات تملك من الوقود ما يكفي. خاصة أنه من الصعب العثور على امرأة كقسمت مرتين في عمر واحد، يجود بها الزمان كوسيلة لتعذيب المغرورين أمثاله، من هم من الحماقة بأن يظنوا أن امتلاك قلبها أمر يسير، ورغم أنه فعل فإن الكلمة الأخيرة كانت على الدوام للأقدار.

ـ أنتِ أيضًا شاردة. أتعلمين أني تزوجت؟

بدت على ملامحها أمارات الذهول: تزوجت! راغب الساعي قبل بقيود الزواج؟ أصبح رجلاً داجنًا يعود لمنزله في المساء؟

ضحك قائلاً: في الحقيقة الصورة ليست بهذه البشاعة، موعود أنا بغريبات الأطوار، زوجتي ليست شخصًا عاديًا، تملك من الصفات والطبائع ما يجعل حياة زوجية تقليدية معها أمر مستحيل.

ـ تحبها؟

ـ لا أدري! ربما لو اندرجت تحت بند الحب نزعة الحماية والحاجة لتأمينها.

ـ ما زالت صراحتك ألذ صفاتك يا راغب.

ـ وما زالت ذكرى قبلتيكِ تشعل حنيني يا أسوم، مع الأسف، وقاحتي أيضا لا تزال صفة متجذرة بي، ولأكن أكثر صراحة تمنيتُ لو رأيت ظلال بعض الغيرة في عينيك.

ـ بالفعل أشعر ببعضها. أغامر بصراحتي أنا أيضًا؛ كل أنثى على وجه البسيطة تتمنى الاحتفاظ بمكانتها في قلب من أحبت للأبد وإن فرقتهما الأيام. مستحيل أن تنسى الفتاة ذكرى قبلتها الأولى. لا تزال أيضا وقاحتك من ألذ صفاتك يا عزيزي! ستبقى ذكرياتنا تمر على الخاطر فتبهجه وتنعشه للحظات مسروقة من الزمن. وعلى ذكر الذكريات؛ أتظن أن الثورة ستصبح ذكرى هي الأخرى؟ هل أنا المتشائمة الوحيدة أم أنها الحقيقة التي يرفض الجميع تقبلها؟

ـ كل الشواهد تشير لأنها زوبعة في فنجان، ولا أظن أن الخطوة التالية في صالح ثورتكم، تبدو الدائرة مغلقة كعادتها.

ـ أمر منطقي أن يكون هذا رأيك؛ كانت الثورة وبالاً عليكم، لكن لن نيأس، نواميس الكون تؤكد أن التغيير أمر حتمي وإن تأخر. كنت لتصبح ثائرًا رائعًا! تملك من المقومات الكثير، لولا أن النبتة تتكيف على بيئتها وإن امتلكت نفسًا لوامة!

تعالى رنين هاتفه بغتة، دياب يبلغه أن مها في حالة يرثى لها لعودة والدهما. أزعج راغب كثيرًا أن والده لم يتكبد العناء ليخبره بوصوله الليلة، لم يخبره حتى بالإفراج عنه! لكنها عادة محمود الساعي، يفضل المفاجآت والعمل في صمت، وإن تعلق الأمر بأبنائه من دمه!

ـ سيتعين على الذهاب يا أسوم.

ـ سأكمل وحدي المسير؛ أحتاج لبعض الوحدة.

طبع قبلة فوق وجنتها، وودعته بابتسامة برقت بغمازتيها، مع وعد بلقاء لم يتحدد موعده، مستعيدة ذاك الشعور المشابه لما بعد الهبوط من قطار الموت في مدينة الملاهي؛ قطار نوقن أنه سيصيبنا بالدوار، وربما نفقد معه المنطق والثبات، ورغم هذا نستقله هاتفين بلا اكتراث: لا يهم!

* * *

(٣٣)

دلف راغب إلى البار محني الظهر متهدل الكتفين كأسد عجوز، تشرف أيامه الأخيرة على الغروب، وقد قرر النأي بنفسه بعض الوقت صوب وجهة لا يعرفه فيها مخلوق. كم من المرهق تمضية عمره مجاهدًا لحماية الأحبة، فينهدم كل شيء فوق رؤوسهم في نهاية المطاف، وكأن سعيه الدؤوب كان قبض الريح! ألقى بنفسه على مقعد عال أمام المشرب، مشيرًا للنادل الذي أسرع إليه بكأس DOUBLE من الكونياك، ارتشف منها رشفة صغيرة، ممسدًا جبهته. يستعيد ارتعاشة شقيقته قبل ساعة بين يديه، تهاجمه اللحظة الأخيرة لانهيار والده الذي تركه في غرفة العناية المركزة، وقد تعرض لأزمة قلبية سيحتاج معها للبقاء تحت الملاحظة عدة أيام.

حين وصل إلى شقة مها استقبله دياب ببسمة لاح فيها التشفي، مشيرًا صوب والده الجالس على أريكة الصالون، واضعًا رأسه بين يديه في صمت بائس. نهض الأخير فور رؤيته محتضنًا إياه؛ فعاتبه لإخفاء مجيئه عنه. ظن والده أنه بهذا يصنع مفاجأة سارة للجميع! غير أن مها في غرفتها ترفض الخروج؛ بعدما صرخت رافضة مقابلته، معلنة من خلف الباب

أنها لا تريد رؤيته. اتهمها محمود بالقسوة، مبررًا أنه لم يفعل ما فعل إلا لأجلهما، وأن أي شخص كان سيحصل على مقعد سلطة مثله سيسير على نفس الخطى بدقة.

تألم راغب كثيرًا لرؤية شهور السجن تلوح على تجاعيد والده رغم التماسك الذي يدعيه؛ وشم القضبان كان جليًا فوق روحه وملامحه؛ ذاك المكان لعين لا يفلت من قبضته مخلوق مهما كان جبروته، الصمت الذي ينبع من داخلك هناك، ووحدة تستوحش بين أحضانها المعتصرة رغم صخب الرفقة. لا حق لك في تنفس هواء الحياة بالخارج، وهواء الداخل خانق يطبق على الأنفاس. طغى ضعف محمود المخبأ خلف ادِّعاء القوة فورما لفظته مها، كان في توق لذراعيها؛ وهي الأنثى الأخيرة التي يملكها في حياته، كان من المفترض بها امتلاك حنان يحتاجه فحرمته منه! كان راغب مثله يومًا لولا ظهور زاد ومحمد في حياته، لكنه حاول طمأنته، مراهنًا أن الأمر لا يتعدى كونه إحدى نوبات توترها القديمة، وربما تكون المفاجأة أكبر مما تحتمل أعصابها؛ فانهار محمود على الأريكة مطأطئ الرأس ما زاد غيظ راغب؛ لم يكن يرغب في أن يرى دياب لحظة الهوان تلك؛ فطرق باب غرفتها برفق، قائلا: مها يا حبيبتي تعلمين كم يشتاق أبي لرؤيتك! يكفي ما فعلته بنا الحياة، نحتاج بعضنا البعض.

انفتح الباب بغتة وظهرت منتفخة العينين، تغرق الدموع وجنتيها، وارتمت بين ذراعيه هاتفة: أتيت أخيرا، لا تتركني وحدي معه.

ـ ما الذي فعلته يا ابنتي سوى محبتكم بلا حدود؟

ـ لا أطيق رؤيته، لا أستطيع.

أمسكت بياقة شقيقها ودفنت وجهها في صدره بصحبة نشيجها؛ تنتفض بهستيرية، فيما اتسعت عيناه ذعرًا، وقد بات والده في حالة يرثى لها، يطالعهما شاخص البصر في ذهول. احتقن وجهه لمتابعة دياب ما يجري كعرض مسل! ود لو يطرده لكنه منزله، وكأنما استمعت لأفكاره رفعت رأسها بغتة قائلة: دياب، اذهب من فضلك.

نبرتها التي تبدلت من الانكسار للتصميم أصابته بالخرس، وقد لاح وميض خطر في عينيها الدامعتين لم يره دياب سوى مرات قليلة؛ فغادر مطلقًا نظرات سخطه نحوهم.

تساءل راغب: ما سبب كل هذا يا حبيبتي؟

أخرجت من جيب ردائها المنزلي دفترًا أسود: هذا هو السبب؛ مذكرات ماما، عثرت عليها صباح وفاتها أسفل وسادتها، ماتت أمنا حسرة! قتلها محمود الساعي، زوجها الذي أمضت عمرها متمرغة في محبته والوفاء له. لا تنظر لي هكذا وكأن بي مسًا من جنون! لم أتناول أي من الأقراص المهدئة منذ يومين، كنت أعود إليها من آن لآخر لكن ليس اليوم، وبالأخص ليس الآن، كل تفصيلة من بدايات العذاب مذكورة هنا باليوم والساعة، من أول مرة أدركت فيها ماما أنها تزوجت بخائن لم يكتف بها، ململمة أجنحتها على جراحها النازفة، عششت كما فعلت مثيلاتها حفاظًا على بيتها وأبنائها، تحملت العلقم وتجرعت المرار. لا تندهش، هذا المدعي للملائكية هو أبعد ما يكون عنها! اقرأ لتعرف. علمت الصفحات بشرائط سوداء.

تصفح راغب المذكرات متجهم الملامح، لم تكن تملك والدته سواها لكي تبثها شكواها! كانا صغيرين على حمل الهموم فآثرت ألا تفسد في أعينهم صورة البطل المغوار لوالدهم. تلوم نفسها على أنها قصرت عالمها عليهم، مستسلمة لمحاولات والده قطع علاقاتها بأعمامها وأخوالها، لأنه لم يغفر لهم يومًا رفضهم زواجه بها. ذاكرة أنها خصلة لعينة فيه كُتِبَ عليها بها العذاب للأبد.

غمغم راغب: مها، لا داعي لهذا أرجوك.

اختطفت منه المذكرات هاتفة بحقد: لا! عليه أن يعرف كل شيء، اسمع يا أبي.. أنصت جيدًا لصوت خذلانها فيك ـ جعلت تقرأ بصوت مرير ـ (بكى محمود بين ذراعيّ كالأطفال، أخبرني أن فتاة استطاعت خداعه وقامت بتصويره في أثناء ممارسته علاقة معها عبر كاميرا الهاتف.

كانت صدمة عمري! كيف استطاعت هزيمة خبرة شيبته لتحوله إلى أبله؟ هددتْه بنشر الفيديو على مواقع التواصل الاجتماعي إن لم يدفع! سقط بين يديّ إثر أزمة قلبية؛ كسرت الفتاة كبرياءه ما اضطره لتعرية نفسه أمامي، لم أملك رفاهية الحزن أو أُمنَح الفرصة للغضب؛ فعليّ البقاء صامدة لأجلكما، أنا الجريحة، كان عليّ مداواة الجارح).

نهض والدها يتوسلها: كفى يا مها.. كفى!

ـ لا. عليك أن تتلقى عقابك في صمت يشابه صمتها الذي مارسته عمرًا.

صرخ راغب: كفى بحق الله، كفى.

لوحت بالدفتر في هيستريا: السطور الأخيرة مزيلة بتاريخ ليلة وفاتها، نِمتُ في فراشها مرارًا ولم أتعثر بالدفتر؛ سبقها الموت قبل أن تخفيه!

انهار والدها على الأريكة منتحبًا، ينتفض جسده ويغرق العرق وجهه: أقسم إني لم أحب سواها وإن كنت حقيرًا ووغدًا، كنت أتمرد عليها لأنها نقطة ضعفي، أرى في وجهها على الدوام ذكرى فقري وضآلتي، كرهت في عينيها صورتي القديمة رغم عشقي لها، كثيرًا ما نهرب من ضعفنا بأقسى الطرق، شيء لن تفهميه لأنكِ لم تعاني مرارة الحرمان.

ركعت على ركبتيها أمامه باسمة بسخرية: لن تنجح في إقناعي بأنك الضحية، من يعشق لا يجرؤ على الأذى. أمي عشقت تراب قدميك فتحملت الأهوال. أنت مجرد شخص أناني، بشاعتك حولتني لمدمنة مهدئات، ولولا فرصة السفر لقتلت اثنتينا.

ـ كفى يا ابنتي أتوسل إليكِ، شعور المهانة والذل يذبحني.

ناداها راغب من بين أسنانه محذرًا بصوت متهدج: مها!

انتظرت طويلاً لتراه مهزومًا مكسورًا مثلما فعل بها، لذا تابعت ممسكة بذقنه تجبره على النظر إليها: أنت قاتل يا محمود، قاتل ومع سبق الإصرار والترصد، قتلت أمي ولن أسامحك ما حييت ـ نهضت ملقية بالدفتر في

حجره ـ الكثير من الحكايا المسلية هنا.. استمتع.

اتجهت لحجرتها حين هتف محمود: راغب.. أنا أختنق، خذني لأقرب مشفى يا بني.

هرع إليه جزعًا فيما التفتت نحوه لوهلة، تعتصر أناملها مقبض باب غرفتها، ثم دلفت مغلقة الباب خلفها في صمت!

لم يأتِ راغب إلى هنا منذ مدة طويلة، كان بار Ronnie مكانه المفضل على الدوام في الأمسيات الصافية، حتى بعد خروجه من السجن لم يفكر في المجيء ولو لمرة؛ أغرقته الأحداث في خضمها فنسي الكثير مما اعتاده. كان يحاول طوال عمره إعفاء شقيقته ووالدته لحظة كتلك؛ وظن أنه نجح بجدارة في طمس الحقائق المرة عنهما، ليكتشف تجرعهما لعلقمها قطرة قطرة، وأنه مجرد غافل أحمق! اضطر في عمره اليافع لأن يكون ستارًا يوارى نقائص والده ودرعًا تحميهما. تساءل كيف استطاعت أمه تصنع السعادة كل هذا العمر؟ يندهش لقدرة النساء على الانحناء أمام الريح! ولا يراه ضعفًا بقدر ما هو نوع من الجبروت؛ فلا توجد امرأة ضعيفة قادرة على احتمال ما احتملته أمه.

حوله والده رغمًا عنه إلى شخص راكض على الدوام، هارب من السكينة كمن تطارده الشياطين! والتوقف معناه احتمالية السقوط في فخ عاطفة لا يملك منحها بإخلاص، يوقن بعجزه عن تحمل مسؤولية إسعاد امرأة لفترة طويلة. (من شابه أباه فما ظلم) جملة معلقة على الدوام أمام ناظريه كهاجس لا يغيب، ضوؤها ساطع يعمي أبصاره، فكان على الاتفاق دومًا أن يكون بطل الحكاية؛ لا بقاء أبدي ولا حب في المقابل، والكثير من المحطات العابرة المتروكة بابتسامة امتنان، مع هدية ثمينة ونفحة كريمة من المال تلون النهاية الرديئة المعتادة. وحدها قسمت جعلته ينتهك المحرمات التي وضعها لنفسه، ثم السجن الذي هزمه كفاية لينساق لرياح زاد، وها هي هزيمة جديدة تضاف لهزائمه القاسية بأرضه والأرض الغريبة.

ـ نبيذ الآلهة!

التفت صوب مصدر الصوت الغنج، ليجد فتاة في منتصف العشرينات بشعر بلاتيني وعينين بلون سماء صافية، ترتدي جينز وتيشيرت قصير عاري الكتفين يفصح عن شق نهديها، كاشفًا عن بطنها المحلاة سرته بحلقة ذهبية، تمسك بكأس صغيرة من كوكتيل الكريز والفودكا.

قال معاودًا التحديق بكأسه: هكذا يقول فيكتور هوجو.

ـ يبدو أنك بحاجة للهروب؛ الكونياك أو نبيذ الآلهة كما يطلقون عليه ثقيل. أحتاجه أيضا من حين لآخر.. تركي؟

ـ مصري.

لامست أنامله الممسكة بالكأس: فرعون إذن! ترى هل تحمل سحر الشرق أسفل هذه الملابس المملة؟

ابتسم بسخرية؛ مرة أخرى أسطورة فحولة العرب الجاذبة للأوروبيات! وقد سايرنها الأخيرات لقاء الحصول على ممارسة جنسية مريحة بلا مجهود مضنٍ يتعين عليهن القيام به مع بني جلدتهن. تجاهل الرجال العرب حقيقة مجيئهم من مجتمع منغلق كفتيل سريع الاشتعال، متوارين خلف ادِّعاء الفحولة الكاذب، لا سيما وأن الحرية الجنسية داخل المجتمع الأوروبي كانت وبالاً على أهله؛ فحين تتذوق العسل مرارًا وتكرارًا متى شئت، تخفت نكهة حلاوته، وتصاب في النهاية بحالة من الزهد تعيقك عن الاستمتاع، فتحتاج لمجهود جبار كي تشعل الرغبة، حتى انتهى الأمر بالبعض للبحث عن نوع متطرف من المتعة، لأنه وببساطة أُنهِكَت رغبته ولم يعد يجدي نفعًا إشعالها بالأساليب المعتادة، أو تحتاج لإشعالها وقتًا طويلاً يصيب الفتيات بالسأم. ورغم معيشة راغب الطويلة في أوروبا، فإنه حرص كل الحرص ألا يفلت زمام الأمر منه متحولاً في النهاية لأحد البلهاء مطفئي الرغبة، تعامل مع الأمر بحكمة شديدة وتعقل حسده عليه الكثيرون. كانت ألذ خطاياه فيما مضى أسر فاتنة غريبة بين ذراعيه، تغيب مع الإشراق حاملة سرها؛ وها هو متبتل لفترة طويلة ناسيًا حاجة وضعها فوق رف التجميد. لكن الغريب أنه زاهد الليلة أيضا في استغلال أسطورة الفحولة.

ـ لا أحمل الآن سوى ضجر ينافس المطل من عينيكِ.

اقتربت ملتصقة به: أتعلم أن الكونياك هو أكثر المشروبات الروحية صرامة؟ لا يسمحون بإطلاق اسمه على المنتج العنبي إلا بعد ضمانات قوية تثبت أنه صنع بنفس الطريقة التي يصنع بها منذ ثلاثمئة عام.

ـ وكيف يتأكدون من أمر كهذا؟

مدت أنملتها محركة حبة من الكريز بطريقة حسية مثيرة فوق سطح الطبق الخزفي، والتقطتها بين إصبيعها لتلقيها في فمها ممتصة رحيقها على مهل.

ـ تؤخذ كرمات العنب ويعتق عصيرها لعامين حتى يتم التأكد من جودة الإنتاج، وإن لم تخرج النتيجة بالشكل المرجو، رُفِض المكون برمته دون الاهتمام لضياع الوقت والمجهود والمحصول.

ـ حكاية مثيرة!

همست قرب أذنه: أملك غيرها الكثير. ما رأيك أن نقهر الضجر معًا؟ لنرَ مدى استحقاقك كالكونياك لقب فرعون! لست نزقة فأطالب بعامين كي أتحقق، تكفيني ليلة.

ـ سأكون ثقيل الدم حلوتي. سامحيني.

ـ أمتأكد أني سأعجز عن تغيير مزاجك المتعكر؟

أومأ بصمت مرتشفًا شرابه فلم ترهق نفسها بإعادة المحاولة، لكن برحيلها عاودته وحدة نهشت تلافيف مخه، فالتفت يتابعها تسير مبتعدة لتشتعل نفسه بالرغبة، حين اكتشف بغتة أنه ليس مجبرًا بعد الآن على ممارسة الخطأ، ولديه الصواب ينتظره في فراش دافئ! كعادته يتوق لامرأة وقت التيه، تكون إجابة للسؤال ومركز الاتزان بلحظات الدوار. مُرهَق من جراء صراعه النفسي وقد بدأ الكونياك يخلصه من أثقال مزعجة، يستشعر روحه أكثر خفة، وجسده يرزح أسفل وطأة احتياج مُلِح. حاول استرجاع سبب إحجامه عن زاد للآن، فتذكر أنه أمر سخيف يتعلق بالشهامة!

* * *

(٣٤)

تناولت ملعقتين كبيرتين من علبة مثلجات خُط فوقها بالأحمر (كاملة الدسم)، تلوك أسنانها بكسل قطع الفستق الباقية، متطلعة لنفسها في مرآة الزينة. تلمست وجنتيها وشفتيها في شرود، تنساب لمسات أصابعها البطيئة صوب قلادة الجعران المعلقة في رقبتها، لتعاودها ذكرى حلم تكرر مرارًا الأيام الماضية منذ ارتدت القلادة! ترى نفسها وراغب يشرفان على الوقوع داخل حفرتين متقابلتين؛ يصرخان بلا صوت مستنجدين ببعضهما، تقف بينهما امرأة في ملابس فرعونية، متقلدة الجعران حول رقبتها، تهتف بأن يمدا أيديهما لبعضهما حتى يدركا النجاة ويعيدا الجعران، فيتجاهلانها مستمرين في صراخهما الصامت، يتشبثان بطرف الحفرتين ناشبين أظفارهما في حافتيها، وتستيقظ في كل مرة تعاني جفاف حلقها، كمن أمضى الليل في الصراخ! تؤلمها عقلات أصابعها التي باتت تعتصرهما بلا رحمة. لكنها حالة غريبة من الفضول تدفعها لعدم خلع الجعران، متسائلة إن كان مسحورًا كما قيل؟! فما معنى تكرار الحلم وإصرار بطلته على إعادته لموطنه؟ من المستحيل إعادته إلى مصر؛ فهي لن تعود أبدًا وإن كان في البقاء موتها!

لا تدرى إلى متى ستبقى الحال على ما هي عليه! عاجزة عن إيقاف سيل الطعام نحو معدتها، ما تمر به الآن كارثي؛ كان لعدم اختيارها إحدى دمى كسارة البندق صدمة كبيرة على نفسها، الإحباط لعين جدًا والطعام مريح جدًا، ينزع شعور العجز ويملأ فراغ المعدة والنفس، كما أن الـcalories رائعة بحق، مشبعة كميزان ضبط المزاج! تأوهت قابضة على غرتها الطويلة تجذبها بغيظ، متناولة المزيد من المثلجات. قررت الاتصال به كي يحضر معه بعض الدجاج المقلي للعشاء، لا تملك شهية الليلة للأجبان المملة والخبز الفرنسي المسخن، تحتاج للكثير من الدهون. همت بالبحث عن هاتفها حين دلف إلى الغرفة يحمل معطفه الثقيل فوق كتفه، نازعًا ربطة عنقه، ألقى بكليهما على المقعد المجاور للباب ليسقطا على الأرض. أوشك سيجاره المحترق على الانتهاء وأزرار قميصه مفتوحة حتى حزام سرواله، تتساءل: كيف استطاع السير في الأجواء الثلجية هكذا دون أن يتجمد؟! جلس على الفراش وخلع حذاءه والجوارب ملحقا إياهم ببقية أشيائه، وارتمى إلى الوراء ممسدًا وجهه، ينفث دخانه في شرود، يتطلع لسقف الغرفة في صمت قطعه بأغرب الجمل:

ـ سأستعين بأحدهم ليرسم على السقف لوحة مشمسة وبحيرة تسبح فيها البجعات؛ لا أطيق الفراغ ـ تفرس في وجهها ثم نهض متكئًا على مرفقيه ـ ألا ترينها فكرة جيدة؟ ـ ضاقت عيناها ريبة ـ ماذا تأكلين؟

أخرجت الملعقة من فمها حاملة الباقي من أثر شفتيها: مثلجات.

نفث دخانه فانبعث كتنين مجنح غلفها بغمامة ثقيلة خنقت أنفاسها، ثم أطفأ عقبها في المنفضة وأخذ الملعقة منها لاعقًا إياها: أريد المزيد.

مدت يدها بالعلبة فغرز الملعقة متناولاً ثلاثا، وهم بوضعها على الطاولة لتقع على الأرض، انحنت بحركة غريزية كي تلتقطها، فانحسر حد سروالها كاشفًا عن أعلى عجيزتها، لتظهر شامة بلون بني يميل للحمرة تشبه شامة عنقها لكن أكبر حجمًا. التقط الملعقة قبلها ووضعها على الطاولة، فيما اعتدلت تهم بتعديل سروالها، ليمسك بيدها متأوهًا دون أن ينهض.

ـ وأخيرا الشامة الغامضة!

تمتمت بارتباك: المعذرة، يبدو أن الســـ..

شعرت بأنفاسه تلفح خصرها من الخلف: لا تعتذري، أنتظر لقاءها منذ الأزل، يبدو أن الليلة ليلة حظي رغم أن اليوم كان بائسًا ـ زحفت أنامله ببطء على طول ظهرها تلسعها برودتها ـ اكتسبتِ بعض الوزن وأصبحتِ أكثر استدارة!

ـ راغب مـــ..!

طبع قبلة متمهلة فوق شامتها أجفلتها، وأصابتها بقشعريرة سرت في جسدها المتململ بين يديه. قال بصوت أجش: أقسم إن طعمها أشهى مما حلمت به! يصيبني قربك بالهذيان يا ميلي ـ نهض متلمسًا فخذها يقربها إليه ـ هنا أيضا أكثر اكتنازًا.. أجمل.

همت بإبعاد يديه: ماذا بك؟ أنت غريب الليلة!

أدارها ورفعها للأعلى حتى أمكنه دس رأسه في تجويف عنقها: لست غريبًا، بل راغب.. راغب المتعب جدًا.. جدًا.

تلوت بين ذراعيه تؤرجح قدميها في الهواء، حريصة ألا يعلو صوتها فيطرق مسامع والدها: راغب من فضلك أنزلني.. ماذا دهاك؟

مرغ وجهه على طول عنقها تخمشها لحيته: متعب من التفكير، هل أُجْبَرْتِ يومًا على الاختيار بين إطفاء إحدى فوهتين جحيميتين؟ والاثنتان ستبيان كارثة.

دفعته مبتعدة: أنت سكران!

دفعها صوب الفراش حتى سقط كلاهما فكتمت شهقة المفاجأة، متطلعة للباب المغلق بذعر. ابتعد قليلاً يشرف عليها من الأعلى: بل أنا في كامل وعيي ـ ارتاحت كفه فوق وجنتها يداعب شفتيها بإبهامه ـ لكن مرهق لدرجة أن كل خلية في جسدى تئن طلبًا للراحة.. فقط القليل.

ـ ابتعد عني.

ـ لا.. هذه الخزامى معذبة، تثيرني كما لم يفعله شيء قبلاً، تمتزجان معًا في خليط سحري يقتلني شوقًا إليكِ.

ـ أتوسل إليك.

ـ أجل. أود الاستماع لتوسلاتك، تخيلتها طويلاً، آه يا ميلي لو تعلمين!

أبعدت وجهها عن مرمى شفتيه هاتفة بخفوت: لست ميليت، أفق أرجوك، انظر إليّ جيدًا، أنا زاد.

قبلها بحميمية أرسلت نبضات طنين لرأسها، ممزعة إياها بين رهبة ورغبة لم تعرفها قبلاً. كان لطعم قبلته غرابة شديدة؛ مرارة باهتة من دخانه وأثر تكهنت أنه رشفات نبيذ مع بقايا فستق، يعاود تمسيد وجهه بتجويف عنقها، تزحف لحيته فوق بشرتها كجحافل من النمل مدغدغة إياها، مرسلة المزيد من صفارات الإنذار لجسدها.

ـ أعرف أنكِ زاد، لكني بحاجة الآن لأن تكوني ميلي، كوني لي الليلة عرافة تمنحني السكينة؛ الصراع يمزقني إربًا.. يمزقني!

ازدادت جرأة كفيه فوق جسدها مستحيلة للمسات أكثر حميمية، فيما جعل يغرقها بسيل قبلات لا قبل لها بها، لم تعد تدري ما الذي يمكنها فعله؛ بات الخطر مزيجًا من هجوم عاطفة غريبة عليها وخوفًا من سكره. إن أرادت هذا في لاوعيها مخفية رغبتها حتى عن نفسها؛ أتقبلها الآن في صورة امرأة وهمية بخياله؟ يراها ميليت! لا يجب أن تستسلم لوهمه.

ـ أتوسل إليك، أنت لا تعي ما تفعل.

تهدج صوته بنبرة مريرة: بل أنا من يتوسلك ألا تلفظيني بعيدًا، يقطع أنفاسي دوام الركض، أحتاجك يا ميلي، أحتاجك؛ أمي وشقيقتي.. أمي.. أنا؟! اللعين.. أبي! لا تبعديني، لا تلفظيني.

انساب حفيف شعره الخافت لأسماعها مصاحبًا أنفاسه، تتطلع للمرة الألف صوب الباب المغلق؛ إن صرخت شقت الصرخة قلب والدها وإن كتمتها شقت صدرها! كان يسلبها بسرعة البرق كل العوائق بينهما؛ ملابسها، اعتراضاتها، دفاعات جسدها، عنادها، دون منحها فرصة لصد هجوم عاطفته وضعفها الخائن، فكان التشبث به الخيار الأكثر غرابة ومنطقية، وقد استشعرت ملحًا دافئًا بين شفتيها، عاجزة عن التمييز إن

كان دموعًا أم عرقًا وإن كان منه أو منها. لم يعد ثمة مهرب منه سواه! لفت ذراعيها حول رقبته، تكتم استغاثتها وصرخة ألمها في كتفيه.

لم تدر كم مر من الوقت في حالة أشعرتها بعشرات المتناقضات؛ غياب وحضور، متعة وألم، مرارة وشهد، خوف منه وسكينة بين ذراعيه، ونبض قوي يطرق طبلتي أذنيها، مع خدر يسري في جسدها من قمة رأسها لأخمص قدميها.. كهدوء ما بعد الحرب! ابتعد مستلقيًا على ظهره، يجاهد لالتقاط أنفاسه، فنأت بنفسها بدورها ونامت على جانبها توليه ظهرها وتحتضن نفسها في وضعها الجنيني. اختلس نظرة جانبية نحوها مزدردًا ريقه، يتنفس بعمق مغالبًا نفسه التي تراوده ليعاود الاقتراب منها. قال بتردد بعد وهلة صمت: أنا آسف يا زاد لكن.. تذكري أني زوجك، ما حدث بيننا أمر طبيعي، كما أني لم أكن عنيفًا ولم تكوني رافضة.

ـ لا تعتذر، أتفهمك تمامًا، كما أن الأمر كان.. لطيفًا!

توقع ألف رد عدا هذا. لن يشكك بالطبع في قدراته؛ يعلم جيدًا كم هو ماهر في الفراش، لكن أن تعترف هي بالأخص وفي المرة الأولى! استشعر أن ثمة سرًا في الأمر لكنها لم تمنحه فرصة وأجهزت عليه بالدهشة القاضية، قائلة: لنقم بالأمر مرة أخرى، أعجبني.

ـ زاد! ماذا تقولـــ....

التفتت إليه بجدية: لنمارس الـــ..؟ أعني لنفعل ما فعلناه مرة أخرى، كنت أشعر بحاجة ملحة لتناول الطعام والآن لم أعد كذلك، هذا الـــ.. الأمر يجعلني أنسى الكثير من الأشياء المزعجة.

أدرك ما كانت تخفيه أسفل ستار التصنع بأن كل شيء على ما يرام، أتاها باحثًا عن السكينة والراحة فاكتشف أنها مثله في حاجة ماسة إليهما، ود قبل قليل لو يبعث فيها الجنون ويبث فيها صخبه كي تلائم جموح ليلته، يمارس الحب معها حتى يفقد وعيه ويسقط نائمًا على كتفها من الإعياء، فيلقي بكل أعبائه وراء ظهره ويرتاح.. لكنه الآن وللمرة الأولى يشعر كم تحتاج إليه مثلما يحتاج إليها، كانت قبل قليل رحمًا احتوى

ضعفه ووجعه، لذا تعين عليه أن يكون ملاذها وإن حرنت. اقترب ولف ذراعيه حولها متوقعًا أن تبتعد؛ فأدهشته استكانتها كيمامة تتوارى داخل شجرتها الآمنة.

همس: تخيلت كثيرًا رائحة شعرك! ظننتها ستشبه رائحة التوت كلونه، فوجدت أن رائحته ورائحة جسدك ألذ من كل ما تخيلته قبلاً. تعلمين أن ما قمنا به هو ممارسة الحب، وهذا أمر لا يحدث للهروب أو للاختباء؛ يجب أن يكون على الدوام لشغف ورغبة و.. حب.

ـ وهل تحبني؟

ـ وهل تحبينني أنتِ؟

ـ لا، ليس بعد، لكن لا أنفر منك.

ـ جيد، أنا أيضا لم أحبك بعد، لكن أحب قربك وملامستك على الدوام، أراكِ لطيفة ورقيقة وشهية، أحب الكثير من الأشياء فيكِ، وأظنها بداية جيدة لأي علاقة مرتقبة. آسف مجددًا لأني أتيتك في تلك الحالة؛ كنت بحاجة ماسة لكِ ولذراعيكِ، تمامًا كما أشعرك بحاجتي.

ـ لم يقترب أحد مني هكذا؛ لدرجة تعجزني عن الشعور بشيء سواه، حتى وأنا أرقص! فأنا لا أشعر في أثناء الرقص إلا بنفسي فقط.

كانت تشع دفئًا وعذوبة؛ لم يكن يفصل بينهما سوى بعض من أثير غير مرئي، ذاب بين حرارة جسديهما المتلاصقين، فداعب شامة رقبتها بطرف أنفه، قائلاً: سعيد أني من حظي بهذا القرب الثمين، أحببت حميميتنا معًا، بيننا تناغم لطيف، أليس كذلك؟ ـ أومأت في صمت ـ ولكي تكون البداية بيننا حليبًا صافيًا بلا شيء يعكره، عليّ أن أخبرك بالكثير، وبسبب مجيئي أيضا في تلك الحالة البائسة، لذا عليّ أن أحكي من البداية ـ أدارها لتواجهه ـ لتعلمي يا ميلي أني كنت مسجونًا قبل مجيئي إلى لندن ـ زفر بسخرية مريرة ـ أنا كما يقولون (رد سجون).

* * *

(٣٥)

المواسم.. الأوقات الأكثر إيلامًا في غربة رؤوف ووفاء، تهل حاملة لروائح بعينها، لملامح معتقة بقوارير ذاكرة مخلصة لا تخون، تستفز مشاعر وانفعالات يعجز الزمن عن ترويضها، وكأن لكل موسم منها وجعه وحنينه! حين تحلق أسراب الطيور صباحًا فوق البحيرة اللندنية في إجازة يسرقانها من خضم الأيام، جالسين على عشب الحديقة الندى، تتعلق أعينهما حنينًا صوب السماء؛ يجتران لحظة رحيل نزعا فيها جذورهما الممتدة بقسوة من منبتهما. وحين يسلم الشتاء رايته للربيع؛ يستعيدان تفتح براعم المانجو فوق أشجار طريق العشاق ببورفؤاد؛ قِبلة نزهاتهم المختلسة التي ارتكب فيها لأجل وفاء أكثر خطاياه براءة؛ سارقًا بضع حبات ناضجة من المانجو تكاد تنكسر فروعها لثقل سُكَرِها، لكنه كان موقنًا بزهد مُلَاكِها فيها لكثرة ما هضمتها أمعاؤهم واشتكت من أملاحها الكلى. أما مواسم النوات التي يحفظها رؤوف عن ظهر قلب؛ فكان يسترجع معها تفاصيل شتاء بورسعيد حين يغزو غاضبًا في مراته النادرة، فيحول البحر لمرتفعات من الطود العظيم، يعجز عن منازلتها أعتى الغواصين وأمهر السباحين؛ لذا حرص على تدفئة المواسم بطقوس خاصة تمحو عنها غبار الشجن! وفيما

تعالى صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في قاعة المطعم، يمهد لقرب صلاة المغرب وساعة الإفطار، كانت وفاء تضع على الباب الخارجي لافتة (استراحة).

ـ هل أضع الزيتون الآن يا رؤوف؟

كانت زاد تحمل برطمانًا ملئ بالمخلل من صنع والدها الذي لحق بها ومعه راغب؛ حاملين أربع صينيات من الرقاق المحشو باللحم المفروم. أجاب رؤوف ممازحًا: اسألي وفاء؛ لقد انتهى عملي في المطبخ اليوم.

رُصَت المقاعد في قاعة المطعم بشكل مستطيل متحلقة حول بعضها، ووُضعَ فوق الطاولات شراشف بيضاء وباقات من زهور داخل فازات خزفية، تتناثر أطباق صغيرة من التمر وأكواب من عصائر العرقسوس وقمر الدين قرب أطباق التقديم المنتظرة لطعام ضجت القاعة برائحته الشهية. أسس رؤف قواعد هذه العادة الحميمية بين أصدقائه قبل سنوات طويلة، حين اتسعت دائرة المعارف وتوطدت العلاقات، فصارت السمسمية قبلة الأحبة في اليوم الأول من شهر رمضان. التحضير لليوم بكل تفاصيله كان يسرق الوقت سرقة، خاصة حين ينشغل ووفاء بإعداد حشوة البصل بالزبيب والكبد الخاصة ببط يرسل في طلبه من بورسعيد كل عام قبل رمضان بوقت كاف. يحرص على تقشير البصل بنفسه وباستمتاع، فيما تقف وفاء بمحرمة ناعمة تكفكف دمعاته المنهمرة جراء التقطيع، وبعدما ينتهي من وضع الحشوة الدسمة بأمان في قلب الطائر، يحول انتباهه صوب سمسمية مهدي العزيزة ملمعًا أوتارها، ويشدها بالقدر الكافي لتكون رشيقة حين تراقص أنامله.

شهر رمضان هو الأقوى طعمًا ورائحة وملمسًا؛ يستدعي معه الذكريات البعيدة الحميمة؛ كنسمات شارعهم القديم قبل مدفع الإفطار، وأصوات دوي الصواريخ والبمب من أكف الصغار، وخشاف كان مغرمًا بارتشاف منقوع تمره، تصنعه والدته كل صباح. راض لأنه استطاع منحها بعض السعادة قبل رحيلها؛ زارت لندن في رمضان بعد وفاة والده، مرتين، رافضة الثالثة بشدة، وكأن بينها وبين الموت موعدًا يستحيل أن تخلفه! حريصة

ألا تصعد روحها لبارئها سوى من بوابة منزلها وفوق فراشها، قائلة: «لن أدفن بأرض غريبة»، عاتبها في الهاتف على قسوة الكلمات فضحكت: «وهل الموت قاس يا (عبيط)؟ إنه حنان إلهي لا يدركه سوى المحبين والباقين على العهد». وكانت دومًا على عهد محبتها للجميع، حتى والده الذي صرخت مرارًا بكراهيته، سمعها في أحيان كثيرة تدعو له في أثناء صلاتها بانطفاء جذوة اللهب المستعرة بصدره!

وصلت ماليكا الحريصة دومًا على الانضمام إليهم في هذا اليوم، تحمل سلة كبيرة من الفاكهة الطازجة. أعلنت أنها تشاركهم الصوم ممتنعة عن الطعام والشراب طوال النهار عدا التدخين؛ قادرة على ترويض جوع معدتها، أما جوع روحها للاحتراق فهو أمر عسير! خاصة وأنها معتادة على الصيام؛ فثمة أنواع مختلفة منه في العقيدة اليهودية، كصيام يوم الغفران الذي يساعدهم على التجلي الإلهي واكتساب عفو الرب ومحو الخطايا وتجنب الكوارث، وقد رأت أن الصيام من الشروق إلى الغروب أكثر يسرًا من صيام الغفران الذي يتعين عليهم فيه الامتناع عن الطعام والشراب والجماع، وأحيانا ارتداء الأحذية لخمس وعشرين ساعة، حتى إن بعضهم يفضل النوم على الأرض الصلدة إمعانًا في التقشف.

وقبل الأذان بدقائق وصلت حرية وكريستوفر وابنتهما بديعة التي جعلت تتأمل فيما حولها بنظراتها المتوثبة. جلس الجميع على مقاعدهم، تسيل لعابهم الروائح المتصاعدة من الأطباق، وقد بدأ رؤوف طقسه السنوي بنوال شرف التمزيع لأول بطة على المائدة ليصفق الجميع بحماس. وفيما انهمكوا بتناول الطعام سمعوا طرقات على باب المطعم ليظهر كل من دياب ومها برفقة والدها محمود الساعي.

قالت مها معتذرة عن التأخير: جليسة الولد لم تستوعب فكرة ميعاد الإفطار المقدس!

لوحت وفاء بلطف: هيا قبل أن يبرد الطعام، أخبرنا راغب بتأخركم.

أشار رؤوف صوب المقاعد الشاغرة قرب ماليكا التي كانت تقطع بسكينها شريحة من البط، تحدج دياب بنظرة ساخرة. جلست مها قرب

وفاء تلاها والدها، وظل المقعد الشاغر قرب ماليكا، فتردد دياب لجزء من الثانية ثم جلس إلى جانبها بملامح جامدة.

ـ كم الدنيا صغيرة!

قالتها ماليكا بخفوت، متلذذة بمضغ قطعة اللحم، فيما تجاهل دياب ملاحظتها، وانشغل بارتشاف بعض العصير.

تساءل رؤوف: متى ستسافران يا راغب؟

ـ في أقرب وقت، زاد تريد البدء في عملها بالمعهد فور عودتها. سأنهي بعض الأمور العالقة هنا كي أرافقها، خاصة وقد أوشكت إقامة عمي محمد على الانتهاء؛ كما أنه لم يجد مشتريًا بعد للحانوت.

قالت وفاء: سنشتاق إليكم، يجب أن تعدونا بزيارات مستمرة.

طالعهم دياب بحقد؛ كم تمنى البقاء يوم عودة محمود الساعي لرؤية انسحاق كبريائهم جميعًا أمام أنظاره، والمذلة تلتف حول حميه العزيز وراغب كالأفعى تعتصر روحيهما المتكبرتين؛ كان الأخير على الدوام ينظر إليه من علٍ، لم يره يومًا جديرًا بشقيقته، وربما أكبر فيه صراحته رغم الإهانة، لكنّ محمود.. كان دومًا قبلة لكراهيته، لا سيما وقد اعترف في إحدى المرات بسر موافقته مؤكدًا ظنه؛ يرى فيه نفسه القديمة، وأنه خير إثبات على أن الدنيا تسير على وتيرة واحدة لا تتغير. وكأنه وافق فقط ليثبت لنفسه أن ثمة نسخًا أحقر منه في كل ركن! أي رجل يرضى لابنته بحقير مثله؟ ربما كانا يتعاونان في كثير من المصالح، لكن أيكفي هذا للتغاضي؟ ربما لا يعلم محمود بكل ثقوب نفسه السوداء، لكنه حرص على أن يكرر تاريخه القديم وبكل دقة؛ فكما تطلع الأول لوالدة مها كمستقبل باهر يفتح له ذراعيه، كان يحذو حذوه! وقد رأى محمود ذلك في عينيه جليًا. حسنًا! فليعبث كلٌ على طريقته، ولا يحق لمخلوق محاسبته، فكل منهم يحمل بئر فضلاته العفنة في قلب صدره، ومن لم يكن منهم شيطانًا ولو لمرة، فليرمه بقنبلة نووية لا حجر!

كم يشعر بالحاجة لذراعيها.. ماليكا! الشيطانة التي تقارعه جحيمًا

بجحيم، وشغفًا بشغف. لا يجرؤ على الاقتراب منها؛ من الحماقة لمس لبؤة جريحة وقد ضربها في مقتل. يوقن أن غياب الجعران لا يؤلمها بقدر ما سيوجعها أنه من فعلها، منحته جزءًا من روحها رغم كل السواد بينهما، وذاك الجزء بالأخص لن تسامحه عليه، ربما فقد أحضانها الدافئة وسخونة أنفاسها وجسدها الفتي، ولعله سيعاني الأمرين شوقًا لعنفوان أنوثتها، لكن ما كسبه من مال لقاء بيعه الجعران كافٍ لحصوله على الكثير من اللقاءات الجنونية مع جواريه من العجائز الطيعات؛ وسينجحن بلا شك في إرخاء أعصابه المتوترة.

قال دياب: أظنك سعيدًا؟ عاود الطريق الافتراش بالورود.

ـ بل في غاية السعادة يا دياب، أي عاقل سيشعر بهذا.

كان راغب تغمره السعادة، فلا أروع من أن تعود الأمور لنصابها وإن استغرق الأمر المزيد من الوقت! ليس بسبب التحولات المصيرية الكبيرة التي حدثت بمصر قبل أيام قلائل من شهر رمضان فحسب؛ بل لأجل ما يعايشه حاليًا من حالة فريدة مع زاد. ليلة اعترافه لها بسجنه والقضايا الخاصة به وبوالده؛ نهضت مبتعدة، تلف ملاءة الفراش حول جسدها، وجلست على المقعد المقابل تطالعه بنظرة ملؤها الحيرة. لم تغضب أو تثُر وتنعته بالمخادع الكاذب، بل جعلت تلقي عليه عشرات الأسئلة مستمعة لإجاباته بكل تمهل كالمحققين. رد فعل غريب أربكه! جعله يقف على حافة هاوية أوشكت على ابتلاع قلبه الوجل. نهضت مجددًا تذرع الغرفة جيئة وذهابًا في صمت، مترقبًا هو قرار الحكم بالإعدام؛ حين توقفت تمط شفتيها بغيظ:

ـ أمر مزعج! لا أنكر أني أحمل بعضًا من غضب وشعور بالخذلان، لكن ثمة نقطة مضيئة وسط ظلامنا ربما تنير بقية الطريق؛ أنا لستُ شخصًا عاديًا لأتوقع ملائكية البشر، أنا ببساطة حفيدة (الأعرافي)، أدرك جيدًا أننا نحمل الخير والشر على حد سواء، لذا سيكون علينا أخذ الأمور بروية، نحتاج لبناء جدار صلب من الثقة بيننا فلم يعد ثمة طريق للتراجع، لنخض غمار البحر معًا يا راغب؛ فإما نجا كلانا وإما غرقنا من جديد.

تنفس راغب الصعداء قائلاً: لا أجد ما يعبر عن مدى ارتياحي لقرارك سوى هدية أرجو أن تقبليها مني يا ميلي، حين تستقر الأمور بمصر، سأفتح لكِ مدرسة صغيرة للبالية تطبقين فيها كل أفكارك ورؤاكِ الخاصة.

فغرت فمها لوهلة، تلتمع عيناها ذهولاً، ثم عاودت الانضمام إليه في الفراش مانحة إياه نفسها بكل عنفوان. ربما أعجب راغب بسيرة جدها وقد أمتعته حكاياته وطبيعته المفردة، لكن في تلك اللحظة بالأخص شعر نحوه بامتنان كبير، لدرجة الدعاء بأن يدخله الله فسيح جناته، ويكفر له عن كل سيئاته!

قال محمد باسما: فعلاً شعب عبقري، في لحظة قرر التعبئة العامة وهبط للشوارع بالملايين معلنًا رفضه للحكم الإخواني، ثم عاد بعدها لمنزله وبكل هدوء ليشتري لوازم رمضان والخشاف.. كأن شيئا لم يكن!

قال كريستوفر: ليتهم يستشعرون قوتهم يا محمد! ما زالوا يجهلون لأي مدى بإمكانهم التأثير في مصيرهم.

ـ سيظلون مثالاً للتخلف، خطواتهم دومًا ناقصة لحماقتهم.

قالتها بديعة ملقية حجرًا في مياه البحيرة الهادئة، ليتبادل الجميع النظرات فيما بينهم وتلكزها حرية في قدمها: لا تكوني فظة يا ديعا، نحن ضيوف.

رفعت الفتاة كتفها بلا مبالاة: أنا أقول ما أؤمن به.

مد رؤف يده بقطعة من الرقاق: تذوقيه يا آنسة بديعة سيعجبك ـ أخذتها تطالعه بعينين مترقبتين ـ معكِ حق، نحن متخلفون بالفعل في الكثير من المجالات إن لم يكن معظمها، ولا نملك غالبًا سوى التشدق بحضارة أفل نجمها بأيدينا؛ لكنه ليس ذنبنا بالكامل، كثير من العوامل أودت بنا لهذه الحال. بلادنا لم تُمنَح فرصة لالتقاط أنفاسها، من يد الاحتلال الأجنبي ليد الفساد والنفوس الخربة، لم يحمل شخص لمرة رغبة حقيقية في تغيير أحوالها بعيدًا عن المصالح الخاصة والديكتاتورية، ولا يوجد قوانين حازمة التطبيق تحمينا وتحميه أهواء نفسه؛ لذا دومًا نخفق في خطوة ـ كما تقولين ـ تُسلمنا لمن هو أسوأ.

ـ لا تعلقوا فشلكم على مشجب الأقدار يا سيـــ...

قاطعها كريستوفر: ديعا! كلي طعامك من فضلك، كنتِ صائمة.

تدخل محمد: أرى المشهد بشكل مختلف، السلطة القديمة تطالعنا بتشفٍ قائلة (انظروا، فسدت الحياة وانقسم الإخوة من بعدي، رفضتموني فضعتم وكنت لكم السند والأمان)، وكأنها من البداية خطة محكمة لنكبل من جديد في ذات الساقية وتوضع الغمامة فوق أعيننا. لكن لا بأس، سيكون علينا مجددًا اختبار الأسود لنثمن يومًا ما الأبيض! ونتذوق المرار لنستمتع بحلاوة الطعم، ما زال الدرس مستمرًا.

اعترضت بديعة: تناقشنا طويلاً في صف العلوم السياسية عما يدور في مصر، وانتهينا جميعًا لنتيجة واحدة، الثوار جماعة من الحمقى فشلوا في الحفاظ على مكتسبات تحصلوا عليها بدماء قلوبهم، والقانون لا يحمي المغفلين.

قال رؤوف: مرة أخرى أنتِ محقة ومع الأسف.

ـ انزع الجلد عن البط يا بابا، منعك الطبيب عن الدسم.

كان راغب يطالع مها ووالده بابتسامة مزيج من السخرية والإعجاب؛ الأخير لا تعييه حيلة في الحصول على ما يريد مهما حدث. بعدما اطمأن الأطباء لحالته الصحية رفض مغادرة المشفى رفضًا باتًا، تعلل بأنه بحاجة للمزيد من الوقت للحصول على الراحة. تعجب راغب للأمر لا سيما وهو يدرك تمامًا طبيعة والده الحاسمة ورغبته الدائمة في تخطي الظروف والمصاعب سريعًا.. فلمَ التمهل؟ لتأتيه الإجابة في صورة زيارة مفاجئة من مها، تحمل باقة من الزهور بعينين دامعتين، علم بعدها أن والده كان يتصل بها من غرفته كل ليلة محدثًا دياب في بداية الأمر كرسول بينهما، حتى لانت شقيقته ووافقت على الحديث معه بضع مرات أقنعها خلالها بحالته الحرجة التي لم تعد كذلك بالطبع لولا مشيئته! لينتهي الأمر بجلوسها إلى جانبه تقشر له التفاح بيديها!

تناهى لأسماعهم صوت أجراس الباب مجددًا، نهض رؤوف ليفتح للقادم؛ ليدلف ويليام حاملاً صينية كبيرة على استحياء: هي كعكة من التشيز كيك صنعتها أمي بنفسها آملة أن تلائم أجواء شهركم المقدس.

نهضت وفاء مرحبة: كرم كبير منها يا حبيبي، هيا انضم معنا للطعام.

طبع ويليام قبلة ممتنة فوق وجنتها، فيما كان رؤوف يضع الصينية فوق طاولة الحلوى، متأملاً كليهما بحب؛ للحق لم يأمل أن تمر سحابة الحزن سريعًا، لكنه قلبها الحنون! انتظر طويلاً كي تفك حصار الصمت، وطال الوقت، حتى أدرك في إحدى الصباحات احتياجها للتعبير عن رفضها، عندما وجدها تقف أمام لوحة النوارس وبيدها دلو ملئ بطلاء رمادي قاتم، ممسكة بفرشاة تطلي بها اللوحة مخفية معالمها؛ ركض نحوها هاتفًا: وفاء، توقفي! لماذا تفعلين هذا؟

لم تستمع إليه مكملة ما بدأته في صمت، فأمسك بيدها، لتنزعها من بين أصابعه بقسوة، وترفع الدلو ساكبة محتواه فوق رأسه، غامرة جسده بالطلاء حتى اختفت ملامحه، تصرخ بلوعة، منهارة في البكاء: كيف تجرؤ بعد كل هذا العمر؟ بعد كل العذاب والحرمان؟ أكره النوارس! لا أحتمل رؤيتها؛ تذكرني بحماقتي وبأن انتظاري وإحـــ...! كيف جرؤت؟ كيف؟

احتضنها غير عابئ بمحاولات تملصها من ذراعيه وقد تلطخ كلاهما بالطلاء: أتوسل إليكِ أن تسامحيني، اقترفت جرمًا بحقك وحق نفسي التي تعشق تراب قدميكِ، أعمتني أحلام سخيفة ونسيت أنكِ كل الأمنيات.

استسلمت حين خارت قواها، وانهارت بين ذراعيه في البكاء بمرارة؛ رفض الاستسلام ثانية لرفضها، كانت الفرصة الأخيرة لاستعادتها وقد نجح، لكن لم يكن لمهارته في استمالتها الفضل؛ بل لروحها المتسامحة التي أشقاها الحزن. هاجمه ساعتها هاجس مقيت بأنها استسلمت لأنها لم تملك سوى هذا؛ هي في غربة ووحدة دائمة زادت شراستها حين علمت بخيانته، لكنه نفض الهاجس سريعًا، فعليهما أن يخلفا الماضي بكل ما فيه، خاصة ولم يبقَ في العمر الكثير، أقسم لها بأغلظ الأيمان وبأرواح كل الأحبة إنه لم ينعم بلحظة راحة والحزن مقيم في قلبها. وخلال ساعتين كانا يتابعان بسعادة تحويل مجموعة من العمال الجدار لمدفأة حجرية، امتلأت بالأحطاب المشتعلة غامرة المكان بالدفء، وقد علقا فوقها صورة لهما معا قرب البحر التقطها أحد المصورين الجوالين

على شاطئ بورسعيد قبل خمسة وعشرين عامًا.

سكب راغب بعض السلطة في طبق زاد قائلاً: أعلم أنكِ وضعت نفسك على حمية صعبة، لكن لا تنسي أننا في رمضان وكنتِ صائمة.

ابتسمت مومئة: سآكل.

لم تكن لتصدق يومًا أنها ستقترن بشخص مثله! عكسها في كل شيء، لا يميل كثيرًا للموسيقى ولا يعشق الباليه. حتى تعامله مع أمور الحياة له نزعة خاصة من العملية تفتقدها؛ هي من نشأت في بيت يعنى أكثر بالعاطفة، لا يحسب كثيرًا حساب الأيام والخطوات التالية، جل ما يهمه هو دفء القرب من الأحبة، ورغم هذا صار كل منهما للآخر في فترة وجيزة كقطرات ماء؛ تسقط فوق صخور الآخر مفتتة إياها على مهل! تتسرب روحاهما وعاداتهما لبعضهما البعض في غفلة من كليهما، ذاب شعور الغربة بينهما لتطغى حميمية دافئة لونت رمادية الأيام.

تسلمت رسالة إلكترونية من رئيسة معهد البالية؛ قد تم اختيارها في سلك التدريس هناك، مرفق بالرسالة مقطع فيديو لمجموعة من الفتيات الصغيرات يرتدين ملابس البالية، ملوحات لها بحماس، يهتفن: «نحن بانتظارك». كان للفيديو بالغ الأثر على نفسها حتى إن راغب حين رآه أصابته عدوى الحماس؛ ليوقظها أبكر مما اعتادا، مقررًا الركض كل يوم لساعة في الهايد بارك لاستعادة رشاقتها، رغم إعجابه بحالتها الجسدية الجديدة التي صنعها الإحباط، هي في الحالتين شهية لعينيه وعليها ألا تقلق بشأنه. هذا الرجل بالفعل يندس أسفل جلدها شيئًا فشيئًا، ولا تملك أمام طبيعته الإعصارية من رادع! لكن كل شيء على مهل جميل، ولترِيها الأيام ما الذي سيحمله الغيب لكليهما.

ووسط الأجواء اللطيفة؛ لم يشعر أي من الحاضرين بتوتر أسفل السطح الخفي، وتلك النظرات الجانبية التي كانت تطلقها ماليكا بين فينة وأخرى في أثناء تلذذها بالطعام صوب دياب كطلقات رصاص لا تخطئ هدفها. لم تتوقع وجوده في دعوة الإفطار السنوية، وكانت لا تزال في حالة دراسة للموقف وتدبير للخطة كي توقعه في حجرها، لكن رؤيته الليلة أشعلت

المزيد من الحرائق بنفسها المخذولة، ليست غاضبة فقط لفقدان القلادة، بل لخيانته.. أكثر ما يوجعها؛ منحته الكثير وكانت على استعداد لمنح الأكثر، لكن المعروف مع الأنذال حماقة! كيف ظنت للحظة أنه إجابة سؤالها الحائر؟ ربما لأنهما متشابهان ولهما نفس الأهواء والشرور والنفس الممزعة الناقمة؛ ظنت أن الحال ستكون مثالية! لكنها نسيت أنهما حقًا متشابهان، لهما طباع القطط الغدور؛ لا أمان لكليهما مهما غلبتهما العاطفة؛ لذا كان من المستحيل أن يصبح حائط مبكاها.

نهض دياب مستئذنًا: سأخرج للتدخين، الصيام عن السجائر عذاب.

نهضت ماليكا بدورها معلنة رغبتها في الانضمام إليه، تناولت علبة سجائرها الوردية وقداحتها، فأشار لها بلطف كي تسبقه، فيما تبادل كل من مها وراغب النظرات، ثم أشاحت الأخيرة تكمل طعامها.

نفثت ماليكا دخان سيجارتها بعصبية بعد خروجهما من المطعم:

ـ أين ذهبت بجعراني يا دياب؟

نفث دخانه في وجهها، فيما تتعالى نغمات السمسمية من الداخل مصاحبة صوت رؤوف بإحدى أغنيات الفولكلور البورسعيدية.

ـ لا أظن الجعران ملكية خاصة بكِ يا كوكو.. مهلا! هل قلتِ ذهبتُ به؟ وهل فقدتِه؟

ـ كلانا يعلم أنك سرقته، لا تلعب هذه اللعبة الحمقاء معي، هي غير مأمونة العواقب، ائتمنتك على الكثير وخنت، والعقاب سيكون تدميريًا.

ـ لا أحب هذه النبرة المهددة، تعرفين دياب.

أمسكت ذراعه بقسوة: أين جعراني يا دياب؟ هو إرث بعائلتي منذ عقود، نحن لا نسمح لمخلوق بانتزاع حبة رمل مما نملك، كيف تجرؤ؟ استمع إليّ، يمكننا إلقاء ما حدث خلفنا، لا تزال هناك فرصة لتلافي الدمار، فقط أعده لي وستكون آمنًا.

قهقه بقسوة: لا تخيفينني يا ماليكا، الشياطين لا تخشى بعضها البعض.

سحقت السيجارة أسفل قدميها قائلة: أعدك بالندم الشديد، ندم لن يصلح معه أي محاولة للملمة حطامك.

* * *

(٣٦)

توقفت الليموزين السوداء أمام بوابة مطار هيثرو، لتهبط بديعة بصحبة فتاتين يبدو على ملامح ثلاثتهن حماس متقد. ترجل راغب حاملاً ابن شقيقته، تلته زاد ثم مها متشحة بثوب أسود، تضع نظارة شمسية قاتمة فوق عينيها. وفور اقترابهم من البوابة انشقت الأرض بغتة عن جمع من الصحفيين والمراسلين مدججين بميكروفونات وكاميرات تصوير، مشهرين في وجوههم عشرات الأسئلة يرددونها بهستيرية جعلت الطفل ينفجر في بكاء مذعور.

ـ هل سمحت لكم السلطات بالسفر حقًا أم أنها محاولة للهروب؟

قال راغب من بين أسنانه: لسنا مجرمين لنسعى للهروب.

ـ هل كان القتيل حقًا جاسوسًا؟ ألم تعلموا شيئًا عن حقيقته الخفية؟

صرخ بهم فيما تعلقت مها بذراعه في رعب: بحق الله معي طفل هنا!

حاول دفعهم بحزم كي يفسح الطريق للنساء الخمس، لتبوء محاولته بالفشل، فاضطر للكم أحدهم بقسوة شديدة تفصدت معها الدماء من أنفه، ما أصاب البقية بالذعر فتقهقروا قليلاً إلى الخلف، ليسارع مستغلاً اللحظة الثمينة في التسلل من بينهم، متيحًا لمن معه التقدم وعبور البوابة

أخيرا لداخل المطار. كانت من أكثر اللحظات رعبًا للجميع؛ لم يعايش أي منهم موقفًا كهذا من قبل، شاهد لقطات شبيهة على شاشة التلفاز في الأخبار وبرامج الباباراتزي المهتمة بحياة النجوم الخاصة، لكنه أبدًا لم يتخيل المرور بموقف مثله، على أي حال لم يكن يتخيل المرور بالكثير من الأشياء التي اختبرها في الفترة الأخيرة، والآن مها! كلما نجحت المسكينة في الخروج من بئرها المظلمة تسارع الحياة بدفعها لتعاود السقوط! والضربة قاصمة.

أجلسهن في ركن هادئ من كافيتريا المطار انتظارًا لإقلاع الطائرة، متنفسًا الصعداء بعد اطمئنانه لهدوء الصغير وعودة الابتسامة اللاهية لشفتيه. يحمد الله أن مها لم تكن حاملاً كما ادعت؛ كذبت عليه وربما هو أخف الضررين؛ فتناولها المهدئات كان ليصبح كارثة على الطفل، لا سيما أنها لم تكن قد أقلعت عنها بشكل نهائي، متناولة إياها على فترات متباعدة لحظات توترها.

ها هي الأعباء تزداد عليه؛ سيتعين عليه الاهتمام من الآن فصاعدًا باثنتين، لا.. بل خمس! فبديعة وصديقتاها أمانة أيضا في عنقه؛ أصر كريستوفر ألا تسافر إلا برفقته متعللاً بأنه سيكون أكثر اطمئنانًا عليها وهو في القاهرة، بخلاف إصرار بديعة على الإقامة في فندق مع صديقتيها، رافضة كل المحاولات لإقناعها بأنها ستحصل على كامل الخصوصية والراحة في فيلا الساعي؛ وهكذا ستظل إحدى مشاغله طوال فترة إجازتها.

كالعادة النساء! أتى لندن وحيدًا يعاني الغربة وسيخرج منها بقبيلة صغيرة منهن؛ العلامة الفارقة والمميزة لعالمه على الدوام، لا تنهض أعمده حياته بدونهن؛ ولا يشعر بالاستقرار إلا بتحمله مسؤولية تخصهن، من البدء كانت والدته، ثم مها وبعدها عشيقاته؛ كان يشعر بالمسؤولية تجاههن وإن ادعى العكس! صورة الحزن في عيني والدته إشارته التحذيرية الدائمة؛ لم يجرؤ على التسبب بصنع بائسات جديدات ينقمن على الحياة بسببه.. وإن فشل أحيانا. حتى قسمت كانت إحدى تلك المسؤوليات وظلت هكذا بعد رحيلها لفترة طويلة؛ دومًا للنساء نصيب الأسد في معارك حياته الصاخبة.

قالت مها بشرود: يكذبون! أليس كذلك يا راغب؟ مستحيل أن يقيم علاقات كهذه، كان يحبني؛ كيف إذن ينظر لغيري ولا سيما لعجائز؟

ناولها محرمة ورقية لتكفكف دموعها التي لم تتوقف منذ علمت بالخبر.

ـ أجل يا مها كان يحبك، أنا موقن بهذا رغم اختلافي معه، هناك ألف احتمال قائم لن نستطيع الجزم به، فعدة أطراف مخابراتية ربما تكون شريكة في الحادث، هذا ما أخبرنا به المحققون.

أومأت بحزن: أجل، كان يحبني. سأذهب لأغسل وجهي.

اصطحبتها بديعة لدورة المياة، فسألته زاد: أليس من الأفضل أن تعرف الحقيقة؟ لماذا تساعدها على العيش في الوهم؟

ـ مها الآن في أضعف حالاتها وأكثرها هشاشة، عليّ أن أكون رحيمًا بها إلى حين ـ طالعته باسمة ـ هل أرى لمعة حب في عينيكِ أم أهذي!

زاد محقة في وجهة نظرها، هو منطقيًا مخطئ في التعامل بهذه الطريقة مع مها، لكن إنسانيًا ونفسيًا لا مفر من الإبقاء على فقاعة الحماية حولها ولو لبعض الوقت. حين بلغهم الخبر قبل أسبوعين بشأن العثور على جثة دياب في إحدى الشقق الصغيرة بضاحية تشيلسي؛ ظلت مها لثلاثة أيام منكرة للخبر تمامًا. أنهكته محاولة إخضاعها لتقبل مقتله، وقد طالب المحققون كثيرًا بلقائها للحصول على إفادتها بشأن الحادث.. بل إفادتهم جميعًا. مات دياب مسمومًا! عثروا بجانبه على زجاجة من شراب مسكر علم من المحققين أنه لا يصنع إلا في المغرب يدعى الماحيا مخلوط به سم زعاف! للآن لم تستطع الجهات المختصة التوصل ولو لخيط صغير يرشد عن القاتل، حتى أجهزة المراقبة في البناية وكاميرات التسجيل تم تعطيلها قبل الحادث بساعتين كانتا كافيتين للقاتل كي يرتكب جريمته بأريحية، لكن السؤال الحقيقي: من يمكنه خداع دياب هكذا ببساطة؟ دياب يملك مكر الثعالب وحرص الذئاب، لا يغفل للحظة عما يدور حوله! كيف ومن؟ حتى الآن هو سؤال بلا إجابة رغم أن بعض الشبهات تشير لعنصر نسائي، فلا مخلوق يجرؤ على الاقتراب منه بهذه الدرجة

سواهن؛ خاصة وأنه مات شبه عارٍ. لكن المدهش في الأمر أنهم لم يعثروا فقط على شراب ماحيا وبعض أسطوانات مدمجة سجلها دياب لنفسه في أوضاع مخلة مع عجائز اتضح ترددهن عليه من وقت لآخر، بل عثر أيضا على مجموعة من الوثائق السرية تخص الأمن القومي لدولتين منهما مصر، دون معرفة للجهة التي كانت سترسل إليها، أو التوصل لمن أحضرها، كما عثر على قطع أثرية لتماثيل فرعونية يبدو أنه كان على وشك التصرف فيها. اتضح للجميع أن دياب لم يكن سوى قمة جليدية صغيرة لجبل ممتد بعمق المحيط، فأصبح من المنطقي دوران الشبهات حول عدة أطراف؛ ربما كانت امرأة أو عميلاً ممن كان يبيع لهم الآثار، ولعلها جهة مخابراتية رأت أن تصفيته أمر حتمي! كل هذا لم يكن مهمًا بقدر أهمية تبعات الحادث على أسرته؛ بعض الأشخاص تؤثر بهم الخطوب كشقيقته، تضربها أقل النسمات مطيرة إياها، مزلزلة عالمها، وهناك الآخرون كوالده، لا تؤثر فيهم أعتى الرياح؛ لم يسافر معهم لأنه وببساطة قرر البقاء لتمضية عطلة طويلة مع فاتنة التقاها بالريف الإنجليزي، لتظل بعض الطبائع جامدة كحجر الصوان لا تتزحزح!

سلمه أحد العاملين حقيبة جلدية، فيما تعالى رنين هاتفه؛ كان مساعد الدكتور عميري الذي التقاه في حفل السفارة؛ يخبره أنه أرسل له ملف المشروع الذي طلبه من الدكتور، ويعتذر عن التأخير؛ لم يكن الدكتور عميري يثق في جدية مبادرته بعد كل المحاولات المضنية قبلاً. سألته زاد عما يحويه الملف بين يديه.

ـ انظري بنفسك.

فتحته تطالع الأبحاث والمستندات، متسائلة بحيرة: هل ستزرع أزهارًا؟!

ـ ربما، لا أدري بعد، السماء عادت صافية وكل الاحتمالات قائمة.

تناهى لسمعه نداء الطائرة المتجهة للمغرب، فيما لمح من بعيد ماليكا تحمل حقيبة سفر صغيرة، متوارية خلف نظارة سوداء. قطب بحيرة مسترجعًا ليلة أمضاها بصحبتها في أحد الفنادق؛ حين أخبرته ولا يزال خدر انتشائها يعبث بأوردتها أن لها أصولاً عربية تمتد بتاريخ المغرب العتيق؛ لا يدري

ما جعله يتذكر الأمر الآن، مستعيدًا تلك اللقطة القصيرة ليد دياب تداعب ظهرها العاري في حفل السفارة، كان يوقن بأن بينهما علاقة حميمة، لكن لم تسنح له الفرصة لتأكيد شكوكه.

انتزعه صوت زاد: انظر! يذيعون على شاشة التلفاز أن أحدهم لصق قناع توت عنخ آمون بمادة صمغية سيئة ـ أمسكت بالجعران المعلق في رقبتها ـ ماهرون في الإفساد! كم أخشى حماقات جرائمهم؛ قطعة أثرية بتلك الأهمية فشلوا في الحفاظ عليها، ماذا إن منحتهم قلادة صغيرة؟ بالتأكيد سينتهي أمرها في لمح البصر.

سألها راغب بدهشة: ومن طالبك من البداية بمنحها؟

ـ ألم تكن رغبة جدي؟

ـ لكن هذا لا يعني بالضرورة أن تُسلَم لوزارة الآثار، ربما أراد فقط أن تعود القلادة لموطنها، ثم إنها عمليا ملك لنا؛ دفعت عمتك حرية ثمنها.

ـ يقال إن هذه الأشياء لا تقدر بثمن.

ـ ما يقال شيء والواقع شيء آخر، هذا هو المنطق.

ـ منطق الأفاعي، لكن ربما تكون محقًا! أتعلم؟.. يكاد يقتلني الفضول لمعرفة ما جعلك متحمسًا فجأة للعودة.

ـ أتذكرين حين سألتني في حديقة الهايد بارك ماذا سأقول أمام جمع من البشر إن سنحت لي الفرصة، وقلت إني سأنتظر بصبر ليهدأ الصخب.

كانت مها قد عادت بصحبة بديعة حين تردد صوت المضيفة عبر مكبر الصوت؛ تعلن عن قيام الرحلة المتجهة لمطار القاهرة وأن على المسافرين التوجه لبوابات الإقلاع. حمل الجميع حقائبهم يهمون بالمغادرة فأمسكت زاد ذراعه: لم تجبني!

ابتسم وومیض من المكر يلوح في عينيه: لأنهم صمتوا أخيرا، هدأ الصخب؛ وحان دوري مجددًا في الحديث.

تمت